

تاريخ الحضارة



منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الحضارة

الدكتور إبراهيم زعرور
أستاذ في قسم التاريخ

الدكتور عمار النهار
أستاذ في قسم التاريخ

الطبعة الأولى

1431 - 1432 هـ
جامعة دمشق
2010 - 2011 م



المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عندما نتحدث عن حضارة أمة ما؛ فإننا نتعرض لخلاصة تجارب هذه الأمة وما أنتجته من فكر وعلم وثقافة، فكيف إذا تحدثنا عن حضارات العالم أجمع، إننا سنجد ما ذكرناه قبل قليل وسنجد أموراً أخرى هامة جداً، أحدها تواصل حضارات العالم مع بعضها البعض في تلك الأزمان، وأحدها تكامل حضارات العالم، وأحدها تبادل الفكر بين هذه الحضارات، ومن هنا تأتي مقولة الظاهر بيبرس: التاريخ أعظم من التجارب، ففي التاريخ مستودع تجارب الإنسانية، وما علينا نحن إلا إعادة القراءة ثم تحصيل الفائدة.

والتاريخ الحضاري هو التاريخ الحقيقي، ففيه إنجازات الأمم واختراعاتها وإبداعاتها، وفيه القوانين الاجتماعية والاقتصادية، وهي مما يمكن أن تقتبسها الأجيال، ثم لتتابع مسيرة التطور.

فالأجيال السابقة ألمت بتطورات العلوم في العصور التي سبقتها، ودرستها واستوعبتها جيداً، ثم بدأت بنهضة جديدة، فأضافوا إلى آراء من سبقوهم الكثير، واضعين نظريات عديدة، ومبتكرين بحوثاً جديدة، فشيدوا بذلك نهضة علمية على أجيالنا اليوم أن تستغلها وتمارس من خلالها دورها الحضاري.

والجميل في الحضارة أنها تشمل الجانبين: المادي والمعنوي، وهذه ميزة لا تكاد تكون لغيرها. ومع كل ذلك فإن الدراسات التاريخية في الماضي – وحتى في الحاضر – ركّزت على الجانب السياسي والحروب والمعارك، ولم تعط الدراسات الحضارية حقها، كما أن المراجع التي تبحث في الحضارة وتاريخ العلم قد وضع معظمها علماء أجانب.

ولذلك كان هذا الكتاب الذي بين أيدينا والذي يشتمل على حضارات العالم في الشرق والغرب، وقد جعلناه ثلاثة أقسام، سبقها مدخل تتضمن مفاهيم الحضارة وعوامل قيامها، أما الأقسام الثلاثة فاشتملت على مايلي:

القسم الأول ويشتمل على الحضارات العربية القديمة في مصر وفي بلاد الرافدين وفي بلاد الشام، وقد جعلناه ثلاثة فصول.

ويشمل القسم الثاني الحضارات الأجنبية القديمة في الهند وفارس والصين واليونان وروما وأمريكا، وجعلناه ستة فصول.

ويشمل القسم الثالث الحضارة العربية الإسلامية، وكان الحديث عن هذه الحضارة العظيمة في النقاط التالية: صفاتها ومقوماتها، وأماكن التعليم والمؤسسات العلمية، والنظم السياسية، والإنجازات الحضارية لهذه الحضارة، وجعلناه أربعة فصول.

وقد كتب الدكتور إبراهيم زعرور القسم الأول، وكتب الدكتور عمار النهار المدخل والقسمين الثاني والثالث.

فنأمل أن يحقق هذا الكتاب الأهداف المرجوة منه، وأن يعرّف المهتمين بأبرز إنجازات الإنسانية في الشرق والغرب وفي مختلف الأزمنة والعصور، والله أعلم.

والله الموفق

– مدخل إلى مفاهيم الحضارة وعوامل قيامها:

جاءت كلمة الحضارة من العيش في الحاضر، وأطلق الباحثون كلمة حضارة على مظاهر رقي الإنسان في جميع نواحيه الأدبية والعقلية والروحية والمادية، ولو أنّ الجانب المادي منها يدل على مدى تمدن الأمة وأخذها بأسباب السعادة والرفاه.

وعرّف ابن خلدون الحضارة فقال: «هي نمط من الحياة المستقرة يُنشئ القرى والأمصار، ويضفي على حياة أصحابه فنوناً منتظمة العيش والعمل».

والمدنية: هي الجانب المادي من مظاهر الحضارة، وهي ما أنتجه العقل الإنساني من مخترعات متطورة.

والثقافة: هي الجانب المعنوي من مظاهر الحضارة، وتعني: العلم والمعرفة والآداب والفنون [1].

وبعض الكتّاب يميز بين لفظي: حضارة ومدنية، فيجعل لفظ الحضارة خاصاً بالتكوين الثقافي والمعنوي لمجتمع ما، ولفظ المدنية يعد أكثر اتصالاً بالمظاهر المادية المتصلة بالحياة العلمية.

وهذه التفرقة بين الحضارة على أنها تختص بالجوانب الثقافية والمعنوية، بينما تختص المدنية بالجوانب المادية والعملية، أدت إلى اقتراب لفظ الحضارة من لفظ الثقافة إلى حد صعوبة التمييز بينهما.

إذاً تُستخدم كلمات: الحضارة والمدنية والثقافة؛ أحياناً وكأنها تحمل معاني واحدة، حيث يمكن استخدام كل منها بصورة توحد بينها جميعاً من حيث المعنى والاستخدام، وهذا تفسير ترفضه اللغة، ويرفضه الواقع الحضاري للمجتمعات، وهذا يضطرنا إلى تناول كل حضارة ككيان بذاته، إذ أن لكل حضارة تصورها الخاص الذي يسيطر ويوجه نتاج جميع الحضارات.

هذا مفهوم الحضارة من حيث اللغة، أما من حيث الاصطلاح، فلا بد أن نشير إلى أن الحضارة (في تاريخ الاصطلاح الغربي) من أهم مجالات الدراسات التاريخية، لأن التاريخ يدرس الحضارات ضمن مجالاته، وهذا ما دفع المؤرخ الشهير توينبي إلى جعل الحضارة محور الدراسات التاريخية، ويترتب على ذلك أن الحضارة جزء من التاريخ، ولأن التاريخ في حاجة إلى مناهج الفكر الفلسفي، فقد اتسع مجال فلسفة التاريخ، وبذلك نصل إلى تحديد الموقع الحقيقي للحضارة وفلسفتها بين كل من التاريخ والفلسفة، حيث أن فلسفة الحضارة علم يقع في المنتصف بين كل من التاريخ والفلسفة، ومن علم التاريخ ندرس تاريخ الحضارات، ولذلك يتنوع تعريف لفظ الحضارة بين علماء الأنثروبولوجيا و علماء فلسفة التاريخ والموسوعات، وتفسير الإسلام لها.

في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) أبرز الأنثروبولوجي تيلور سنة 1871م أن الثقافة: كل مركب يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية، وكل القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في جماعة. وأشار الأنثروبولوجي الأمريكي كلايد كلاكهون إلى أن الحضارة تعني النتاج التاريخي لتنظيم المعيشة، وذلك من خلال مشاركة الجماعة.

وأقرت دائرة المعارف الأمريكية بصعوبة تعريف لفظ الحضارة، فأحياناً أشارت إلى أنه النظام الذي يوجد فيه المواطن الذي يملك الوسائل الجيدة والتحكم النفسي، وذلك هو الإنسان المتحضر، وبهذا المعنى فإن كتّاب القرن التاسع عشر استخدموا لفظ

الحضارة للتعبير عن التقدم في عالم المعرفة والإبداع الذي يسمح للإنسان أن يسلك السلوك الحضاري.

وفي القرن العشرين ذُكر أن التصور الأنثروبولوجي للثقافة هو مجموعة تعاليم فطرية مكتسبة بالسلوك، وعرّفوا السيرة الحضارية أنها السلوك الذي يسلكه الفرد بوصفه عضواً في مجتمع منظم من الأفراد، ذلك أن كل فرد في ذلك المجتمع يعد نتاجاً تاريخياً لتلك الحضارة، والحضارة هي مجموع خبرات الحياة بالنسبة لكل فرد، وجاء أيضاً أن الحضارة ليست هي التقدم التكنولوجي فحسب، وإنما هي الارتقاء العقلي والإيمان بالقيم الإنسانية لخير الإنسان وسعادته، وأن الحضارة بلفظ آخر هي المدنية وتعني التمدن والتحضير[2].

و نجد عند فلاسفة التاريخ والحضارة هيجل يعرّف الثقافة والحضارة (بمزيج من التناقضات)، فهو يرى أن كل عصر أو مدة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية، كلها جوانب أو نواحٍ للمجموع الحي، ومنها جميعاً يتكون كيان متجانس، وأن كل مرحلة أساسية تنمي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها، ويستمر الصراع دائماً، فتتحد المبادئ المتناقضة في وحدة عليا هي الموحد، وهذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد، فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعّال من كل من الفرضية ونقيضها، وبهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى المطلق الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبين فيه أي تناقض.

و يتضح في فلسفة التاريخ عند هيجل، ليس موضوع التاريخ أفعال أفراد جزئيين، وإنما موضوعه ذلك الصراع بين العوامل والقوى المتعارضة، ووعي الروح بذاتها بل تحقيقها لذاتها من خلال هذا الصراع[3].

ويرى (ول ديورانت) أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وأنها تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[4] .

وأما أرنولد توينبي – والذي تعد نظريته من أهم نظريات فلسفة التاريخ – فيرى أن التاريخ هو إحدى النوافذ التي لا تحصى التي تطل على الحقيقة، ويعرّف المدنية: بأنها أصغر وحدة للدراسة التاريخية يصل إليها المرء حين يحاول فهم تاريخ بلاده، وفي رأيه أن الحضارة تنشأ عن الأديان فيربط الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية، ويقول أن الحضارة الغربية وحدها التي تحافظ على الشرارة الإلهية الخلّاقة، وهي وحدها القادرة على ألّا تؤول إلى ما آلت إليه سابقاتها، ويرى أن الإمبراطوريات ليست مقياساً للحضارة، بل على خلاف ذلك، إنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة.

وهناك من تناول الحضارة للدلالة على جانبين، الجانب الروحي والجانب المادي أو التكنولوجي .

أما القرآن الكريم، فنجد فيه فيما يقابل البداوة والترحال: حاضرة ومتحضرة، يقول تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [5] [6] .

و نختار من الفكر الإسلامي الحديث رؤية مالك بن نبي، الذي اتجه منذ نشأته نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به، وقد أعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أو لا وقبل كل شيء، فوضع جميع كتبه تحت

عنوان «مشكلات الحضارة».

واهتم ابن نبي بدراسة التاريخ يرقب فيه سير الحضارات، ويستخلص القواعد الثابتة والسنن التي لا تبدل لها، وقد طرح القواعد الأساسية لفعالية الإدارة الإنسانية وقوتها في صنع الحضارة.

ولذلك يرى أن مشكلة كل شعب هو في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبين الحضارات أو تهدمها. ويرى أن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعاً ومنهاجاً، أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام.

ويؤكد ابن نبي أن البناء الحضاري يقوم على مقوّمات الروح والعقل معاً، فإن أي مجتمع لا يستطيع البقاء بمقوّم دون الآخر.

وأخيراً فإنه يعرف لنا الحضارة بما يأتي: «إن الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه». [7]

و لايمكن أن تقوم الحضارة في مناطق لا تتوافر فيها أسباب وعوامل هذا الفعل الحضاري، وبالتأكيد هي أسباب وعوامل مختلفة من حيث التكوين والتأثير العام، فهي أسباب جغرافية، بمعنى أن الحضارات في العصور القديمة لم تزدهر في المناطق ذات التأثير على النشاط الإنساني، كما هي الحال في المناطق شديدة الحرارة والبرودة، بل ازدهرت على نحو لافت في المناطق المعتدلة، التي تساعد فيها عوامل الطبيعة على استمرار وحيوية

النشاط الإنساني. وهي أسباب اقتصادية، بمعنى أن تتوافر منتجات زراعية وثروات أولية متنوعة، من أجل أن تقوم صناعة متطورة، وبالتالي تجارة رائجة ومزدهرة. وهي أسباب اجتماعية، إذ تتوافر مجموعة كافية من الناس، تتوفر فيهم استعدادات إيجابيـــة معنيـــة، لتكون باعثاً على العلم والتحصيل والمثابرة، ويكون ذلك بالتعاون الصادق بين أفـــراد المجتمع على أسس أخلاقية تنتفي معها بالضرورة كل أشكال التمييز والتفرقـــة. وهـــي أسباب ثقافية في جوهرها، وقيام أية حضارة لايمكن أن يأتي من فراغ، بل من خـــلال تراث ثقافي متراكم عبر الزمن، يؤدي في حقبة معينة إلى نتائج علمية مرموقة، تســـاعد بدورها على صنع حضارة متقدمة ينتفع فيها الإنسان وتزدهر حياته.

وانطلاقاً من توافر هذه العوامل والأسباب، فإن الحضارة بوصفها مفهوماً تقترب من المعارف في مجال الفن والقانون والعادات والأخلاق والمعتقدات والأعراف الإيجابية وكذلك القيم العلمية الناضجة المشجعة على إنتاج حضاري ملموس، وهذا ما أكده ابن خلدون، الذي ذكر أن الحضارة هي تقدم ملموس في كل مجالات الحياة، يكون هدفـــه الإنسان وتحقيق رفاهه، و أكد في العصر الحديث ول ديورانت على ذلك، حينما ذكـــر أن المدنية تشكل أهم مظاهر الحضارة هي مجموعة من الأعمال والســـلوكيات المهذبـــة وكذلك ممارسات الإنسان على الأرض .

وقد أبدى الفلاسفة والمؤرخون وعلماء الآثار القديمـــة أســـباباً كـــثيرة لقيـــام الحضارات وانهيارها. وقد شبَّه هيجل الفيلسوف الألماني في أوائل القرن التاسع عشـــر المجتمعات بالأفراد الذين ينقلون شعلة الحضارة من واحد إلى الآخر، وفي رأي هيجـــل، أنه خلال هذه العملية تنمو الحضارات في ثلاث مراحل:

1- حُكْم الفرد، 2- حُكْم طبقة من المجتمع، 3- حُكْم كل النـــاس، وكـــان هيجل يعتقد أن هذا النسق تسفر عنه الحرية فى آخر الأمر لجميع الناس.

وكان الفيلسوف الألماني أوزوالد سبنجلر يعتقـــد أن الحضـــارات مثلـــها مثـــل

الكائنات الحية تولد وتنضج وتزدهر ثم تموت. وفي كتابه انحدار الغرب، ذكر أن الحضارة الغربية تموت، وسوف تحل محلها حضارة آسيوية جديدة.

وعرض المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي نظريته عن التحدي والاستجابة في كتابه دراسة التاريخ،كان توينبي يظن أن الحضارات تقوم فقط حيث تتحدى البيئة الناس، وحينما يكون الناس على استعداد للاستجابة للتحدي. على سبيل المثال، فإن الجو الحار الجاف يجعل الأرض غير مناسبة للزراعة ويمثل تحدياً للناس الذين يعيشون هناك، ويمكن أن يستجيب الناس لهذا التحدي ببناء أنظمة ري لتحسين الأرض، ورأى توينبي أن الحضارات تنهار حينما يفقد الناس قدرتهم على الابتكار.

ويذهب معظم علماء الآثار القديمة إلى أن بزوغ الحضارات يرجع إلى مجموعة من الأسباب تشمل البناء السياسي والاجتماعي للحياة والطريقة التي يكيف بها الناس البيئة المحيطة بهم والتغيرات التي تطرأ على السكان. وفي كثير من الحالات، يمكن أن تظهر الحضارات لأن رؤساء القبائل المحليين اتخذوا خطوات متعمدة لتقوية نفوذهم السياسي. ويظن كثير من العلماء أن سوء استخدام الأرض والمصادر الطبيعية الأخرى أسفرت عن الانهيار الاقتصادي والسياسي للحضارات الأولى.

ومن الجدير بالذكر أنه ينبغي أن تتكامل العوامل والأسباب بعضها مع بعض للمساعدة في قيام حضارة حقيقية تتسم بالنضوج والتقدم، وتخلو من العنصرية والعدوانية والفاشية وسواها.

وأي خلل في أي من العوامل والأسباب الأنفة الذكر، يؤدي بالضرورة إلى خلل في مسألة المنجز الحضاري ومع ذلك فقد ظهرت نظريات مختلفة تؤكد على عامل دون آخر، فنظرية التحدي والاستجابة التي قال فيها آرنولد توينبي، تركز على التحديات الطبيعية التي استطاع الإنسان أن يقهرها ويطوعها وأن يقيم حضارة معينة، ونظرية المادية التاريخية التي قال بها الماركسيون، تؤكد على الباعث الاقتصادي لصنع الحضارات

الإنسانية. [8]





القسم الأول

الحضارات العربية القديمة


وقل رب زدني علما
Damascus University

الفصل الأول
الحضارة المصرية

أولاً– موجز تاريخ مصر القديمة:

كانت مصر القديمة مهداً لواحدة من أولى حضارات العالم، وقامت هذه الحضارة المتقدّمة منذ نحو 5000 سنة مضت على ضفاف وادي النيل في شمال شرقي إفريقيا. وقد عاشت هذه الحضارة لأكثر من ألفي سنة، وبهذا أصبحت أطول حضارة مُعمّرة في التاريخ .

كان نهر النيل شريان الحياة لمصر القديمة، يفيض في كل سنة، وتترسّب شريحة من التربة الغنية السوداء على امتداد ضفتيه، وقد ساعدت التربة الغنية المزارعين في تنمية إمداد غذائي ضخم. وأطلق قدماء المصريين على بلدهم كيميت، وتعني الأرض السوداء تيمّناً بتلك التربة الداكنة. وفّر النيل كذلك المياه للري، كما كان الطريق الرئيسي للنقل في مصر، لهذه الأسباب مجتمعة أطلق المؤرّخ اليوناني هيرودوت على مصر هبة النيل(9).

و كان أول المجتمعات المعروفة في مصر القديمة قرى تأسست منذ أكثر من 5000 سنة مضت. وبمرور الوقت أصبحت القرى جزءاً من مملكتين تحكمت إحداهما

في القرى الواقعة في دلتا النيل، وتحكّمت الثانية في قرى جنوب الدلتا. وكانت منطقة الدلتا تعرف باسم تا ــ محو تقابل الوجه البحري حالياً، والإقليم الجنوبي يسمّى شمعو، وتقابل الوجه القبلي حالياً[10].

أدى التطور في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في مصر القديمة إلى التحول من النظام القبلي إلى نشوء الدولة، وهكذا ظهر في مصر عدد من الدول الصغيرة، وإن ضرورة توحيد الجهود من أجل الدفاع المشترك ضد المغيرين، أو لتنظيم وسائل الري وضبط فيضان النيل وغير ذلك، كل هذا اقتضى توحيد تلك الدول الصغيرة. وقد تم ذلك بطرق سلمية أحياناً، أو عن طريق الغزو والفتح أحياناً أخرى. كما تمت عملية اتحاد دول المدن العديدة بصورة تدريجية، وفيما بعد نشأت عن هذا الاتحاد دولتان كبيرتان هما: دولة مصر العليا (جنوباً في وادي النيل)، ودولة مصر السفلى (شمالاً في دلتا النيل)، ولكن لم يتوقف الأمر عند هذا بل إن ملوك مصر العليا، الذين شعروا بتفوق قوتهم، راحوا يعملون لإخضاع مصر السفلى تحت سلطتهم بدافع الحصول على المراعي الواسعة في الدلتا، وكذلك من أجل الحصول على منفذ إلى البحر المتوسط وطريق بري إلى آسيا عبر سيناء. وتشير وثيقة تاريخية إلى إحدى محاولات مصر العليا ضم دلتا النيل تحت سلطتها وهذه الوثيقة عبارة عن لوحة من الإردواز تمثل انتصار ملك الجنوب نارمو على دولة الشمال، وتشير الكتابة التصويرية البدائية الموجودة عليها إلى أن الجنوبيين أخذوا من الشماليين ستة آلاف من الأسرى، ولكن على ما يبدو أن اتحاد شمالي مصر وجنوبيّها تحت سلطة نارمو لم يكن متيناً، أو أنه لم يدم طويلاً [11].

بدأت الحضارة المصرية حوالي 3100ق. م. وحسب الرواية المتداولة استطاع ملك الوجه القبلي، واسمه مينا، هزيمة ملك الوجه البحري في ذلك التاريخ. بعد ذلك وحَّد نعرمر البلاد وكوّن أول سلطة مركزية في العالم، وأسّس مدينة ممفيس عاصمة له بالقرب من موقع القاهرة الحالي، كذلك أسّس أول عائلة (أسرة) حاكمة، وهي تشتمل

على عدد من الملوك من أسرة واحدة. وقد حكمت مصر القديمة أكثر من ثلاثين أُسرة أُخرى.

و تغطي المرحلة المبكرة ـــ من التاريخ المصري القديم ـــ حكم الأسرتين الأولى والثانية اللتين حكمتا لحوالي 400 سنة. وفي تلك المرحلة بنى الملوك معبداً لبتاح كبير معبودات ممفيس، كما أقاموا عدداً من القصور بالقرب من المعبد. كذلك طوّر المصريّون خلال الأسرتين الأوليين أنظمة الري واخترعوا المحراث الذي تجره العجول، كما دونوا بعض النقوش بالكتابة الهيروغليفية.

بدأت الأسرة الثالثة نحو 2686ق.م وبذلك التاريخ أصبح لمصر سلطة مركزية قوية، وعُرفت مرحلة الخمسمئة سنة التالية ببناء أهرامات مصر الضخمة، وتُسمى تلك المرحلة المملكة القديمة أو عصر الأهرامات.

وبُني أول هرم مصري معروف للملك زوسر، في سقارة حوالي 2650ق.م، وترتفع المقبرة فيه نحو 60م في ستة مدرجات ضخمة ويسمّى الهرم المدرج. وفي عهد الأسرة الرابعة بنى العمال الهرم الأكبر وغيره من الأهرامات بالجيزة. وقد بُني الهرم الأكبر للملك خوفو، كما بُني هرمان ضخمان بالقرب منه، أحدهما لابنه الملك خفرع والثاني للملك منقرع. وقد كان عمال المزارع يشتغلون في بناء الأهرامات عندما تغمر مياه فيضان النيل حقولهم.

و بدأت نحو أواخر الأسرة السادسة سلطة الملك تضعف، إذ تنافس موظفو الحكومة والكهنة على السلطة، واستمرّت المملكة القديمة حتى 2181ق.م، وفيها انتهت سلطة الأسرة السادسة. وكان حكام معظم الأسر الأربع التالية ضعفاء، وقد تم أخيراً نقل العاصمة إلى طيبة .

وتتمثّل المملكة الوسطى في التاريخ المصري القديم في حكم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، وازدهرت في المرحلة الثانية عندما اعتلى العرش أمنمحات وزير

جنوب مصر الذي نقل العاصمة إلى إت ــ تاوي قرب ممفيس. استطاع أمنمحات وخلفاؤه الأقوياء أمثال سنوسرت الأول وسنوسرت الثاني وأمنمحات الثالث، أن يعيدوا لمصر ثراءها وقوتها. وخلال حكم الأسرة الثانية عشرة احتلت مصر بلاد النوبة، وأنعشت التجارة مع فلسطين وسوريا في جنوب غربي آسيا، كما ازدهرت العمارة والأدب وغيرهما من الفنون. وانتهت مرحلة الأسرة الثانية عشرة عام 1786ق.م.

قاد عدد من الأسر التالية ملوك ضعفاء، إذ انتشر مستوطنون من آسيا يطلق عليهم الهكسوس في كلّ دلتا النيل، ثم استولوا على السلطة في مصر حوالي 1670ق.م. وخلال الحرب استخدم الهكسوس العربات التي تجرها الخيول والأقواس المطوّرة، وغيرها من الأدوات غير المعروفة لدى المصريين. وقد حكم ملوك الهكسوس مصر نحو مئة سنة.

تشكل المملكة الحديثة مدة خمسمائة سنة أصبحت مصر خلالها أقوى قوة في العالم. بدأت هذه المرحلة نحو 1554ق.م بالأسرة الثامنة عشرة، وخلال حكم هذه الأسرة ــ أسسها أحمس الأول ــ طردت قوات الهكسوس خارج مصر، واستعادت طيبة أهمّيتها، كما أصبح آمون الذي كان يُعبد في طيبة، مقروناً بالمعبود رع تدريجياً و سُمِّي آمون ــ رع.

طوّرت مصر في بداية عهد الأسرة الثامنة عشرة جيشاً دائماً استخدم عربات الخيول وغيرها من التقنيات العسكرية المتطورة التي أدخلت خلال مرحلة الهكسوس، قاد الملوك الأوائل من هذه الأسرة حملات عسكرية داخل جنوب غربي آسيا، وقد وصل تحتمس الأول، فيما يبدو، إلى نهر الفرات.

أنشأت مصر إمبراطورية عظيمة، بلغت ذروة قوتها خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد تحت حكم تحتمس الثالث الذي قاد حملات عسكرية داخل آسيا سنوياً تقريباً ومدة عشرين سنة، إذ أخضع فلسطين وسوريا وضمّهما للإمبراطورية المصرية. وأعاد

تُحتمس سيطرة مصر على كوش (السودان القديم) حيث المصــادر المهمـــة للرِّجـــال والنحاس والذهب والعاج والأبنوس، ونتيجة لهذه الانتصارات أصبحت مصـــر أقـــوى وأغنى دولة في الشرق الأوسط.

تغيّر مجرى التاريخ المصري بصورة غير متوقعة بعد اعـــتلاء أمنحوتـــب الرابـــع العرش1367ق.م، فقد نذر نفسه لعبادة إله للشمس يسمى آتون، ممـــثلاً في قـــرص الشمس. ثم غيّر أمنحوتب اسمه إلى أخناتون وأعلن أن أتون حلّ محل آمون، وغيره مـــن الآلهة المصرية ماعدا رع، فكان يظن أنّ رع جزء من أشعة الشمس التي تأتي من آتون. كذلك نقل الملك العاصمة إلى مدينة جديدة تُسمى أختاتون نحو 280 كم للشمال من طيبة، وتوجد أطلال هذه المدينة بالقرب من تل العمارنـــة الحاليـــة. أدت إصـــلاحات أخناتون الدينية، التي يُسميها المؤرخون ثورة العمارنة، إلى سيل من الفنون والعمارة التي تمجد آتون، إلا أن هذه التغيرات أغضبت كهنة المعبودات الأخرى ولا سيما أمون رع.

استطاع خلفاء أخناتون المباشرون إخماد الاضطرابات، فقد حذف الملك تـــوت عنخ آتون، آتون من اسمه وأصبح توت عنخ آمون، وأعاد دين الدولة القـــديم، وسمـــح بعبادة الآلهة القديمة، كذلك رفض حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة معتقـــدات أخناتون الدينية بكاملها .

أقام ملوك الأسرة التاسعة عشرة المعابد في كل أنحاء مصر لعـــدد مـــن الآلهـــة، واستطاع اثنان من الملوك، سيتي الأول وابنه رمسيس الثاني من استعادة المناطق الآسيوية التي فقدوها بعد حكم تحتمس الثالث.

بدأت مصر القديمة تضمحل خلال حكم الأسرة العشرين، فقد أدت الصراعات المريرة والمستمرة على السلطة بين الكهنة والنبلاء إلى تقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة، وفقدت مصر أراضيها في الخارج وسقطت فريـــسة للغـــزاة [(12)].

انحدرت حضارة مصر القديمة بعد نحـــو1070ق.م، عنـــدما انتـــهت الأســـرة

العشرون، وخلال السبعمئة سنة التالية حكمت مصر أكثر من عشر أسر، وقد كـوّن معظمها الحكام الليبيون والكوشيون (قدماء السودانيين) وبعض المصريين. ودخل الكوشيون في صراع مع الآشوريين في فلسطين غير أنهم انهزموا أخيراً أمام الآشوريين وتراجعوا جنوباً إلى موطنهم كوش، وبعد تمكن الآشوريين من إجلاء الكوشيين عن مصر، حكمت مصر أسرة محلية تحت الهيمنة الآشورية مرحلة قصيرة من الزمن لتستقل عن الآشوريين ثم تنهزم هذه الأسرة أمام قمبيز الفارسي (الأخميني) وتصبح مصر جزءاً من الإمبراطورية الفارسية (الأخمينية). و استطاع في سنة332ق.م الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا ضم مصر لإمبراطوريته، و أنشأ الإسكندر في السنة نفسها مدينة الإسكندرية غرب الدلتا.

توفي الإسكندر عام 323ق.م، وتقاسم قواده الإمبراطورية من بعده، وكانت مصر من نصيب بطليموس الأول أحد هؤلاء القادة. وفي نحو 305 ق.م، منح نفسه لقب ملك، وأسس أسرة تسمى البطالمة. وعمل الحكام الأوائل من هذه الأسرة على نشر الثقافة اليونانية في مصر، كذلك بنوا المعابد لآلهة المصريين ونموا موارد مصر الطبيعية وأنعشوا التجارة الخارجية، فأصبحت الإسكندرية عاصمة مصر وساعدت مكتبتها العظيمة ومتحفها في جعلها أحد أعظم المراكز الثقافية في الأزمان القديمة.

تزوجت الملكة كليوباترا السابعة البطلمية مارك أنطوني (أنطونيوس) أحد حكام روما في سنة 37ق.م، وأراد أنطوني أن يحكم الأراضي الرومانية الواسعة بنفسه فجمع جيشه مع جيش كليوباترا وحارب قوات أوكتافيوس الحاكم الشريك في روما، لكن بحرية أنطوني وكليوباترا خسرت معركة أكتيوم المهمة أمام قوة أوكتافيوس (أوغسطس) البحرية في31 ق.م .

انتحر الزوجان في السنة التالية، وجعل أوكتافيوس مصر أحد أقاليم روما، فأمدت مصر روما بالذرة الشامية. ضعفت سيطرة روما على مصر تدريجياً بعد 395م عندما

انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى جزأين، شرقي وغربي. ثم فتح المسلمون بقيادة عمرو بن العاص مصر في سنة 22هـ/ 642م [13].

ثانياً- الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

تدل الحياة الدينيّة عند المصريين القدماء أنّهم عبدوا قوى الطّبيعة، وصَوَّروا الآلهة الكونية بصورة إنسانيّة أو حيوانيّة، ثم ارتأى القدماء أن يخصّوا تلك الآلهة بصفات وعواطف إنسانية، فأخذوا يرسمون صور الآلهة بجسم إنسان ورأس حيوان، أو بصورة إنسان يحمل أي جزء من الحيوان يرمز إلى صورته الأصلية، وآمن المصريون بالحياة بعد الموت وبالحساب، وكانوا يرون أَنّ الموت ما هو إلاّ تبديل في طريقة حياة الإنسان، وهذه الحياة الجديدة لا يتمتّع بها الإنسان إذا لم يُحتفظ بجسده سليماً بعد الموت، ولهذا اهتموا بتحنيط جثث الموتى، واعتقدوا أن الميت يعيش في قبره، وأن المقبرة مدخل إلى العالم الأسفل الذي يسكنه الموتى، ويحكمه أوزيريس، وأن الشمس تضيء هذا العالم ليلاً بعد غروبها من الدّنيا. وتنسب العقيدة المصرية القديمة إلى إله الشّمس «رَع» خلق العالم وإيجاد النّظام الملكي، وجاء الفراعنة من بعده لتولي مهام الملك وفقاً لذلك الحق الإلهي [14].

وفي الدّولة الوسطى أصبح للإله المحلّي لمدينة طيبة «آمون» المقام الأوّل في العقيدة الدّينية الرّسمية، واندمج اسم آمون برع (كما بيّنا أعلاه)، وأصبح آمون بعد خروج الهيكسوس إلهاً عالمياً في الشّرق الأدنى بأجمعه، وجرى تحوّل إلى عبادة الشمس في عهد أَمنحوتب الرّابع الذي دعا دعوة صريحة إلى عبادة الشّمس وأعلن خروجه على عبادة آمون، ودعا إلى عبادة قرص الشّمس «آتون» الذي يعبّر عن القوة الكامنة في الشّمس، وبدّل اسمه من أَمنحوتب إلى أخناتون، أي المعجب بآتون، أو المفيد لآتون، أو آتون راضي، وأعلن حرباً منظّمة على آمون وغيره من الآلهة، وكان من صلب هذه العقيدة أن يعبد البشر الملك «فرعون» ابن الإله ورسوله، فسبّبت هذه النّاحية انهيار هذه الدّيانة

بعد موت الملك. وعبادة آتون فكرة توحيد، لما فيها من القضاء علـــى تعـــدد الآلهـــة، ولكنها لم تصل إلى فكرة التوحيد المطلقة التي جاءت بها الأديان السّماوية، ولكنها تبقى «أفضل ديانة وثنية عرفها الشّرق الأدنى»، وبعد موت أخناتون عادت عبادة آمون[15].

واعتقد قدماء المصريين أنّ عدداً من المعبودات (إله وآلهة) يؤثر في كـــلّ أوجـــه الطبيعة، وفي كلِّ النشاط البشري، لذلك عبدوا عديداً من الآلهة، وكان المعبود الأساسي هو رع، إله الشمس في زعمهم. اعتمد المصريّون على إلههم رع وعلى إلهاتهم رَنُوتَـــتْ للحصول على حصاد جيّد، وكان أهم الآلهات إيزيس، إذ كانت تُمثلً الأم والزوجـــة المخلصة، أما أوزريس زوجها وأخوها في الوقت نفسه، فعدُّوه المتحكم في الـــزرع وفي الموتى. وكان حورس، ابن إيزيس، وأوزيريس إله السماء عندهم، وسمُّوه رب الســـماء وصوروه كثيراً برأس صقر حر. [16]

ولكن لا يُعرف كيف كان يتعبد عامة قدماء المصريين، فكل معبد كـــان مـــنزلاً لأحد الآلهة، أو أنه نُذر لأحد الملوك الموتى. وكان المعبد الذي بُني على شرف آمون ـــ رع في الكرنك أكبر المعابد في البلاد، به أكثر من مئة وثلاثين عموداً، بلغ طول الواحد منها حوالي 25م. وقد زينت أعمدة وجدران القاعة الكبرى ـــ التي ما تزال أكبر قاعة ذات أعمدة بُنيت حتى الآن ـــ لوحات ملونة رائعة [17].

وكانت مهمة الكاهن الأساسية خدمة المعبود، أو الملك الذي يمثله تمثال في المعبد. ويعدُّ الملك الحاكم رئيس كهنة مصر، وفي كل يوم يقوم هو أو غيره من الكهنة المحليين بغسل التمثال وإلباسه وإحضار الطعام له، ويقوم الكهنة كذلك بتقديم الأدعيـــة الـــتي يطلبها الأفراد.

وبالنسبة للحياة الآخرة فقد آمن قدماء المصريين بإمكانية التمتّـــع بالحيـــاة بعـــد الموت، هذا الاعتقاد في الحياة بعد الموت أدى أحياناً إلى إعداد تجهيزات كثيرة للمـــوت والدفن، ونتج عن هذا الاعتقاد بناء الأهرامات والمقابر الكبيرة للملوك والملكات، وكان

لبقية الشعب من المصريين مقابر أصغر.

اعتقد المصريّون أيضاً بضرورة حفظ أجساد الموتى للحياة التالية، ولذلك اهتمـــوا بهذا الأمر فقاموا بتحنيط الجثث ليمنعوا تحللها، وبعد تحنيط الجسد، كان يلف بطبقات من قطع الكتان ويُوضع داخل تابوت، وتوضع المومياء بعد ذلك داخل القبر.

وقام بعض المصريين كذلك بتحنيط الحيوانات الأليفة كالقرود والقطط، وقد بقي عدد من الموميات المصرية محفوظة حتى يومنا هذا.

وملأ المصريون مقابرهم بالأشياء التي ظنوا أنهم سوف يستخدمونها في حياتهم بعد الموت، واشتملت هذه الأشياء على الملابس والأمتعة والأكل والمساحيق والمجـــوهرات، وامتلأت مقابر المصريين الأثرياء بتماثيل الخدم اعتقاداً منهم بأنهم سوف يخـــدمونهم في العالم الآخر، ورسمت مشاهد الحياة اليومية على الجدران الداخلية للمقـــابر، واعتقـــد المصريون أن بعض الطقوس التي يؤديها الكهنة تجعل من أوزيريس باعثاً للحياة في هذه المشاهد وفي الميت كذلك.

واقتنى كثير من المصريين النصوص التي حوت الصلوات والأدعية والترانيم وغيرها من المعلومات التي ظنوا أنها توجّه الأرواح في الحياة بعد الموت وتحفظها من الشر وتوفر لها الاحتياجات، وقام المصريّون بنقش فقرات من هذه النصوص أو كتابتها على جدران المقابر وربما وضعوا نسخاً منها داخل القبر في بعض الأحيان. وسميت مجموعات هـــذه النصوص كتاب الموتى[18].

وكانت الأعياد الدّينية في مصر كثيرة ، حتّى يمكن القول إن أيام السّنة كانـــت كلها أعياداً، إمّا للآلهة، أو للموت، ومن هذه الأعياد عيد زيارة آمون ومنها عيد رأس السنة، وعيد الحصاد، وعيد الفيضان (وفاء النيل) [19] .

وفيما يتعلق بالحكم ونظام الحكم، فقد كان الحكم ملكياً في عصر الدولة القديمة، ويلقب الملك (بالإله العظيم)، واعتقد الناس بأنه يسيطر على شؤون البشـــر في الحيـــاة

الدُّنيا وفي الآخرة، وانهار نظام الملكية الإلهية في مرحلة الضعف الأولى، وساد أمراء المقاطعات. وكانت الملكة أو الزّوجة الشّرعيّة من دم ملكي، وقد يتزوّج الأخ أخته للمحافظة على الدم الملكي نقيّاً. ومن الملكات الشّهيرات «نفرتاري» التي تزوّجت من أخيها «كامس»، ثم من أخيها «أحمس»، وظل نفوذها كبيراً في زمن ابنها امنحوتب الأوّل، حتى نظر إليها المصريّون نظرة عبادة واحترام، وأقاموا لها معبداً في طيبة، ومن الملكات الشهيرات أيضاً حاتشبسوت.

وعُرفت الوزارة بعد الأسرة الثّالثة، وقد أوجدها (زوسر)، وعهد بها إلى نابغة عصره إيمحوتب، ومن اختصاصاته الاهتمام بجميع أمور الدّولة.

ولم يكن لمصر جيش دائم منظّم يعد أفراده الجنديّة مهنة خاصة بهم، مع أن رتبة «قائد الجيش» كانت موجودة، فقد كان الجيش يُجْمع في المناسبات، فيطلب الملك عند الضّرورة من حكام الأقاليم جنوداً للحرب، فيجهزونهم له ويرسلونهم للقتال، أو الحراسة، أو لحماية البعثات التجارية أو الاستثماريّة التي تستثمر المناجم أو تقوم بحفر الترع والأقنية وتبني الجسور، حتى إذا أتمّ الجنود المهمة التي نُدبوا لها، عادوا إلى أقاليمهم ولحياتهم المدنية ثانية.

و تمّ في عصر الدولة الوسطى تأسيس فرق الجيش الدّائم للدفاع عن البلاد، فتأسّست إلى جانب فرق المشاة فرق المركبات الحربية والرُّماة، وكانت ملابس الجند بسيطة، تتألّف من سروال قصير ودرع من جلد أو معدن. وعني المصريون بإقامة الحصون، كما اهتموا بوسائل خرقها واقتحامها، وبنوا أُسطولاً منذ عصر ما قبل الأسرات للتجارة والقتال[20].

أما الحياة الاجتماعية؛ فقد عاش معظم الناس في مصر القديمة في وادي نهر النيل، وتراوح عددهم مابين مليون وأربعة ملايين تقريباً في أوقات مختلفة خلال تاريخ مصر القديمة، وعاش بقية السكان في الدلتا والواحات الواقعة غربي النهر.

كان المصريّون ذوي بشرة سمراء وشعر داكن، وتحدّثوا بلغة ذات صلة باللغات السامية في جنوب غربي آسيا وببعض لغات شمال إفريقيا في الوقت نفسه، وكُتبت اللغة المصرية بالهيروغليفية، وهي نظام صور ترمز للأفكار والأصوات، وقد بدأ المصريّون يستخدمون هذا النظام نحو سنة 3000ق.م. وهو يشتمل على أكثر من 700 رمز تصويريّ، واستخدم المصريّون الهيروغليفية للكتابة بها على المعابد والمباني، وليسجّلوا المخطوطات الرسمية على الحجارة، أما الاستعمال اليومي فطوروا له شكلين بسيطين من الهيروغليفية يُسميان الهيراطي والديموطي.

وعرفت مصر القديمة ثلاث طبقات اجتماعية، العُليا والوُسطى والدُّنيا، تكونت الطبقة العليا من العائلة المالكة والأثرياء وموظفي الحكومة وكبار الكهنة وضُباط الجيش ثمّ الأطباء، والطبقة الوسطى تكونت من التجار والصنّاع والحرفيين، أما الطبقة الدُّنيا، وهي أكبر الطبقات، فقد تكونت من العمال غير المهرة الذين عمل معظمهم في المزارع، أما السجناء الذين من أسرى الحروب الخارجية فقد كونوا طبقة الرقيق [21].

و لم يكن النظام الاجتماعي في مصر القديمة جامداً، إذ كان من الممكن أن يصعد من الطبقة الدنيا أو الوسطى إلى مرتبة أعلى، وكان يمكن للفرد أن ينتقل إلى مرتبة أعلى عن طريق الزواج، أو النجاح في عمله، وحتى العبيد كان لهم حقوق معروفة؛ إذ كان يحق لهم أن يقتنوا الأشياء الخاصة بهم، ويتزوجوا ويتوارثوا الأرض، كما كان في إمكانهم أن ينالوا حرياتهم[22].

و اعتاد المصريّون القدماء على الزّواج المبكّر ليتقي الشّاب مواطن الزّلل، وقال أحد حكماء الدّولة القديمة «يتاح حوتب»:«إذا كنت رجلاً حكيماً فكوّن لنفسك أسرة»، ومن أسباب الزّواج المبكّر حاجة حياة الزراعة إلى أيد عاملة قوية، فكان استكثار النسل لتقوية الأسرة.

وعرفوا تعدد الزّوجات، والأغلب عرفوا الزّوجة الواحدة، وتعرف باسم الزّوجة

الشّرعية «سيدة البيت».

وعلّم المصّريون أولادهم في مدارس بسيطة مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم درّبوا بعض الأطفال عند كتّاب الدّواوين، ليصبحوا كتاباً في وظائف الدّولة [23].

واعتمدت الحياة الاقتصادية على الزّراعة والصّناعة والتّجارة الخارجية.

ففي الزراعة، ولأهمية مياه النيل لحياة مصر، أنشأ المصريون مقياس النيل على الضفة الصخرية لمجرى النيل في جنوبي الشلال الثاني، لمعرفة نسبة ارتفاع النهر كل يوم، ولما كانت الأعمال الزراعية تتوقف أيام الفيضان مدة ثلاثة أشهر كل سنة، فقد استغل الفلاحون فراغهم بصيد الأسماك والطيور، أو بأعمال البناء[24]. وعمل مُعظم العمال الزراعيين في الإقطاعات الكبيرة للعائلات المالكة والمعابد وملاك الأراضي الأغنياء. وحصلوا على قليل من المحاصيل كأجور، وذلك لأن مُلاك الأراضي كان علَيهم تَحويل نسبة كبيرة من الإنتاج الزراعي كضرائب، وكان بعض المزارعين يستأجرون الحقول من ملاك الأراضي الأثرياء.

كانت مصر القديمة بلداً حاراً يكاد ينعدم فيه هطول الأمطار، ولكن الزُرّاع كانوا يزرعون المحاصيل مُعظم السنة عن طريق ريّ الأراضي، إذ شيدوا القنوات لأخذ المياه من نهر النيل إلى الحقول، واستخدموا المحاريث الخشبية التي تجرها الثيران لإعداد الأرض للزراعة.

كانت المحاصيل الرئيسية لمصر القديمة هي القمح والشعير. أما المحاصيل الأخرى فتشمل الخس والفاصوليا والبصل والتين والبلح والعنب والبطيخ والخيار والرمّان والفجل. وكان النبيذ يصنع من عصير البلح والعنب. وزرع كثير من المزارعين قصب الكتان ليصنع منه قماش الكتان. وربى المصريّون الأبقار للحومها وألبانها والماعز والبط والإوز والحمير. كما كان بعض الناس يُربون النحل ليحصلوا على العسل[25].

و في الصناعة والتعدين، كان الحرفيون الذين يديرون المتاجر الصغيرة يصنعون

معظم البضائع في مصر القديمة، وتحتلّ صناعة ملابس وخيـــوط الكتـــان الصـــدارة في الصناعات، واشتملت المنتجات الأخرى المهمة الخزف والطوب والأدوات والزجـــاج والأسلحة والأثاث والمجوهرات والعطور. وصنع المصريّون العديد من المنتجـــات مـــن النبات مثل الحبال والسلال والحُصُر وصحف الكتابة(26).

وبنوا السّفن من الخشب الجيد المستورد من لبنان أو غـــربي آســـية، أو النوبـــة والسودان. وصبغوا الأواني الفخارية، وعرفـــوا صـــناعة الزّجـــاج بشـــكل محـــدود، والمنسوجات الجيدة، حتَّى استورد اليونانيون الأقمشة الكتانية من مصر، وصـــنع ورق من نبات البردي منذ أوائل عصر الدولة القديمة، وظلت هذه الصناعة تزود جميع بـــلاد الشرق الأدنى، وحتى العالم القديم من بلاد فارس إلى إنكلترا، وذلك بسبب خفة وزنـــه وسهولة حمله، وصلاحيته للكتابة والحفظ(27).

كان لمصر القديمة مخزون كبير من المعادن، فلقد استخرجوا المعادن مـــن منـــاجم سيناء، كالنحاس، وعرفوا البرونز، ولم يستخدموا الحديد إلا منذ عصر الأسرة الثامنـــة عشرة، كما استعملوا الذهب وصاغوه بمهارة(28)، و أنتج المشتغلون بالمحاجر والتعـــدين كمّيات كبيرة من الحجر الجيري والحجر الرملي والجرانيت لبناء الأهرامات والمنشـــآت الكبيرة، كذلك قاموا بتعدين النحاس والذهب والقصدير والجـــواهر مثـــل الفـــيروز والجمشت، وكان معظم الذهب يأتي لمصر من كوش (السودان قديماً) والتلال الواقعـــة شرقي النيل(29).

و في التجارة والنقل، أبحر تُجار مصر القدماء إلى عدة بلاد بمحاذاة بحـــر إيجـــة والبحرين الأبيض المتوسط والأحمر. وحصلوا على الفضة والحديد والخيل وخشب الأرز من سوريا ولبنان وغيرهما من مناطق جنوب غربي آسيا. وجلبوا العاج وجلـــود النمـــر الأرقط والنحاس والأبقار والتوابل من بلاد النوبة الواقعة جنوبي مصر، وقايض المصريّون هذه البضائع بالذهب وغيره من المعادن والقمح والشعير وصحائف البردي .

كان النقل داخل مصر يتم على نهر النيل بوساطة المراكب والبراجي (مراكب نقل البضائع). وصُنعت أقدم المراكب من قصب البردي، وبعد أن كانت تحرك في البداية بالأعمدة، أصبح يُستخدم في دفعها المجاديف. وفي نحو 3200ق.م ابتكر المصريّون الشراع وأصبحوا يعتمدون على الرياح مصدراً للطاقة التي تحرك المراكب.

كان أكثر الناس يتنقلون سيراً على الأقدام خلال المرحلة المبكرة من تاريخ مصر القديمة، وكان الأثرياء منهم يُحملون فوق مقاعد خاصة. وبدأ المصريّون يركبون العربات التي تجرّها الخيول خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد.

ولا بد أن نشير إلى أن الأسرة الحاكمة والمعابد وظفوا في مصر القديمة المعماريين والمهندسين المهرة، والنجّارين والفنّانين والنحّاتين كما استأجروا الخبّازين والقصابين والمدرسين والخطاطين والمحاسبين والموسيقيين ورؤساء الخدم وصانعي الأحذية، وقد جعل الاعتقاد المصري بأن الأجساد يجب أن تحفظ للحياة الأخرى التحنيط مهنة ذات مهارة عالية. وعمل كثير من المصريين في الجيش والبحرية، وعمل آخرون في سفن الشحن أو مراكب صيد الأسماك[30].

المقطع 1.01 ثالثاً– حضارة مصر القديمة:

استطاع المصريّون القدماء تسجيل ملاحظات في الفلك والجغرافيا ساعدهم في تطوير تقويم سنوي يتكون من 365 يوماً. واعتمد هذا التقويم على الفيضان السنوي لنهر النيل، الذي كان يبدأ مباشرة بعد ظهور نجم الشعرى اليمانية على الأفق الشرقي مرة أخرى بعد أن كان مُختفياً لعدد من الشهور. ويتمّ ذلك في نحو 20 من يونيو من كلّ سنة. و ساعد هذا التقويم المصريين على تحديد مُعظم تاريخهم، واستطاع المصريّون القدماء قياس المساحات والأحجام والمسافات والأطوال والأوزان. واستخدموا الهندسة لتقرير حدود المزارع، واعتمدت الرياضيات على نظام ليس به أصفار، واخترعوا شكلاً

للكتابة بالصور يُسمى الهيروغليفية كما اخترعوا أيضاً ورق البردي وهو مادّة كـــورق الكتابة، مصنوعة من سيقان نبات البردي. وبنوا مُدناً عظيمة عمل فيهـــا عـــدد مـــن المهندسين والمعماريين والأطباء والنحّاتين والرسامين المهرة [31].

1– التعليم: نشأ لدى المصريين منذ القدم مفهوم المعرفة العلمية وأولوها الاهتمام والتقدير؛ فقد جاء في إحدى النصائح ما يلي: (إنني أنفذ كل ما تقول إذا كنـــت ممـــن سيعرفون الكتابة، تعمق في معرفة الكتابة وأدخلها إلى قلبك، عندئذ سيصبح كـــل مـــا تقوله رائعاً، مهما كانت وظيفة الكاتب لا بد أن يعود دائماً إلى الكتـــب). ونقلـــت الأجيال السابقة المعارف العلمية إلى الأجيال اللاحقة عن طريق مدارس القصر التي تعلم وتخرج منها الكتبة من أبناء الطبقة الارستقراطية، وقد ساد في تلك المدارس نظام صارم؛ فالطالب الكسول يتعرض لعقاب جسدي، وعلى الطالب أن ينسخ في اليوم مالا يقـــل عن ثلاث صفحات ليتعلم الكتابة الصحيحة والقواعد والأسلوب. وقد جاء في المصادر بعض الكتابات لكتبة مبتدئين، وتمارين تعليمية مكتوبة جيداً وصحيح. ووجدت مدارس عليا للكتّاب أطلق عليها اسم بيت الحياة وعثر على أطلالها في مدينة أخيـــت – آتـــون عاصمة أخناتون. وتعلم التلاميذ أيضا فن الحديث والخطابة[32].

و مع كل ذلك، حظيت نسبة قليلة من الأولاد والبنات بالتعليم في مصر القديمة، وكان مُعظم هؤلاء من أسر الطبقات العليا. وكان التلاميذ يذهبون للمدرســـة لـــتعلّم الكتابة والقراءة والنسخ. وكان الكُتَّاب يكتبون السجلات في مكاتب الحكومة والمعابد والخطابات للأعداد الكبيرة من المصريين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة.

وكان يدير كل من القصر الملكي والوحدات الحكومية والمعابد هذه المدارس التي كانت تؤهل التلاميذ ليصبحوا كتبة أو ليعملوا في مهن أخرى، وتمثلت المواد الدراســـية الأساسية في القراءة والأدب والجغرافيا والرياضيات والكتابة، وكان التلاميذ يتعلمـــون الكتابة عن طريق نسخ نصوص الأدب والخطابات والحسابات التجارية. واستخدموا في

الكتابة ورق البردي، أوّل مادة شبيهة بالورق في العالم، وكتبوا بالفرش المصنوعة من القصب بعد تشكيل وتليين أطرافها. ولذلك صنع المصريّون الحبر بخلط الماء والهباب (السَّخام) وهو مسحوق ينتج بعد حرق الأخشاب أو أي مادة أخرى .

امتهن معظم أولاد المصريين مهن آبائهم نفسها بعد أن تعلموها منهم، وهكذا، أصبح بعضهم تجاراً إلاّ أن الغالبيّة كانوا فلاّحين، وكان كثير من الآباء يُلحقون أبناءهم بالمعلمين الحرفيين ليتعلّموا النجارة وصنع الخزف وغيرهما من الحرف، وربما التحق الأولاد الذين يرغبون في دراسة الطب بالعمل مع أحد الأطباء بعد أن يُكملوا تعليمهم المدرسي الأساسي.

أمّا مُعظم البنات فيتمُّ تأهيلهن لدور الزوجة والأم، إذ تقوم الأمهات بتعليمهن الطبخ والخياطة وغيرهما من المهارات.

كان بمصر القديمة عدد من المكتبات أشهرها مكتبة الإسكندرية التي كانت تحتوي على أكثر من 400000 مخطوطة بردية، عن علم الفلك والجغرافيا وعدد آخر من العلوم، وللإسكندرية أيضاً مُتحف مُتميّز [33].

2- الرياضيات: ساعد تطور الزراعة والتجارة وملاحظة الطبيعة على تراكم المعارف العلمية. واستخدمت العلوم في الحياة العملية، فكانت الرياضيات من أهم العلوم التطبيقية، وقد استخدم المصريون النظام العشري في الحساب، ووجدت في الكتابة علامات خاصة تشير إلى الأرقام 1، 10، 100، 1000، 10.000، 100.000، 1000.000، فعلامة المليون مثلاً كانت ترسم على شكل هيئة إنسان يرفع يديه كدلالة على الدهشة من الكثرة. كذلك عرفوا الجمع والطرح والضرب والقسمة، إلا أنهم استعملوها حسب طرق تختلف بعض الاختلاف عن أساليبنا الحالية، فالضرب عبارة عن جمع المضاريب المؤدية إلى النتيجة، والقسمة عبارة عن مضاعفة المقسوم عليه ثم جمع الأرقام التي تعطي رقم المقسوم، ويكون حاصل القسمة نتيجة جمع

الأرقام المقابلة للأرقام التي أعطى جمعها رقم المقسوم.[34]

كذلك عرف المصريون الكسور البسيطة مثل 2/1، 3/1، 4/1، 5/1، 6/1... إلخ، أما الكسور المركبة فلم يستعملوا منها إلا 3/2، 4/3 فقط. وقد عرفوا أيضاً مبادئ الجبر فحلوا معادلات من الدرجة الأولى، وأطلقوا على المجهول اسم كومة قمح. كما كان للهندسة أهمية كبرى من حيث التطبيق العملي ولا سيما هندسة الري وهندسة البناء، وعرفوا حساب مساحة المربع والمثلث والدائرة، وعرفوا أيضا حجم الهرم الكامل والناقص وحساب ثقل المواد ووزنها وضغطها. واستخدموا في قياس الأطوال الإصبع والشبر والقدم والخطوة، وكانت وحدة قياس الأطوال هي الذراع الملكي وطوله سبع قبضات، كل قبضة أربعة أصابع أو 52.3سم، أما المقاييس الطويلة فكان لها وحدة خاصة وهي مئة ذراع، ويقال إن الرياضي اليوناني الشهير طاليس زار مصر وتلقن العلوم الرياضية عن كهنتها، لقد قدم المصريّون القدماء مُساهمة بارزة في تطور الحضارة، فقد ابتدعوا الأشكال الأساسية للرياضيات، إضافة لتقويم سنوي من 365 يوماً [35].

3- الفلك: أدت مراقبة كواكب السماء إلى تراكم معلومات قيمة في علم الفلك، واستطاع المصريون وضع مصورات لنجوم السماء. وقد وُجد في قبر الأمير سنموت (من زمن الأسرة الثامنة عشرة) مصور فلكي تظهر في وسطه مجموعة الدب الأكبر والدب الأصغر ونجم البليار، وفي القسم الجنوبي من السماء يظهر نجم الأوريون ونجم الشعرى المسمى سيريوس، وظلت المصورات الفلكية القديمة تستخدم حتى في العهد اليوناني – الروماني، وساعد تطور المعارف الفلكية المصريين في وضع تقويم شمسي خاص، فقسّموا السنة إلى اثني عشر شهراً، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً، ثم أضافوا خمسة أيام إلى السنة لتصبح 365 يوماً، مما يتفق مع الحقائق الفلكية، ولكن في الواقع نقصت سنة التقويم المصري مقدار ربع يوم عن التقويم الفلكي الصحيح فنتج عن هذا الخطأ

تقصير مدته 365 يوماً أي سنة كاملة خلال كل سنة. كذلك استطاع المصريون أن يعرفوا أوقات الكسوف والخسوف. كما قسموا كلاً من الليل والنهار إلى اثنتي عشرة ساعة. واخترعوا في عهد الأسرة الحادية عشرة الساعة المائية بترك الماء يتسرب داخل إناء أو إلى خارجه بنسبة معينة، مع ملاحظة تبدل مستوى الماء بالنسبة لإشارات مرسومة على السطح الداخلي للإناء، وكانت هذه الإشارة تبين مقدار الفترات الزمنية، وقد نقل اليونانيون هذه الساعة عن المصريين ثم انتشرت فيما بعد في أوروبا(36).

4- الطب: كان علم الطب في مصر القديمة متطورا بالنسبة إلى تلك الأزمنة. لقد عثر على برديات تعود إلى عهد الدولة القديمة والدولة الوسطى تحتوي على وصفات طبية لمعالجة أمراض عديدة، منها وصف لبعض العقاقير والأدوية وطريقة المعالجة بها. ولكن الأطباء المصريين رغم استخدامهم الأدوية في المعالجة، لم يتخلصوا من السحر، بل استخدموه أيضا في معالجة المرضى، وكان كثير من الكتب الطبية عبارة عن مجموعات لبعض التعاويذ والوصفات السحرية، واعتقد المصريون أن الأمراض تنتج عن تأثير أرواح شريرة مؤذية، فمن يحمل بعض التعاويذ السحرية يطرد عنه أشباح المرض، وكانت تحتوي التعويذة على رجاء للأشباح الشريرة بمغادرة الجسم المريض، وأحيانا تحتوي التعويذة على تهديد لها. ولكن تحنيط الموتى، بشق جسد الإنسان وإخراج الأحشاء منه، ساعد الأطباء المصريين على الاطلاع على أعضاء الجسم الداخلية كالقلب والمعدة والأمعاء والرئة والكبد وغيرها. وتدل إحدى البرديات على أنهم عرفوا الدورة الدموية وعلاقة النبض بالقلب وذكروا أن القلب متصل بأوعية تتفرع في جميع أجزاء الجسم، وقد وجد نظام أدبي في المعالجة، فالطبيب بعد إطلاعه على المرض يجب أن يعلن بصراحة إلى المريض عن مدى مقدرته في معالجة المرض، وعليه أن يصرح بإحدى العبارات التالية: أ- هذا المرض لا أستطيع معالجته ب- هذا المرض من المحتمل أن أستطيع معالجته ج- هذا المرض أستطيع معالجته. كذلك كان كل طبيب يختص بعلاج

مرض من الأمراض، فبعضهم اختص بالجراحة، وبعضهم بمعالجة أمراض العيون، واختص بعضهم بالأمراض النسائية، وغير ذلك من الاختصاصات المتعددة، وقد أُلحقت ببعض المعابد مدارس خاصة بالطب، كما كان للقصر الملكي أطباء عديدون مختصون. و تبين للعلماء نتيجة فحص المومياات أن المصريين تمكنوا من معالجة الأمراض بالراحة والغذاء والدواء واستعمال الضمادات والتعاويذ السحرية وغير ذلك. وقد وجدت على جدران معبد كرم – أومبو صور لبعض الأدوات المستعملة في الجراحة، كما وُجدت على جدران إحدى المقابر (من عهد الدولة القديمة) صور لبعض العمليات الجراحية في اليد والأنف والرجل وغيرها. أما العقاقير فكانت تصنع غالباً من الأعشاب والنباتات، وقد وضع المصريون وصفاً لخصائصها. وعند تعاطي الدواء كانوا يراعون السن، ويحددون المقادير الواجب تناولها، وطرق تحضيرها واستعمالها، فنشأت بذلك مبادئ علم الفرمشة (الصيدلة أو صنع الأدوية). وقد نقل اليونانيون كثيراً من المعلومات الطبية عن المصريين، وانتقلت منهم إلى اللغة اللاتينية والعربية والسريانية والفارسية. ويذكر المؤرخون أن الطب الشعبي في أوربا والشرق يرجع إلى أصل مصري[37].

كان الأطباءُ المصريّون القدماء أول الأطباء الذين درسوا الجسم البشري بطريقة عملية، ودرسوا بنية الدماغ، وعرفوا أن النبض مُتصل بطريقة ما بالقلب، وقد تمكّنوا من جبر العظام المكسورة والعناية بالجروح ومعالجة عديد من الأمراض. وتخصص بعض الأطباء في ميادين معينة من الطب كخلل العيون أو آلام المعدة [38].

5– العمارة: من أشهر مُنجزات المصريين القدماء الأهرامات التي بنوها كمقابر لحكامهم. وتقع أكثر الأهرامات شهرة في الجيزة. مثلت هذه الأبنية الحجرية الضخمة، قمة قدراتهم في الهندسة المعمارية، بقيت متماسكة بفعل المناخ الجاف لنحو 4500 سنة، وهي باقية كمؤشّرات مُدهشة لتطور مصر القديمة.

و تعدّ أهرامات مصر أقدم وأكبر منشآت بنيت من الحجر في العالم. توجد بقايا

أكثر من 35 هرماً، على طول نهر النيل، وتعدّ أهرامات الجيزة إحدى عجائب العالم القديم السّبع. بنيت أولى الأهرامات المصرية منذ حوالي 4500سنة مضت، ويبلغ ارتفاع أكبرها، هرم الجيزة الأكبر، حوالي 140م. وتُغطي قاعدته ما مساحته حوالي خمسة هكتارات من الأرض. بني هذا الهرم بأكثر من مليوني كتلة من الحجر الجيري يبلغ متوسط وزن الواحدة منها 2,3 طن متري.

بنى المصريّون القدماء كذلك المعابد من الحجر الجيري. وشكّلوا أجزاء المعبد على هيئة النبات، فعلى سبيل المثال نحتت الأعمدة في بعض المعابد على شكل أشجار النخيل، أو قصب البردي. كان المعبد يتكوّن من ثلاثة أجزاء: معبد صغير، وقاعة كبيرة فيها عدد من الأعمدة، ثم فناء مفتوح(39).

6- التصوير التشكيلي والنحت: كانت معظم اللوحات الملونة الرفيعة وغيرها من الأعمال الفنية تُخصص للمقابر والمعابد. غطىّ الفنانون جدران المقابر بمناظر خيالية ساطعة، تُمثل الحياة اليومية، وصوراً أخرى لاستخدامها دليلاً في الحياة بعد الموت. و لم تكن اللوحات على المقابر لُمجرد الزينة، وإنما عكست اعتقاد المصريين بأن هذه المشاهد قد تُبعث فيها الحياة في العالم الآخر. ولهذا السبب لم يكتف أصحاب المقابر بتصوير أنفسهم وهم يبدون صغار السن وجذابين، بل صوروا أنفسهم في أجواء مريحة تمنوا أن يستمتعوا بها في حياتهم بعد الموت.

زيّن النحّاتون في مصر القديمة المعابد بمنحوتات تصور الاحتفالات والانتصارات العسكرية وغيرها من الأحداث المهمة، كذلك نحتوا تماثيل الكائنات الخرافية من الحجر، ويفترض في هذه التماثيل أنها تُمثل الملوك المصريين أو المعبودات وتستخدم في حراسة المعابد والمقابر. فأبو الهول، مثلاً، يُعتقد أنه يمثل إما الملك خفرع أو معبودهم رع ـ حراختي. هذا التمثال العجيب له رأس إنسان وجسد أسد ويبلغ طوله 73م وارتفاعه20م. نُحِت أبو الهول، الذي يوجد بالقرب من الهرم الأكبر بالجيزة منذ نحو

4500 سنة.

صنع النحاتون كذلك التماثيل الصغيرة من الخشب والعاج والمرمر والبرونز والذهب والفيروز، وكانت المواضيع المفضلة في التماثيل الصغيرة تشمل القطط التي عدها المصريّون مقدسة، وتكتسب أهميتها لأنها توفر الحماية لمحاصيلهم من الفئران.[40]

7- الموسيقى والأدب: استمتع المصريّون القدماء بالموسيقي والغناء، واستخدموا القيثارة والعود وغيرهما من الآلات الوترية أثناء الغناء، وكانت أغاني الحب المصرية شاعرية وعاطفية، وألفّ الكُتاب عديداً من القصص التي تُصور الشخصيات والمشاهد أو الأحداث الخيالية، وكان الهدف منها المتعة والتسلية، ومن الكتابات الأخرى مقالات حول العيش الطيب تسمى الإرشادات[41].

الفصل الثاني

بلاد الرافدين

السُّومريون و الأكاديون و البابليون و الآشوريون

- تمهيد:

حضارة بلاد الرافدين من الحضارات العالمية القديمة، سميت بأسماء القبائل العربية التي أقامتها، التي جاء ت من شبه جزيرة العرب بهجرات بدأها إلى بلاد الرافدين الأكاديون نحو سنة 3500ق.م، والذين سكنوا شمالي سهل شنعار، وورثوا حضارة الشعب السومري الذي لم تفك بعد أحجية أصله وجذوره، ولما أقام البابليون دولتهم حوالي 2000ق.م مؤسسين الدولة البابلية الأولى ورثوا تراث بلاد الرافدين السومري والأكادي، ثم ورث الآشوريون (1392ـ512ق.م)، لواء حضارة بلاد الرافدين، ليستلمه الكلدانيون عندما أسسوا الدولة البابلية الثانية (626ـ539ق.م)، وفي سنة 539ق.م اقتحم كورش الفارسي أسوار بابل، فانتهت باقتحام أسوارها حكم العرب القدماء في بلاد الرافدين مدّة من الزّمن، إذ انتقلت السيادة للفرس حتّى عام 331 ق.م

حين استولى الإسكندر على الشرق، ولكن السيادة العربية عادت عندما قامت الدولة العربية الإسلامية وحررت العراق[42].

أولاً- السُّومريون (3400-2400 ق.م):

سومر إقليم قديم يقع في بلاد مابين النهري (جنوب شرقي العراق حالياً) موطن الحضارة الأولى في العالم التي بدأت عام3500ق.م وازدهرت واستمرت حتى عام 2000ق.م، إذ ذابت بعد ذلك، وامتزجت بحضارة إمبراطورية بابل العريقة وحضارة الآشوريين[43].

وُجِدَ السومريون في جنوبي بلاد الرافدين منذ بدء العصور التاريخية، ويعدون أول من سكن بلاد الرافدين بعد الطوفان، ويرد اسم الأرض التي سكنوها وعمروها في الكتابات القديمة السومرية باسم كنجي، وفي الكتابات العربية القديمة سومر.

و لم يعرف أصلهم يقيناً، ويرجح بعض المؤرخين أنهم أتوا من أواسط آسية والمناطق القريبة من شمالي بحر قزوين.

أشهر حكامهم أوروكاجينا ولوجال زاجيزي الذي ثار عليه شاروكين (أوسرجون) الأكادي، وأسس الدولة الأكادية سنة 2400ق.م.

تأسست دويلات صغيرة في بعض أجزاء بلاد الرافدين، ويُظن أن حكام مدينة كيش هم أول من سيطر على جميع أجزاء سهل شنعار بعد الطوفان، ثم آلت الزعامة إلى أوروك، وتلتها أور، وكان نظام الحكم مبنياً على أساس ديني، وتدل كلمة باتيسي، أو إيشاكو، العربية القديمة التي لُقِّب بها الملوك السومريون على أنهم لم يكونوا إلا نواباً عن الإله في الأرض، وبما أن الإله مطلق التصرف فقد كان نائبه الملك كذلك[44].

نشأت الحضارة السومرية في السهل الخصيب الذي يُكَوِّنه نهرا دجلة والفرات، وبنى السومريون مدناً تميَّزت قصورها ومعابدها بالفخامة. كما بنوا أسواراً حول مُدنهم لحمايتها من الغُزاة.

وعمل معظم السومريين بالزراعة أو تربية الماشية، ودفع مناخ المنطقة الجاف السومريين إلى حفر قنوات لري حقولهم، ويمثل الشعير والقمح والتمور والخضراوات المحاصيل الرئيسية. كما ربَّوا الأبقار والحمير وكذلك الخراف، والأغنام التي استخدموا صوفها في صناعة النسيج.

والسومريون حرفيُّون وتُجَّار مهرة برع كثيرون منهم في أعمال المعادن ونحت الأحجار، على الرغم من أن كل المعادن والأحجار كانت تُستَجلب من الخارج. وكان النسَّاجون ينسجون ملابس جميلة، كما صنع بعض الحرفيين المصوغات والخزف والدروع والأسلحة. وكان التُجَّار السومريون يحملون بضائعهم إلى الأقاليم المجاورة بالطريق البري أو على الطريق النهري بالزوارق وكانت السفن السومرية تبحر إلى الأراضي المتاخمة للخليج العربي لجلب العاج والسلع القيِّمة الأخرى(45).

ثانياً– الأكاديون:

استوطن الأكاديون شمالي سهل شنعار من 3500ق.م، وتمكن سرجون (شاروكين) الأول من القضاء على المملكة السومرية، وتكوين إمبراطورية حوالي 2400ق.م بقيت إلى أن قضى عليها الكوتيون سنة 2255 ق.م والذين سيطروا على معظم أجزاء بلاد الرّافدين حتّى 2130 ق.م ويبدو أن بعض المدن السومرية عادت وانتعشت، مؤسِّسة عهد الملكية السومرية الثانية، ويعد أور – نامو: (2123–2106ق.م) أعظم ملوك السومريين في هذه المرحلة، وأكبر مشرِّع في بلاد الرافدين قبل عهد حمورابي(46).

يعد الملك سَرْجُون الأَكّادي إذاً مؤسّس أول إمبراطورية شهيرة في التاريخ، في بلاد الرافدين، في عام 2300 ق.م، وحكم معظم بلاد جنوب غربي آسيا. وكان سرجون قائداً عسكرياً وإدارياً بارزاً، استطاع الاحتفاظ بجيش نظامي، وعيّن مساعدين له من البلاط الملكي للعمل حكاماً في المدن التي تمّ فتحها. ونظم إمبراطوريته تنظيماً

جيّداً، فاستمرت من بعده لأكثر من 60 عاماً.

بدأ حياته السِّياسية موظفاً بالمحكمة العليا التي كانت تحت سلطات الملك أور زبابا ملك مدينة كيش، وهي إحدى مدن سومر في جنوب بلاد الرافدين.

احتل سرجون مدينة كيش فيما بعد ومدناً سومرية أخــرى، وقــاد جيشــه إلى سلسلة من الانتصارات اتسعت بعدها إمبراطوريته حتى شملت ما يعــرف الآن بــإيران شرقاً، وإلى البحر الأبيض المتوسط، وآسيا الصغرى (تركيا حالياً)، غرباً. وبنى مدينــة أكَّاد الجميلة، عاصمة له في وسط بلاد الرَّافدين، واستمرّ حكمه مرحلــة 56 ســنة، وكان سرجون من أصل سامي، وأثناء مرحلة حكمه حلّ الساميون مكان الســومريين وصاروا الأكثرية صاحبة النفوذ في بلاد الرافدين، وأطلق على هؤلاء السّــاميين اســم الأكّاديين، وسُمّــيَت لغتهم اللغة الأكادية نسبة إلى عاصمتهم أكّاد.

أدت شهرة سرجون إلى انتشار كثير من الروايات والأساطير التي تحــاك عنــه، وتقول إحدى الأساطير أنه وُجد في سلّة طافية في النهر، وهو طفل رضيع.[47]

ثالثاً- البابليون (1839-1594ق.م):

البابليون من القبائل العربية الأمورية القديمة، سمّيت إمبراطوريتهم «البابلية» نسبة إلى عاصمتهم باب إيل، أي «باب الإله»[48]. وتقع بابل حول نهري دجلة والفــرات، وقد سمّاها الأقدمون بعدة أسماء، منها بابلونيا، أرض بابل، بلاد مابين النــهرين ووادي الرافدين، ويقصد بها المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، وازدهرت فيها حضارات السومريين والأكاديين (الآشوريين والبابليين). بدأت في هذه المنطقة حضارة عظيمة، في نحو سنة 3500ق.م، بدأها السومريون واستمرت حتى القرن السادس قبــل المــيلاد وانتهت بسقوط بابل الكلدانية أمام الفرس. وقد ابتدعت هذه الحضارة شكلاً من أقدم أشكال الكتابة، وسنَّت مجموعات قوانين، وطورت علوم الرياضيات والفلك وغيرهــا. وحكم أرض بابل حكام عظام، مثل حمورابي ونبوخذ نصر وقورش الكبير والإســكندر

الأكبر المقدوني.

وأول تسجيل مدون عن بابل كان نحو 2200ق.م، حين أسس الملك سومو آبوم ــ وهو أول حاكم بابلي ذي شأن ــ أسرة حاكمة في سنة 1894ق.م، وكان أبرز ملوك تلك الأسرة الملك حمورابي الذي حكم من عام 1792 إلى1750ق.م، واشتهر بتطويره مجموعة تشريعات تميزت بالحكمة والعدالة. وكانت بابل عندما اعتلى حمورابي العرش، واحدة من عدة ممالك صغيرة في بلاد ما بين النهرين (بلاد الرافدين). اشتملت هذه المنطقة ــ الواقعة ما بين نهري دجلة والفرات ــ على المناطق التي تشكل اليوم شرقي سوريا وجنوبي تركيا ومعظم العراق، وقد أخضع حمورابي لحُكمه معظم الممالك الأخرى وأسس الإمبراطورية البابلية القديمة.

شُيّد في بابل خلال عهد حمورابي عدد من القصور والمعابد الضخمة، وحددت البيوُت الخاصة شوارع المدينة الضيقة والمتعرجة، وكان للبيت النموذجي فناء مركزي تحيط به الغرف، وكان يحيط بالمدينة سور ضخم للدفاع عنها ضد الغزاة، وكان له عدة بوابات، يعقد عندها التجارُ أسواقهم، وقد تاجر هؤلاء بالرقيق والمواد الغذائية والمنسوجات ومواد البناء والمواشي، وكان التجار البابليون يرحلون غرباً إلى سوريا وبلاد أخرى، وشمالاً إلى بلاد آشور، وجنوباً إلى الممالك الواقعة على طول الخليج العربي، وغالباً ما كانوا يتاجرون بالمنسوجات والحبوب مقابل الذهب والفضة والأحجار الكريمة.

انقسم المجتمع في بلاد بابل بشكل عام، خلال عصورها المختلفة، إلى طبقات متعددة وهي: الطبقة الأُرستقراطية (الطبقة العليا)، التي كانت تضم عادة، موظفي الحكومة والكهنة وملاك الأراضي الأثرياء وبعض التجار، أما طبقة عامة الشعب فكانت تتألف من الحرفيين والكتبة والمزارعين. ويلي ذلك طبقة الرقيق التي شكلت أدنى طبقات المجتمع البابلي(49). إلا أنه كان بإمكانهم التملك وإدارة الأعمال الخاصة بهم، واقتراض

الأموال، وحتى شراء حريتهم، كما كان بإمكان النساء الحرائر التملك، وكان لهن أيضاً حقوق شرعية أخرى. وكان الآباء عادة يختارون الأزواج لبناهم.

فقدت الإمبراطورية البابلية القديمة معظم أراضيها بعد موت حمورابي مباشرة، وظلت بابل قوة سياسية وثقافية مهمة، ولكن حكامها لم يحاولوا توسيع سلطاها، إلى أن سيطرت الإمبراطورية الآشورية عليها خلال القرن الثامن قبل الميلاد، فدمرها الملك الآشوري سنحاريب سنة 689ق.م وقام أسرحدون بن سنحاريب بإعادة بنائها بعد إحدى عشرة سنة من تدميرها.

ثم بدأت الإمبراطورية البابلية الحديثة سنة 626ق.م، عندما أخذ القائد العسكري البابلي نبوبلصَّر المُلك من الآشوريين، وسيطرت الإمبراطورية البابلية الحديثة في ظل حكمه على معظم ما يعرف اليوم باسم الشرق الأوسط.

وأعاد نبوبلصّر وابنه نَبوخَذ نصَّر الثاني بناء المدينة على نطاق أكبر، وشيَّد العمال خلال عهد نبوخذ نصر الثاني، الذي امتد مابين عامي 605 ق.م و562 ق.م أسواراً حول المدينة، بلغ سُمكها 26متراً تقريباً. وقد حمت الأسوارُ الداخلية الضخمة، التي يحيط بها خندق واسع، القسم الرئيسي من المدينة، وكان سكان بابل يدخلون المدينة ويخرجون منها عبر ثماني بوابات برونزية.

وكان أفخم هذه البوابات بوابة عشتار الضخمة، التي تقع على شارع مرصوف يُدعى شارع المواكب، يربط معبد مردوك، الموجود داخل الأسوار بساحة المهرجان الديني الكبير، الواقعة خارج المدينة، حيث كان يحمل البابليون تماثيل آلهتهم على طول الطريق إبان المهرجان الذي كان يقام عند بداية كل سنة جديدة. وقد زُخرفت بوابة عشتار وجدرالها بأشكال التنينات والأسود والثيران المصنوعة من الآجر المزجج الملون.

وكان القصر الرئيسي لنبوخذ نصَّر والحصن، يقعان بين بوابة عشتار وهمر الفرات، ومن المحتمل أن هذه البقعة هي التي احتوت حدائق بابل المعلقة الشهيرة. وقد وصف

الإغريق القدامى هذه الحدائق المزروعة على سطح بناء شاهق، كإحدى عجائب الدنيا السبع. وتمتد منطقة المعبد صوب الجنوب حيث يقع معبد مردوك، وتضم المنطقة أيضاً الزكورة وهي برج عالٍ عرف في العصور اللاحقة باسم برج بابل.

لم يتمتع خلفاء نبوخذ نصَّر بشعبية كبيرة فغدت الإمبراطورية ضعيفة في ظل حكمهم. وفي سنة 539 ق.م استولى المغيرون الفرس على بابل وأسقطوا الإمبراطورية البابلية الحديثة، وأصبحت بابل أغنى منطقة في الإمبراطورية الفارسية. وفي سنة 331 ق.م ظفر القائد العسكري المقدوني، الإسكندر الأكبر، ببابل، وجعلها عاصمة ملكه ومات فيها سنة 323 ق.م. وأصبح أحد قادته، فيما بعد، واسمه سلوقس، ملكاً على بلاد بابل والأراضي المحيطة بها، وأسس مدينة سلوقية، على نهر دجلة، كعاصمة جديدة، فانتقل إليها سكان بابل في وقت لاحق. وتحولت بابل المهجورة، بمرور الزمن إلى خرائب.

وبالنسبة للدين، كان سكان بلاد بابل يعتقدون بأن أحداثاً ما تدور بين المعبودات في السماوات وهي تؤثر فيما يطرأ في الطبيعة والكون من تغييرات، وكانوا يعتقدون أن الملك يحكم في الأرض ممثلاً لهذه المعبودات، وجاء زمن كان فيه الملك مؤلهاً. وكانت الديانة خليطاً من دراسة النجوم (التنجيم) والجو والسحر، وذلك مما أدى إلى الاهتمام بعلم الفلك فيما بعد[50].

رابعاً– الآشوريون (1900–612ق.م):

آشور إمبراطورية قديمة كانت في أعالي نهر دجلة، ببلاد الرافدين، وتشمل الجزء الشمالي تقريباً من العراق الحديث، أما حضارتها فكانت في أوجه عديدة مماثلة لحضارة جارتها بابل القديمة التي تقع إلى الجنوب منها. وأُطلق على الآشوريين اسم رومان آسيا إذ كانوا فاتحين عظماء، كما كانوا يحققون انتصاراتهم بالتنظيم والسلاح والمُعَدَّات الممتازة.[51]

والآشوريُّون قبائل عربية قديمة، هاجرت نحو 3000ق.م إلى شمالي بلاد الرافدين، ولم يعرفوا الطمأنينة والاستقرار قرابة ألف سنة بسبب الحروب والغارات وخضوعهم لشعوب وأمم جاءت من أواسط آسية، ونُسبوا إلى إلههم آشور، الذي مثّل قسوتهم وخشونتهم وبأسهم الحربي الشديد، لقد عاشوا للحرب، يذكون نارها، ويخوضون غمارها، عاصروا حمورابي، وخضعوا له، ثم وقعوا بين نارين، نار الكاشيين من الجنوب، ونار الميتانيين من الغرب، الذين دخلوا آشور في عهد ملكهم شوشتار، ولكن آشور أُوباليط: (1392-1337ق.م) تمكن من القضاء على الميتانيين، والاستقلال بتحالفه مع الحثّيين.

توسعت الإمبراطورية الآشورية حتى مصر والأناضول وعيلام، وكان أَوج المجد والتوسع أَيام آشور بانيبعل: (668-626ق.م)، ولكنها سقطت سنة 612ق.م، لاعتمادها على الإرهاب العسكري، وخشونة طباع جندها، ووحشيّة قادها، ولكثرة الحروب التي سببت الفقر والمرض، فقامت دولة قوية في بابل على يد أسرة كلدانية، والتي كان من أَشهر ملوكها نَبُوخَذْ نَصَّر، الذي قضى على مملكة يهوذا سنة 585ق.م، وفي عام 539ق.م اقتحم كورش الفارسي أسوار بابل، وانتقلت السيادة السياسية إلى الفرس حتى 331ق.م حين استولى الإسكندر على الشرق. ولكن السيادة العربية عادت إلى بلاد الرافدين عندما خرج الجيش العربي الإسلامي محرراً العراق وبلاد الشام ومصر، منذ الثلث الأول للقرن السابع الميلادي[52].

وأقدم الوثائق المكتشفة، التي تعود إلى قبل سنة 2000ق.م، تُظهر أن حاكماً من مدينة أور، جنوب شرق العراق الحالي، حكم آشور. كما تُظهر وثائق تعود إلى مرحلة لاحقة أن الآشوريين كانوا يتاجرون بكثافة في الأناضول (تركيا الآن).

وفي عام 1813ق.م نصّب شمشي أدد، وهو زعيم صحراوي للأموريين، نفسه سيداً لآشور، ووسع من مدى سلطة آشور وحدودها إلا أن آشور وقعت تحت سيطرة

البابليين بعد موته.

تمتعت آشور بفترات وجيزة من التوسع في القرنين 13، 12ق.م، وذلك قبل أن تبني إمبراطوريتها في القرن التاسع قبل الميلاد. وقد سيطر شلمنصّر الثالث على طرق التجارة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، كما افتتح تغلات بلسر الثالث مناطق واسعة من سوريا وفلسطين وأصبح ملك بابل. وقد تعامل سنحاريب بقسوة مع عدد من الانتفاضات التي قامت في الإمبراطورية، فأخمد ثورة بابل ودمّر المدينة نفسها في أثناء ذلك، كما أخمد ثورات أخرى في سوريا وفلسطين، إلا أنه خسر حكم القدس في يهوذا. وسنحاريب هو الذي أسس نينوى وجعلها عاصمة كما جعل منها مدينة عظيمة. أما خليفته أسرحدون، فقد جعل مصر تابعة لإمبراطوريته.

بدأت آشور تضعف بعد منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وقد وضعت الهجمات التي تعرضت لها من جانب الماديين والبابليين في سنتي 614 و612ق.م. نهاية لهذه الإمبراطورية[53].

المقطع 1.02 أما أنماط المعيشة فقد

كان معظم الآشوريين سكان مدن ومزارعين وأعضاء في جماعات شبه بدوية، تتجول من مكان إلى آخر قريباً من المناطق الآهلة بالسكّان، أما بلاد آشور فكانت مُقسَّمة إلى إقطاعيات كبيرة يديرها إقطاعيون.

وعاش المزارعون في قرى صغيرة في هذه الإقطاعيات، واشتغلوا في الأرض، وحفروا قنوات الري التي كانت تنقل المياه إلى المزارع، وتساعد في ضبط الفيضانات. وكانوا يعيشون في أكواخ سقوفها من القش، وجدرانها مبنيّة من الأغصان المجدولة والطين، أما أهم محاصيلهم الزراعية فكان الشعير، كما كان المزارعون في الوقت نفسه يُربُّون المواشي، ويُنتجون الحليب، ومنتجات الألبان الأخرى.

كان في آشور عدد قليل من المدن الكبيرة من أهمها آشور وكالو ونينوى، وقد

عمل معظم سكان المدن حرفيّين أو تجاراً، وكان الحرفيون يصنعون الفخاريات، ومشغولات من الذهب والفضة والبرونز والعاج والخشب. أما مدنهم فكانت محاطة بأسوار يحرسها رماة السهام لحمايتها من أي هجوم يقع عليها. وكان السكان يزرعون الفواكه والخضْراوات والكروم في البساتين الواقعة في الأراضي المروية خارج أسوار المدينة[54].

أما الديانة الآشورية، فقد كانت وثيقة الصلة بالديانات السومرية والبابلية، فقد آمن الآشوريون بأن هناك آلهة عدة توجه مصير الإنسان وتسيطر على السماء والأرض والماء والعواصف والنار، كما كانوا يؤمنون بالأرواح الخيّرة والشريرة وبالسحر.

وعبد الآشوريون آلهة أخرى، منها نبو: إلهاً للعلم وراعياً للكتاب، ونينورتا: إلهاً للحرب وعشتار: إلهة للحب. وقد اشتهرت عشتار في نينوى حتى أن تمثالها أرسل مرة من هناك إلى مصر اعتقاداً أنها ستساعد الملك المصري في شفائه من مرض ألمّ به، كذلك اعتاد الآشوريون تقديم الطعام والأشياء الثمينة إلى آلهتهم. وكان الكهنة يحاولون توقع المستقبل بفحص الأحشاء الداخلية للقرابين وملاحظة ما يحدث في الطبيعة مثل حالات الطقس وتحليق الطيور، وتأويلها[55].

- **حضارة بلاد الرافدين:**

1- اللغة والكتابة والتعليم:

كانت الحضارة التي قامت في حوض دجلة والفرات من إنتاج شعوب عديدة، أغنى كل منها الآخر بما توصل إليه في مجال الأدب والعلم والنشاط العمراني والفن، وإن الأسبقية في كثير من الأمور تعود للسومريين، كما ساهمت بقسط كبير الشعوب السامية من (أكاديين وبابليين) وغيرهم. وعندما ازدهرت بابل أطلق على تلك الحضارة المركبة اسم الحضارة البابلية [56].

انصهر السومريون وفقدوا لغتهم، ولكن ما تركوه من تراث كان له تأثير على

الأكاديين والبابليين، حتى أنه من الأصح أن نسمي الحضارة البابلية بالحضارة السومرية – أكادية – البابلية.

ولم تعق الاصطدامات الحربية التفاعل الحضاري بين السومريين والأكاديين وبين الشعوب الأخرى أيضاً، ففي الألف الثانية قبل الميلاد حصلت المدن السامية على السيطرة السياسية فانصهرت تدريجياً الشعوب غير السامية، وتقهقرت اللغة السومرية أمام اللغة الأكادية. ولكن يجب أن نأخذ بالحسبان أن انصهار الشعب السومري في الشعوب السامية رافقه استيعاب الساميين عناصر عديدة من اللغة السومرية التي رغم توقف استعمالها في المخاطبة، تعلم كتابتها الكتبة البابليون والأكاديين بدقة وإتقان، حيث بدون معرفة الكتابة السومرية لم تكن الثقافة مستطاعة، وربما اعتمد طراز الكتابة الأكادية بالأساس على طراز الكتابة السومرية، فقد أخذ عنه مبدأ الحركات الغريبة على الكتابات السامية الأخرى كالفينيقية والعبرية مثلاً التي تكتب فيها الأصوات الساكنة فقط، أما النبرات الصوتية فتضاف من قبل القارئ بصورة تلقائية حسب اللهجة المحلية وأحيانا بشكل مغلوط، وكان تثبيت الحروف الصوتية الأساسية (أ – ي – و) في الكتابة الأكادية مزية كبرى ساعدت على نقل الكلام الحي بمنتهى الدقة، والأكاديون مدينون بهذه المنجزات إلى معلميهم السومريين[57].

فقد بدأ السومريون، في بلاد بابل نحو سنة 3500ق.م، بتدوين وثائقهم وكانت تتألف الكتابة من رموز تصويرية منقوشة على رقْم من الطين، وقد تحولت هذه الرموز، فيما بعد، إلى الكتابة المسمارية، وربما كان استخدام الكتابة المسمارية قد استمر حتى بداية التاريخ الميلادي.

وتم صنع رموز الكتابة المسمارية عن طريق ضغط آلة حادة الطرف في ألواح من الطين الخزفي المبلّل، ثم تُتْرك هذه الألواح لتجف في الشمس، وبقيت مئات الآلاف من هذه الألواح التي توضّح معلومات عن سياسة السومريين وآدابهم واقتصادهم وقوانينهم

ودينهم، كما تشير هذه الألواح إلى أن السومريين كانوا يعرفون الكثير عن الرياضيات والفلك والطب.

وأسس السومريون بعض المدارس القديمة لتدريب الناسخين الذين كانوا يحفظون السجلات الخاصة بمكاتب الحكومة والمعابد وبعض المؤسسات الأخرى[58]. فقد تبع وجود الكتابة نشوء المدارس في معظم المدن السومرية والبابلية، وقد كشفت التنقيبات الحديثة عن وجود مئات الألواح التي كتبت بغرض التعليم، وكان مدير المدرسة السومرية يدعي أوميا أي الخبير أو الأستاذ، ومن ألقابه أبو المدرسة، والتلميذ يلقب بابن المدرسة، ووجد في المدرسة موظفون منهم: الأخ الكبير الذي يكتب الألواح للتلاميذ كي ينسخوها، والمشرف على الرسم، والمشرف على اللغة السومرية، والرجل الموكل بالسوط، ولكن معرفة القراءة والكتابة في بلاد النهرين، كما في بلدان الشرق الأخرى، كانت مقتصرة على أقلية محدودة، فالبنات عامة لم يذهبن إلى المدرسة (ربما بنات الملوك والأمراء والكهنة تعلمن في البيوت ولكن لا توجد أخبار مباشرة حول ذلك) التي اقتصرت على الصبية فقط من أبناء الكهنة والموظفين وكبار الشخصيات المدينة والعسكرية، وكان مكان المدرسة في المعابد والقصور حيث أن أملاك المعابد ودوائر الدولة كانت بحاجة إلى أناس متعلمين، وقد كان التعليم لقاء أجر عدا عن الهدايا الإضافية للمعلمين، وكان الطلبة الكسالى يتعرضون لعقاب جسدي من قبل المراقب الذي يحمل سوطاً لهذا الغرض، لكن الطلبة كانوا معفيين من الجهود العضلية، وعند إنهاء دراستهم يستلمون الوظائف. ومن الحكم البابلية في تشجيع الطلبة على التعلم «من يتفوق في كتابة الرقم سيضيء كالشمس». وقد وصلتنا مئات الألوف من النصوص المسمارية المكتوبة على ألواح من الطين، وقسم قليل منها محفور على القرميد أو صفائح معدنية، وبفضل هذا نستطيع أن نطلع على الإنتاج العلمي والأدبي في بلاد النهرين، لكن هذا الإنتاج، كما في البلدان القديمة الأخرى، يحمل طابعاً من التفكير الديني

الأسطوري، الذي تجاوزوه تدريجياً ولكن ببطء وليس بصورة نهائية [59].

ولقد وجد الآثاريون في بلاد بابل، حتى الآن، مئـــات الألـــوف مـــن الألـــواح المسمارية، وفي أماكن نائية، مثل الرسائل باللغة الأكادية التي عثر عليها في تلّ العمارنة في مصر، وهي ترجع إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وكانـــت مكتوبـــة باللغـــة السومرية أولاً وباللغة الأكادية ثانياً، وكلتاهما بالخط المسماري، وتحتوي هذه الألـــواح على وثائق تاريخية وقانونية ورسائل وسجلات اقتصادية ونصوص أدبية ودينية وبحوث في الرياضيات والفلك والطب والسحر[60].

2– المعارف العلمية:

نشأت العلوم وتطورت في بلاد النهرين متأثرة بالعقائـــد الدينيـــة وبالأعمـــال السحرية، ففي أكثر الأحيان لم يكن الهدف من التجربة أو الملاحظة التعرف على حقيقة الكون، وإنما لغايات دينية وسحرية، وقد نسبت إلى كل مادة أو ظاهرة صفات وهميـــة خيالية بالإضافة إلى صفاتها الحقيقة، وحتى الظواهر الطبيعية المعروفـــة أعطيـــت طابعـــاً خرافياً. كما لم يكن هناك تحديد بين الطبيعة العضوية وغير العضوية، فـــالأرض والمـــاء والهواء والكواكب عدت جميعها كائنات حية. وقد قاد الاعتقاد بالسحر والتعاويذ إلى تقسيم المواد والكائنات الحية إلى إيجابية وسلبية، بغض النظر عن خواصـــها الحقيقيـــة، ونافعة كانت أم ضارة للإنسان. فقد اعتقد السومريون مثلاً بوجود صفات مباركـــة في الحجر الأسود، وبوجود صفات سلبية ضارة في الحجر الأبيض، والاعتقاد بأن الأعـــداد بعضها محظوظ وبعضها ينبئ بالسوء كان له تأثير على التقويم والمقاييس، فالعدد 6 كان يعد مقدساً، فأدى ذلك إلى نشوء النظام الستيني في الرياضيات، لكن المتطلبـــات الـــتي أجريت للحصول على قدرة سحرية كانت أحياناً عن طريق الصدفة تقود إلى اكتشاف علمي قيم. وهكذا تدريجياً أخذت تتحرر معرفة الكون من قيود التفكير الديني، ولكـــن ذلك التحرر لم يتحقق تماماً في ظل النظام العبودي ببلاد النهرين، ومهما يكن من أمـــر

فقد تمت إنجازات كبيرة في مجال الرياضيات والفلك والطب وغير ذلك من العلوم[61].

أ- الرياضيات: عمل في العهد السومري في أراضي القصـــر والمعابـــد عشـــرات المحاسبين الذين أجروا حسابات دقيقة للمنتوجات والقوى العاملة، حتى أنهـــم حســـبوا الكسور (لتقدير أيام العمل مثلاً). كذلك تطلب القيام بمشاريع الري والبنـــاء معرفـــة الحساب والهندسة. والبابليون اشتهروا بالتجارة التي تحتاج إلى عمليات حسابية، مما أدى إلى تطور علم الحساب وعملياته: الجمع والطرح والضرب والقسمة. وقـــد اســـتعملوا النظام الستيني في الحساب رغم صعوبته، وكان من رواسب التصورات الدينية (العدد 6 والأعداد الناتجة عنه مثل 12، 36، 360 الخ.. عدت أعداد محظوظة)، وفيما بعد ظهر نظام عشري ستيني فكان عملياً أكثر من النظام الستيني، والأعداد الرئيسية فيه هي العدد 60 (ناتج عن ضرب 6 × 10 والعدد 360 والعدد 3600 الخ...) وإلى هذا النظام يعود تقسيم اليوم إلى 24 ساعة، والساعة إلى 60 دقيقة، والدائرة إلى 360 درجـــة، والسنة إلى 360 يوماً. ومن الإنجازات الهامة في مجال الرياضـــيات لـــدى الســـومريين والبابليين كان إنشاء النظام الموقعي الذي يتبدل فيه معنى الأرقام حســـب موقعهـــا في الأعداد المركبة. فالإسفين العمودي عادة يشير إلى الرقم واحد، ولكنه إذا وقـــع أمـــام الرقم عشرة فيشير إلى العدد (60)، وفي مركبات أخرى يشير إلى العدد (3600). أما النقص الكبير في تلك الرياضيات فهو عدم وجود إشارة الصفر. وتجـــدر الإشـــارة إلى ظهور الجبر والهندسة، إذ حل البابليون معادلات من الدرجة الثانية، وحســـبوا طـــول المحيط ومساحة الدائرة وغير ذلك. ويقول بعض المؤرخين أن العرب اعتمـــدوا علـــى المعلومات الرياضية التي توصل إليها البابليون أكثر من اعتمادهم على اليونانيين في هـــذا المجال[62].

ب- الفلك: كان علم الفلك على صلة وثيقة بالتنجيم المزيف، ومما دفع ســـكان بلاد النهرين إلى دراسة النجوم اعتقادهم بتأثير كواكب السماء على مصـــير الفـــرد أو

المجتمع، هذه الدراسة، بالإضافة إلى الأوهام المتراكمة نتيجة تطابق ظواهر السماء أحياناً مع حوادث تجري بالواقع على الأرض، قادت إلى نتائج موثوقة ذات قيمة علمية، فعرفت مثلا العلاقة بين الشمس وبروج الأفلاك. وقد قسم السومريون والبابليون دائرة فلك البروج أي الدائرة المشكلة من خط دوران الأرض حول الشمس إلى اثني عشر برجاً، وكان العرافون من الكهنة يرون في أي برج خلق المولود «ليتنبأوا» له عن سير حياته في المستقبل. كما كان كل كوكب من الكواكب يمثل إلها من الآلهة المعبودة في بلاد النهرين، فالمشتري يمثل مردوخ، وعطارد يمثل نلبوا، والمريخ يمثل نرجال، والشمس تمثل شاماش، والقمر يمثل سين، والزهرة تمثل عشتار. وقد وضع المنجمون مخططات لأوضاع الكواكب وحركاتها فاستطاعوا التنبؤ بحدوث الكسوف والخسوف، وعرفوا سلفاً متى يكون القمر على أقرب مسافة من الأرض، كما عرفوا أيضاً الاعتدالين والانقلابين. وهكذا نشأ في بلاد النهرين تقويم شمسي وقمري ما لبث أن انتشر إلى البلاد المجاورة. وقد تطلبت أمور الزراعة دقة كبيرة في حساب التقويم، فكان كل ثلاث سنوات يضاف شهر كبيسي حتى تتساوى السنة القمرية مع السنة الشمسية. كذلك قسم الشهر القمري إلى أربعة أسابيع تتفق مع تبدل أوجه القمر الأربعة. وكانت السنة القمرية تتألف من 354 يوماً وتبتدئ في نيسان وتنتهي في آذار، وكان الشهر الذي يضاف إلى السنة كل ثلاثة أعوا0م يسمى آذار الثاني(63).

ج- العلوم الطبيعية: وضع الكتّاب السومريون والبابليون قوائم ذات هدف تعليمي تحتوي على أسماء النباتات والحيوانات والمعادن، كما حاولوا تبويب هذه القوائم وتقسيمها إلى مجموعات معينة، ولكن ذلك التبويب كان على شكل ساذج، فمثلاً صنّفوا الحمار والفرس والجمل في مجموعة واحدة، وسموا الأسد كلبا كبيراً، كما درسوا بدقة تركيب أجسام الحيوانات المذبوحة، حيث وصلتنا بعض التصاميم لأكباد مصنوعة من الطين كانت تستعمل للعرافة وقراءة البخت، ولكنها أصبحت عملياً كوسائل

إيضاح للتعرف على علم التشريح، وفي الألف الثالثة قبل الميلاد وُضع باللغة السومرية بحث في علم الزراعة دُرست فيه خصائص التربة والنباتات الزراعية وغير ذلك. ووُجدت عندهم وصفات مكتوبة بالمسمارية حول تحضير الأحجار الاصطناعية كاللازورد مثلاً. وهكذا أخذت العلوم الطبيعية تفقد تدريجياً صلتها بالسحر وتستخدم لأهداف اقتصادية.

د- الطب: جاء في إحدى الوثائق السومرية أن طبيباً اسمه لولو كان يمارس الطب في مدينة أور نحو 2700 ق.م، وقد عثر على رقيم من الطين سومري يحتوي على وصفات طبية مركبة من مواد نباتية وحيوانية ومعدنية، وهي على شكل شراب أو مرهم أو مسحوق. وكان من الصعب معرفة أسباب الأمراض الداخلية ففسروها عادة بدخول أرواح شريرة في جسم المريض (كشيطان الأوبئة منتارو)، أو نتيجة لسوء نوايا السحرة ومكائد الساحرات وغير ذلك. وهكذا اعتقد سكان بلاد النهرين أن الصلوات والتعاويذ وحرق تماثيل السحرة من أفضل الطرق للعلاج، أما الأدوية فكان لها دور إضافي أيضاً. وكان أكثر العلوم تحرراً من أمور السحر الكاذبة هو علم الجراحة، حيث يقوم على معالجة ظواهر واضحة للعيان. وقد تجرأ الأطباء البابليون في عهد حمورابي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) أن يقوموا بعمليات معقدة في العين، كإزالة الماء الزرقاء بواسطة سكين من البرونز. ولكن في حال الفشل يتعرض الطبيب لعقاب شديد كقطع راحة اليد مثلاً. وكان السومريون يسمون الطبيب آزو (أي الذي يعرف الماء)، والبابليون يسمونه آسو، كذلك استعملوا كلمة آسوتو بمعنى الطب وتقابلها بالعربية كلمة مواساة[64].

- الثقافة الآشورية.

1- الكتابة واللغة:

تكلم الآشوريون الأوائل لغة سامية ذات صلة باللغتين العربية والعبرية الحـــاليتين، واستخدموا نظاماً في الكتابة عرف باسم الكتابة المسمارية، مســـتعارة بتطـــوير مـــن السومرية، وكانت تتكون من رموز مسمارية الشكل منقوشة على ألواح من الطين.

وكانت لغتهم قريبة من الأكادية، وقد اقتبسوا كثيراً مـــن الكلمـــات والتعـــابير الأكادية حتى غدت اللغة الآشورية وكأنها لهجة من اللهجات البابلية – الأكادية، أمـــا في المراسلات الخارجية فقد استعملوا اللغة الأكادية التي كانت قد غدت لغـــة عالميـــة، واستعملها الحثيون والمصريون أيضاً في مراسلاتهم مع الشعوب الأجنبية. كمـــا اقتـــبس الآشوريون عن البابليين طريقة الكتابة المسمارية ولكنهم بسّطوها وحسّنوها قليلاً. أمـــا اللغة الآشورية فلم يتكلم بها سوى الآشوريون أنفسهم، ولما ازدهرت اللغـــة الآراميـــة وانتشرت في مختلف بلاد الشرق الأدنى خضع الآشوريون لتأثيرها أيضاً وأصبح ملوكهم يستخدمون في قصورهم كتبة من الآراميين، وحتى اللوحات المسمارية أصبحت تـــدون فيه ابتداء من القرن الثامن مختصرات باللغة الآرامية، وقد بلغ من سعة انتشـــار اللغـــة الآرامية أن غدت لغة الإدارة في الإمبراطورية الفارسية فيما بعد ووصل تأثيرها إلى آسيا الوســطى والهند[65].

2– الأدب:

جمع ملوك آشور ألواح الطين في مكتبات ضخمة، واحتوت مكتبة آشور بانيبال، التي اكتُشفت في نينوى في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، على ألواح تعالج الـــدين والأدب والطب والتاريخ وموضوعات أخرى، وقد فهرس أمناء المكتبة الآشوريون هذه الألواح بعناية، واحتفظوا بها على رفوف، ويحتفظ المتحف البريطاني في لنـــدن حاليـــاً بمعظم ألواح مكتبة آشور بانيبال، وكثير منها موضوع للعرض.

كذلك كتب الآشوريون نصوصاً قانونية. وتعود القوانين الآشورية الوســـيطة إلى

حوالي عام 1400ق.م مثلها مثل شريعة حمورابي، وتتكون هذه القوانين مـــن نمـــاذج لقضايا صدر في كل منها حكم ما. إلا أن العقوبات التي كان يفرضها الآشوريون على منتهكي القانون كانت أكثر قسوة من تلك التي يفرضها البابليون .[66]

3- العلوم:

استمر تطور العلوم في العهد الآشوري وظلت تتأثر بالمعتقدات الدينية والتأملات السحرية، ومع أنها كانت تتحرر من هذه القيود أحياناً كثيرة إلا أنها ظلت على ما وصلهم من أسلافهم البابليين، و لم يحقق الآشوريون تقدماً هاماً في هذا الميدان.

ففي الرياضيات ثابروا على استعمال النظام الستيني والنظام العشري في الحساب، كما حفظوا المعلومات المعروفة سابقاً في مجالي الهندسة والجبر (حل المعادلات من الدرجة الثانية، وطول المحيط ومساحة الدائرة وغير ذلك). وقسّموا السنة إلى 360 يوم و12 شهراً وأحياناً 13 شهراً، كما استعملوا الموازين والمقاييس نفسها التي سبقهم البابليون إلى استعمالها، وإن كانوا قد عدلوها أحياناً، وتداولوا النقود المسكوكة من النحاس والفضة والبرونز وغير ذلك من المعادن.

وفي مجال الفلك كان الآشوريون متقدمين، ولكن لم يفصلوه قط عن التنجيم المزيف، وكان هناك أشخاص مهمتهم مراقبة النجوم وكواكب السماء وكتابة التقارير عن مشاهداتهم، ليطلع عليها الكهنة المنجمون والعرافون والسحرة ويتنبئوا بما سيحدث من حوادث عامة أو فردية، أو لمعرفة نوايا الآلهة ومن ثم تنفيذ رغباتها لتحاشي غضبها ونقمتها، وقد حفظت تقارير فلكية تحمل تنبؤات كهنوتية للملك استندت على مراقبات فلكية في كافة أنحاء الإمبراطورية، واتخذ الآشوريون تقويماً قمرياً وشمسياً [67].

وكانت السنة عندهم قمرية تعتمد على رصد القمر، ولكن اختلاف فصول السنة عن المواسم الفصلية قادهم للتعرف إلى السنة الشمسية، فحاولوا التوفيق بينهما بإضافة شهر كل عدة سنوات، وأخيراً اكتشفوا (في عهد تيغلات تبلازر الثالث) أن عدد أيام 235 شهرياً قمرياً يعادل عدد أيام 19 عاماً شمسياً، فبدؤوا يضيفون سبعة أشهر قمرية كل 19 عاماً وكان الملك هو الذي يصدر الأوامر بإضافة الأشهر[68].

وفي مجال الطب عد المرض نتيجة لإثم اقترفه المريض أو أن شيطاناً قد مسه، لذلك

عالجوا المريض بالتعاويذ والطقوس الدينية والرقى السحرية، ثم بدؤوا يقرنون هذه العلاقات بأدوية يقدمونها للمرضى، وكانت أدويتهم مؤلفة من جذور بعض النباتات ومن أوراق بعضها الآخر ومن الزيوت والمعادن والرماد والدم وغير ذلك. ورغم أنهم عرفوا الأدوية التي يجب أن تعالج بها مختلف الأمراض إلا أنهم لم يفصلوا الطقوس الدينية والسحرية عنها، إذ يجب التلفظ ببعض الكلمات والقيام ببعض الطقوس أثناء تناول الدواء، وذلك ليشفي المريض بصورة أكيدة وتامة. وهناك بعض الأمراض التي لم يجدوا لها الدواء، و لم يعرفوا كيفية شفائها فعدوها عقاباً من الآلهة للآثمين والمذنبين، وكان معظم أطبائهم من البابليين.

أما العلوم الطبيعية فلم تشهد تقدماً ملموساً إلا في مجال استخراج وصناعة الحديد الذي أصبح يستعمل بكثرة وخاصة في تسليح الجيش، بينما ظلت صناعة الزجاج على حالها. ووضع الآشوريون، مقتدين بذلك بالسومريين والبابليين، قوائم ذات هدف تعليمي تحتوي على أسماء النباتات والحيوانات والمعادن، وحاولوا تبويب هذه اللوائح وتقسيمها إلى مجموعات معينة، ولكن تبويبهم لها كان بسيطاً وساذجاً.

و لم يعرف الآشوريون ما يمكن أن نسميه علم الجغرافية، ولكنهم تركوا وصفاً لبعض المناطق ومخططات لبعض البلاد التي قاموا بغزوها وذكروا تضاريسها (خاصة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد). كما لم يعرفوا العلوم التاريخية بمعناها الصحيح، ولكنهم دوّنوا كثيراً من المعلومات التاريخية والأخبار عن ملوكهم وحروبهم ومعاصريهم وأعمالهم ونشاطهم العمراني، وهي تعطينا صورة عن عصرهم رغم أنها محشوة بالإفختارات والإدعاءات والتخيلات الخرافية والتفسيرات الدينية المزيفة والتهويلات والمبالغات الكثيرة المختلطة مع الحقائق[69].



الفصل الثالث

حضارة بلاد الشام

أولاً– الممالك الآمورية:

الآموريون من الشعوب السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية نحـــو ســـنة 2500 قبل الميلاد وانتشروا في أواسط سورية وشمالها وشرقها، وقد أطلق سكان بلاد النهرين اسم آمورو على المنطقة الواقعة إلى الغرب من بلادهم ثم أصبح اسم (أمـــورو) يطلق على سورية كلها. وكانوا في أول الأمر يتشكلون من قبائل بدوية متنقلة ثم استقر بعضهم وتحضروا وأسسوا فيما بعد عدة ممالك أشهرها:

1– مملكة يمحاض: كانت عاصمة مملكة يمحاض الآمورية في مدينة حلب، ولكن تلك المملكة كانت تقع أحياناً تحت النفوذ الآشوري، ولم تستطع الاستقلال إلا أثنـــاء ضعف أو انشغال الحثيين والآشوريين(70).

2– مملكة آسين: تأسست مملكة آسين الآمورية في بلاد النهرين وليس في سورية، ولكن مؤسسها كان أحد ملوك مدينة ماري الآمورية السورية وهو اشبي ايرا، وكـــان اشبي ايرا قد تحالف مع ملك عيلام وأسقطا حكم سلالة أور الثالثة في بلاد النهرين.

3– مملكة ماري الآمورية: اكتشفت أنقاض مدينة ماري سنة 1933م من قبـــل بعثة فرنسية بعد أن كان أحد أفراد البدو قد عثر صدفة على تمثال ضخم بدون رأس من الحجر الأبيض في تل الحريري شمالي مدينة البوكمـــال الســـورية الحاليـــة وذاع خـــبر الاكتشاف، وقد اكتشفت تلك البعثة آثار معبد للآلهة عشتار وعثرت على تمثال نـــاظر الملك أيدي ناروم وتمثال الملك لمجي ماري، كما عثرت على كثير من التماثيل الصـــغيرة والرقم الصينية المكتوبة. وتبين من الآثار المكتشفة ومن بعض المصادر الأخرى أن مدينة ماري هذه كانت قد سكنت من قبل أقوام سومرية – أكادية قبل عـــام 2500 قبـــل

الميلاد. ولكن الآموريين بدأوا يتسربون إلى مدينة ماري بعد ذلك التاريخ بقليل ثم استطاعوا استلام السلطة السياسية فيها. ومن أشهر الملوك الآموريين الذين حكموا في ماري تورا داجان وبوزور عشتار وايشتون أيلوم. وقد عثر على تمثالي الملكين الأول والثاني في بابل ونقلا إلى متحف استانبول، كما عثر على تمثال الملك الثالث في تل الحريري مكان مدينة ماري ونقل إلى المتحف الوطني بحلب(71).

ثانياً– الممالك الآرامية:

الآراميون من الشعوب السامية التي هاجرت في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (حوالي سنة 1500 ق.م) من شمال الجزيرة العربية، وتوزعوا في المنطقة التي تمتد من بلاد الشام إلى أعالي بلاد النهرين حتى الخليج العربي ومنطقة شرقي دجلة. ولقد حاول البابليون والآشوريون صد القبائل الآرامية ومنعها من الاستقرار في بلاد النهرين وسورية ولكنهم لم يفلحوا، إلا أن الآراميين استطاعوا أيضاً التوغل في اتجاه الشمال والشمال الغربي، كما استطاعوا تأسيس ممالك أو دويلات صغيرة في مناطق مختلفة، وأهم هذه الممالك:

1– مملكة بيت بخياني أو آرام النهرين: وكانت عاصمتها مدينة غوزانا وهي قرية تل حلف حاليا (بالقرب من رأس العين). وقد نقل علماء الآثار الألمان بعض آثارها إلى ألمانيا، وقسم آخر نُقل إلى المتحف الوطني بحلب(72).

2– مملكة حماة: وتأسست حوالي سنة 1000 ق.م. وقد ترك أحد ملوكها كتابة تنص على اتحاد ملوك الآراميين ضده وعلى رأسهم ملك دمشق ابن حدد الثالث، ولكن الإله بعل أنقذه منهم ونصره عليهم.

3– مملكة دمشق: ومن أشهر ملوكها رصين الذي استطاع توحيد جهود الممالك آرامية للوقوف في وجه توسع العبرانيين في زمن سليمان بن داوود. كما استطاع الملك بار حدد أن يضغط في مطلع القرن التاسع على المملكة الإسرائيلية والمملكة اليهودية

ويتلقى منهما الجزية والهدايا، وقد استمر الصراع بين الآراميين والعبرانيين مدة طويلة.

وبالنسبة للتنظيم السياسي فقد قامت ممالك المدن الآرامية على الأسس نفسها التي قامت عليها ممالك المدن الآمورية، فقد كانت كل مملكة آرامية تتألف من مدينة هي العاصمة مع المناطق المجاورة ولها ملكها وأسرتها الحاكمة. ولم تعرف الممالك الآرامية الوحدة السياسية الدائمة، بل تتحد بعض الممالك مع بعضها عند وقوع خطر خارجي، وتوحد جهودها العسكرية للدفاع المشترك ضد الآشوريين أو العبرانيين مثلاً، بينما تبقى كل مملكة مستقلة بأمورها الداخلية. وجدير بالملاحظة أنه في أغلب الأحيان كانت مملكة دمشق تترأس تحالف الممالك الآرامية، وهذا دليل على قوتها واحتلالها مكانة الصدارة بين الممالك الأخرى.

أما الدين، فإن سورية كانت منطقة التقاء لكثير من العقائد الدينية في البلدان المجاورة، لذلك استمدت الديانة الآرامية أصولها من المعتقدات الكنعانية وتأثرت فيما بعد بمؤثرات ميتانية وحثية وفينيقية وغيرها. وقد عبد الآراميون الإله حدد (خاصة في دمشق) وهو إله الصواعق والبرق والرعد والمطر والخصب، وسمّوه أيضاً ريمون، وأصبح يدعى في العهد الروماني جوبيتر الدمشقي، وأقيمت له المعابد وصنعت التماثيل (كنيسة حنانيا بدمشق كانت بالأساس معبداً للإله حدد). كذلك عبد الآراميون قرينة حدد الإلهة أتارغاتيس التي انتقلت عبادتها فيما بعد إلى اليونانيين والرومان وتعادل عندهم أفروديت وفينوس، ويسمونها الإلهة السورية، وقد أطلق عليها في بعض المناطق اسم عشتروت أو عشتار. كما عبد الآراميون بعض الآلهة الأخرى مثل ايل وشمس وبعل وغيرهم، و هذه الإلهة معظمها مستوردة من الشعوب المجاورة [73].

وفيما يتعلق باللغة والتجارة، لم يكن للآراميين أثر كبير في مجال السياسة أو الفن أو الدين، وكان لهم أثر عظيم في مجال اللغة والثقافة والتجارة، فلقد أخذ الآراميون فكرة تقسيم اللفظ إلى حروف عن الفينيقيين، واقتبسوا معها الحروف الهجائية الفينيقية،

ولكن الكتابة الآرامية تطورت وتغيرت تغييراً ظاهراً عن الفينيقية، وانتقلت إلى الأنباط والتدمريين والعرب والأرمن والفرس والهنود. وهكذا انتشرت اللغة الآرامية في العالم القديم انتشاراً واسعاً، ويعود ذلك لما تمتاز به من سهولة بالنسبة لباقي اللغات السامية، وللنشاط التجاري الواسع لدى الآراميين. وقد كان التجار الآراميين ينقلون لغتهم في سفنهم وقوافلهم مع البضائع أينما حلوا أو نزلوا، حتى أصبحت اللغة الآرامية طوال الألف الأولى قبل الميلاد لغة عالمية تكتب بها المراسلات الرسمية والصكوك التجارية، وتضاءلت أمامها اللغتان الفينيقية والعبرية، وأخذ ملوك آشور يستخدمون الكتّاب الآراميين في دواوينهم وأعمالهم. ومن فروع اللغة الآرامية اللغة السريانية التي ظلت مدة طويلة لغة العلم والفلسفة، وترجم عنها إلى العربية كثير من الكتب اليونانية في العصر العباسي الأول. وقد اكتشفت بعض الكتابات الآرامية (وتوجد نماذج منها في متحف دمشق)، وما اكتشف منها لم يكن كافياً للتعرف التام على قواعدها وكيفية النطق بألفاظها وتصريف أسمائها وأفعالها.

واشتهر الآراميون أيضاً بالتجارة حيث ساعدهم موقع مدنهم الجغرافي أن يلعبوا دور الوسيط التجاري بين مختلف المراكز الحضارية القديمة، فقد احتكر الآراميون تجارة سورية الداخلية، واستطاعوا أن يسدوا الطريق التجارية في وجه القوافل الآشورية، ولكن الآشوريون استطاعوا منذ نهاية القرن العاشر أن يحدوا من سلطان الآراميين على التجارة، وأن يعكروا ازدهار النشاط التجاري بغاراتهم المستمرة على سورية[(74)].

ثالثاً– الكنعانيون:

الكنعانيون قوم من العرب نزحوا إلى فلسطين من شبه الجزيرة العربية إثر الجفاف الذي حل بها، وذلك في نحو 2500ق.م. وهم أقدم الشعوب السامية التي سكنت فلسطين، ومنهم أخذت فلسطين اسمها فصارت تعرف باسم أرض كنعان، وقد اختيرت مدينة نابلس عاصمة بلاد كنعان لموقعها المتوسط من فلسطين.

فهم من الشعوب السامية الذين هاجروا حوالي سنة 2500 قبل الميلاد من الجزيرة العربية واستقر قسم منهم في جنوب سورية. وقد أطلق اليونانيون على الكنعانيين الذين استقروا في المنطقة الساحلية المذكورة اسم الفينيقيين (مشتق من كلمة فينكس وتعني أحمر أرجواني لأن الفينيقيين اشتهروا بتجارة الأقمشة المصبوغة بهذا اللون). ولما اعتاد المؤرخون على استعمال التسمية اليونانية فإننا نستعملها نحن أيضاً، رغم أنه من الأصح استعمال الكنعانيين بدلاً من الفينيقيين لأن هؤلاء لم يعرفوا أنفسهم إلا باسم الكنعانيين(75).

سكن الكنعانيون فلسطين قبل ميلاد المسيح نحو 2,500 عام، وقبل دخول العبرانيين إليها حوالي 1189ق.م. وفي التوراة نصوص تدل على أن فلسطين كانت آهلة بالكنعانيين عندما دخلها اليهود. وقد بنى اليبوسيون، وهم بطن من الكنعانيين أسلاف العرب الساميين مدينة القدس وسموها أور ـ سالم؛ أي مدينة السلام.

وبقيت سيادة الكنعانيين في فلسطين بين حوالي 2500-1000ق.م، وفي أثناء هذه السيادة، هاجر إبراهيم الخليل من العراق إلى الشام واستقر في شكيم (نابلس) ثم انتقل إلى بئر السبع في أقصى جنوب فلسطين حيث ولد له إسماعيل، ثم نزح إلى مكة وعاد منها إلى فلسطين حيث رزق بولده الثاني إسحاق، وهو والد يعقوب الملقب بإسرائيل، والذي هاجر هو وبنوه إلى مصر بدعوة من ابنه يوسف، الذي أصبح أميناً على خزائنها وكان ذلك في عام 1656ق.م(76).

وفي الألف الثالثة قبل الميلاد كانت منطقة جنوب سورية تشكل وحدة بشرية ثقافية تاريخية بالرغم من عدم وجود دولة سياسية متحدة، لقد كان السكان الأوائل في سورية الجنوبية (فلسطين والأردن حالياً) من الكنعانيين الساميين الذين أتوا من الجزيرة العربية. وعاش الكنعانيون في أول الأمر معيشة بدوية ثم تحضروا تدريجياً وأسسوا المدن الكثيرة. وهكذا لم ينجح الكنعانيون في تأسيس دولة موحدة، بل كانت كل جماعة أو

قبيلة تؤسس مدينة مستقلة لها في موقع منيع يسهل الدفاع عنه بالقرب من مجاري المياه، وتختار ملكاً لها من بين أشراف القبيلة أو المدينة كبار ملاكي الأراضي.

وأهم الممالك الكنعانية في جنوب سورية هي: مملكة مجدو، مملكة جيزر، مملكة أورشليم، مملكة بيت شان، مملكة ايريخون، مملكة حبرون، مملكة بيت شمس، وفي شرقي نهر الأردن قامت مملكة مؤاب، مملكة عمون، مملكة مدين، مملكة أدوم.

إن انقسام بلاد كنعان إلى ممالك مدن صغيرة تتصارع فيما بينها جعلها عرضة للاحتلال من قبل المصريين والآشوريين والفلسطينيين والعبرانيين، فلقد قام المصريون بعدة حملات على جنوب سورية وأخضعوها للنفوذ المصري في عهد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، ومنذ القرن الرابع عشر أصبحت الوثائق المصرية تسمي جنوب سورية باسم با – كنان، وفيما بعد أصبحت المنطقة تسمى باسم بلاد كنعان حسب التوراة والوثائق المصرية أيضاً (77).

– الممالك الفينيقية:

كانت بلاد كنعان تتألف من دويلات كما بينا في شكل مدن صغيرة محصّنة لصد هجوم القبائل الغازية، وكانت هذه المدن في نزاع مستمر فيما بينها، وقد سمى اليونانيون مجموعة المدن الساحلية التي كانوا على اتصال بها باسم فينيقيا، ولا يُعرف تحديداً أصل كلمة فينيقيا؛ ويبدو أنها قد تطورت من كلمة كنعان، التي تعني بلاد الأرجوان وهو الاسم الذي أُطلق في البدء على بلاد سوريا وفلسطين. فكانت كنعان مصدراً مهماً للأرجوان الأحمر، ويعتقد بعض الناس أن الإغريق ربما استخدموا لفظة فوينيك التي تعني الأرجوان الأحمر إشارة إلى المجموعة التي كانت تُتاجر معهم في هذا الأرجوان لكن هناك من لا يقبل هذا التأويل، وفي النهاية أصبحت لفظة فينيقيا، اسماً للشريط الساحلي لبلاد كنعان.

وقد أقامت المدن الكنعانية علاقات وارتباطات، وتمكنت مصر من بسط نفوذها

على دويلات كنعان في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد وعقدت معها اتفاقيـــات لحمايتها من غارات البدو[78].

و أهم هذه الممالك الفينيقية:

1- مملكة أوغاريت: في النصف الأول من الألف الثانية قبل المـــيلاد ازدهـــرت مدينة أوغاريت (رأس شمرة) التي تقع على ساحل البحر المتوسط شمال اللاذقية في نهايـــة سهل خصب غير كبير[79].

2- مملكة جبيل: أما مدينة جبيل (باليونانية بيبلوس)، التي تقع على خليج صـــغير عند مصب نهر إبراهيم (أدونيس) على بعد 45 كم شمالي بيروت، فقد تأثرت بالحضارة المصرية بصورة أكثر، حتى إنها خضعت أحياناً للنفوذ السياسي المصري خلال الألـــف الثانية قبل الميلاد.

3- مملكتا صيدا وصور: وكانتا في النصف الثاني من الألف الثانية قبـــل المـــيلاد تحتلان مكان الصدراة، فلقد استغلت المدينتان الصراع الدائر بين المصـــريين والحثـــيين لتدعم كل منهما استقلالها، كما أنهما ورثتا عن أوغاريت (التي تـــدمرت علـــى يـــد الحثيين) الطرق التجارية المؤدية إلى حوض بحر إيجة [80].

وسياسياً واجتماعياً، عاش الفينيقيون مثل الإغريق في عدد من الدول ـــ المـــدن، و لم توحَّد تلك المدن في قطر واحد، وكانت أرستقراطيات يحكمها ملوك، وبدءاً مـــن القرن التاسع ق.م ظهرت مجالس الحكماء لتحكم إلى جانب الملك، وكان بعض هـــذه المجالس أكثر نفوذاً من الملوك، وفي وقت لاحق أصبحت مُعظم هذه المـــدن تحكمهـــا حكومة مدنية تُسمى الشوفيت، وقد هبط مُعظم سكان الجبال الفينيقـــيين إلى البحـــر حيث بُنيت معظم المدن القديمة على جزر مثل صور وأرواد، أو احتلوا مواقـــع مـــوانئ صغيرة على الساحل على منحدرات التلال، ومن أهم تلك المدن الساحلية، من الشمال إلى الجنوب: أرواد وجبيل وبيرتوس (بيروت الحالية) وصيدا وصور وعكـــا، والمدينـــة

الوحيدة التي احتفظت بأهميتها حتى وقتنا الحالي هي بيروت عاصمة لبنان وأهم ميناء فيه[81].

كانت الزراعة العمل الرئيسي لسكان جنوب سورية من الكنعانيين الذين استقروا في السهول الداخلية والساحلية وحول الأنهار ومنابع المياه، وكذلك ظلت بعض القبائل الكنعانية تعيش على الرعي بصورة رئيسية وتنتشر في الجبال والهضاب. وقد عثر أثناء التنقيبات في أطلال مدينة مجدو على بقايا بعض الحيوانات كالأغنام والماعز والأبقار والحمير والكلاب، وعلى بقايا بعض المحاصيل الزراعية كالشعير والقمح. واشتهرت منطقة جنوب سوريا أيضاً بزراعة أشجار الزيتون والكرمة والرمان، وتتحدث الوثائق المصرية عن استيراد الزيوت والخمور من بلاد كنعان، كما عثر المنقبون على معاصر حجرية لعصر الزيت والعنب، بالإضافة إلى المعارف الحجرية والمحاريث البدائية ومناجل الحصاد ذات الأسنان الحجرية.

إن السهل الفينيقي الضيق، الذي تقوم من ورائه سلسلة جبلية تكاد تفصله عن داخل سورية، لم يكن كافياً للقيام بحاجة السكان من الإنتاج الزراعي، وخاصة الحبوب التي استوردوها من البلدان المجاورة. وقد كان ضيق المنطقة وفقرها، وتكاثف الساكن وكثرة المدن، وموقع الساحل الفينيقي الاستراتيجي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكثرة الأخشاب الصالحة لبناء السفن ... كل هذا كان من العوامل التي دفعت الفينيقيين أن يتوجهوا بأنظارهم نحو البحر ويمارسوا التجارة البحرية. وهكذا كانوا من أول الرواد والمستعمرين في العالم القديم، الذين أنشأوا إمبراطورية بحرية تجارية تصل الشرايين البحرية ما بين مستعمراتها التجارية. وقد اتجه الفينيقيون أول الأمر إلى قبرص وأتوا منها بالمنتوجات الزراعية والنحاس، ثم اتجهوا نحو مصر وأسسوا فيها المستودعات والمحطات التجارية، وتحولوا شمالاً نحو رودوس وكريت وعالم البحر الأسود وإيجة، وعادوا من هناك بالأسماك المملحة والذهب والفضة والرصاص والقصدير، ثم

انطلقوا إلى نقاط أبعد في البحر المتوسط، فوصلوا إلى صقلية ومالطة، وعبروا مضيق الزقاق (مضيق جبل طارق) إلى بحر الظلمات حتى وصلوا بروتونية في فرنسا، وانطلقوا منها إلى سواحل إنكلترا الجنوبية الغنية بالقصدير، فسمّوا تلك البلاد بريطانيا (بلاد القصدير). وهكذا ترك الفينيقيون آثاراً لهم في مختلف الأصقاع واكتسبوا خبرة وشهرة كبيرتين في أمور الملاحة. وتذكر المصادر أن الملاحيين الفينيقيين طافوا حول أفريقيا بتكليف من أحد فراعنة مصر (نيخاو)، كما صنع الفينيقيون أساطيل تجارية للملوك الآشوريين وللملك سليمان، واقتبس اليونانيون صناعة السفن عنهم، وهكذا كان الفينيقيون وسطاء في نشر الحضارات على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، إذ كانت سفنهم تحمل مع البضائع الأفكار والآلهة والصنائع، وتصل ما بين الحضارات في بلاد النهرين ومصر وآسيا الصغرى واليمن واليونان(82).

في الألف الأولى قبل الميلاد انتشرت المستعمرات التجارية الفينيقية ببقاع متعددة في حوض البحر المتوسط. وقد أسس الفينيقيون عدة مدن في صقلية وسردينيا ومالطة وجزر البليار وعلى سواحل فرنسا وإسبانيا وشمال أفريقيا. غير أن أهم مستعمرة تجارية لهم كانت مدينة قرطاجة (قرب تونس الحالية، وكان اسمها الفينيقي قارط هادشت أي المدينة الحديثة) التي أصبحت مركزا لدولة تبز البلد الأم فينيقية. وقد استطاعت قرطاجة أن تضم تحت سيطرتها القسم الأكبر من الحوض الغربي للبحر المتوسط، وظلت تتصارع مع الإمبراطورية الرومانية زمناً طويلاً، وحصلت بينهما الحروب المعروفة في التاريخ باسم الحروب البونية (مشتقة من بونكس أو فينكس والمقصود فيها الحروب مع الفينيقيين القرطاجيين) التي غزا فيها القائد القرطاجي هانيبال إيطاليا واقترب من روما وقيل إنه غرز رمحه في سورها. ولكن الرومانيين استطاعوا في نهاية هذه الحروب الاستيلاء على قرطاجة عام 146 ق.م فهدموها وخربوها.

وتجدر الملاحظة إلى أنه رغم ادعاء الملوك الفينيقيين بالسلطة على مستعمراتهم،

فقد كانت سيطرتهم بالواقع اسمية فقط على تلك المستعمرات، باستثناء بعض الحالات النادرة، أما بصورة عامة فقد كانت مستعمرات المدن الفينيقية مستقلة عن المدينة الأم، واقتصر الأمر على إقامة علاقات طيبة معها وتقديم بعض الضرائب أو الهدايا لمعبد الإله ملكارت في صور(83).

أما الصناعة فقد كانت متطورة في جنوب سورية، إذ يرجح بعض العلماء أن معرفة النحاس والخزف قد انتشرت من سورية إلى البلدان المجاورة كمصر وبلاد النهرين، وقد عُثر أثناء التنقيبات في عدة أماكن على فؤوس وسكاكين نحاسية وبرونزية، بالإضافة إلى الطوب المشوي بالشمس والأدوات المنزلية الخزفية وبعض أدوات الزينة من المعادن والعاج وبقايا الأنسجة الكتانية والصوفية. أما الحديد فلم ينتشر استعماله إلا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، إذ جلبته معها شعوب البحر (الفلسطينيون) التي جاءت إلى المنطقة من حوض بحر إيجة. وقد ساعد موقع جنوب سورية على الطرق المؤدية إلى مصر وبلاد النهرين وسورية الشمالية والبحر المتوسط على نشاط وتطور التجارة الخارجية (84).

واشتهر الفينيقيون خاصة بصنع الصباغ الأرجواني الأحمر، وقد استخرجوا هذا الصباغ من المحار، وأحاطوا سر صنعه بأسطورة هي: أن إله صور ملكارت كان يتنزه مع حبيبته قرب الشاطئ ومعه كلبه، فرأت الحبيبة لسان الكلب مصطبغا باللون الأرجواني، فطلبت من الإله ثوباً بذلك اللون، فأوجد سر صنعه وعلمه للفينيقيين ولصور فقط، وجربت البلاد المختلفة تقليد صور فلم تفلح. وقد استخدم الصباغ الأرجواني في صبغ الأقشمة الصوفية والكتانية فاكتسبت شهرة كبيرة، حيث يعطيها ذلك تموجات جميلة ولا يتغير لونها عند الغسل. كذلك اشتهر الفينيقيون بصناعة الزجاج، ولاقت مصنوعاتهم الزجاجية رواجاً كبيراً في مختلف البلدان، حتى كتب المؤرخون الكلاسيكيون (اليونانيون والرومانيون) إن اكتشاف صنع الزجاج كان على

يد الفينيقيين، ولكنهم بالواقع يدينون بذلك إلى معلميهم المصريين والبابليين، غير أن صناعة الزجاج في فينيقية بلغت أكثر دقة وإتقاناً مما كانت عليه في وادي النيل وبلاد النهرين، و لم تصنع الأواني الزجاجية للحاجات الضرورية فقط، وإنما للزينة أيضاً، لذلك زينت بالألوان والرسوم المحفورة أو النافرة. كما كان الفينيقيون أحيانا يقلدون الحجارة الكريمة ويصنعون منها الكؤوس والعقود والمرايا. وقد دلت التنقيبات الأثرية أيضاً على انتشار صناعة الأواني الخزفية المزخرفة في مختلف المدن الفينيقية. كما برع الفينيقيون بتزيين الجدران بقطع الزجاج الملونة أي ما يسمى بالفسيفساء، وقد اكتشفت نماذج منها في قبر الملك احيرام قرب صور وتظهر على جدرانه صور الأسماك والطيور والثمار. كذلك ساعد وجود الأخشاب الكثيرة على صناعة السفن في موانئ صيدا وصور وجبيل[85].

فاشتهرت مدينة صيدا بصبغة الأرجوان وبتطوير نوع من الزجاج. كذلك عرفت صور تصنيع صبغة الأرجوان واشتهرت بالروائح الكريهة التي تُسببها أعمال الصباغة.

تعلم الفينيقيون معظم طرق التصنيع من المصريين، فعرفوا السبك (الصب) والطرق وحفر المعادن، كالذهب والفضة، ونحتوا عدة أشياء من العاج منها قطع الأثاث، ومنذ أقدم العصور عرف الفينيقيون نسج الملابس من الصوف والكتان. وكان الحرفيون يصبغون الأقمشة، وكثيراً ما يخيطونها ثياباً قبل بيعها، وفي وقت لاحق استعار الإغريق الكيتون وهو ثوب فينيقي يشبه القميص[86].

وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد أُصيبت حضارة الممالك الكنعانية في جنوب سورية بتخلف وانحطاط بسبب احتلال المصريين للمنطقة، ومن ثم احتلال شعوب نهر (الفلسطينيون) القسم الساحلي منها واحتلال العبرانيين القسم الداخلي أيضاً، و زالت السلطة السياسية من أيدي الكنعانيين وانتقلت إلى أيدي المحتلين الجدد، ولكن الكنعانيين ظلوا يشكلون عنصراً أساسياً في التركيب البشري في المنطقة [87].

– **الديانة:** كان لدى الفينيقيين عدة معبودات، أطلقوا عليها اسم بعل (للسيد) و بعلت (للسيدة). وقد عبد كل الفينيقيين المعبودات الرئيسية نفسها، رغم أن المعبودين قد عُرفوا بأسماء مختلفة في مدن مختلفة، فالمعبود ملقارت معبود صور يمكن أن يكون بعل صور، وقد مارس الفينيقيون تقديم القرابين تماماً كما فعلت الشعوب السامية الأخرى، إلا أنهم قدموا قرابين بشرية في فينيقيا ومستعمراتهم الأخرى، الشيء الذي أكسبهم شهرة في القسوة.

وكانت قصة عشتروت ومحبوبها أدونيس معروفة في فينيقيا، ثم وجدت طريقها إلى اليونان حيث أصبحت عشتروت هي المعبودة الإغريقية أفروديت، وعرفها الرومان لاحقاً بفينوس. وقد عرفت قصة موت أدونيس المأساوية، بأنياب خنزير بري، وانتحاب محبوبته عليه، من الأدب الإغريقي، إلى اللاتيني، ثم الإنجليزي عبر قصة فينوس وأدونيس[88].

كان أكبر الآلهة عند الكنعانيين الفينيقين وأعلاها مقاماً أيل. كما عبدو الآلهة عشتاروت التي عدوها آلهة الخصب، وعبد سكان مدينة بيبلوس الإله أدونيس الذي اعتبروه إله الخصب[89].

وكانت آلهة الفينيقيين أرضية تسكن في السهول والجبال والأنهار والأشجار، ثم أصبح لبعضها صفات سماوية أو بحرية إلى جانب صفاتها الأرضية، وهي أيضاً آلهة محلية، فلكل مدينة إله خاص، ويطلق على كل إله اسم بعل أي سيد أو ملك المدينة، فالإله ملكات (ملك – كارت) مثلا ملك المدينة (في صور). وهكذا لم يكن للآلهة الفينيقية أسماء معينة بل تأخذ أسماءها عن أسماء المدن التي تعبد فيها. وعبد الفينيقيون أيضا الآلهة المؤنثة والآلهة تسمى بعلت، وبعلت جبيل هي عشتارت، وتقابل عشتار البابلية.

ومارس الفينيقيون الطقوس الدينية داخل المعابد أو خارجها، وصنعت للآلهة تماثيل توضع في زوايا المعابد. وكان الفينيقيون يقدمون الضحايا البشرية للآلهة. وتضم المعابد

إلى جانب الكهنة والكاهنات عدداً من العاهرات المقدسات، كما كانت المرأة تضحي بعذريتها في معبد عشتارت إذا أرادت أن تكسب رضا الآلهة. ومن أشهر الأساطير الدينية الأوغاريتية ملحمة تتحدث أن إله الموت (موت) يقتل إله النبات (عليان بعل)، ولكن صديقته الآلهة (عناة) تنتقم له فيبعث حيا الإله الصغير عليان بعل (على غرار أوزيريس في مصر وتموز في بلاد النهرين). وهناك أيضاً بعض القصائد الدينية حول مآثر الأبطال، كصراع سيد الأرض مع سيد البحر التي ترمز إلى هجوم البحر على البر ثم تراجعه عنه، أو هجوم شعوب البحر على الساحل الفينيقي(90).

– حضارة الكنعانيين:

تدل الآثار القديمة على أن الكنعانيين كانت لهم حضارة متقدمة تعد من أقدم الحضارات في التاريخ؛ فقد اكتشفوا النحاس ومزجوه بالقصدير لإنتاج البرونز الذي كان شائعاً منذ نحو 2500ق.م. كما تفنن الكنعانيون في وسائل ري الأراضي الزراعية. وكانت كروم العنب والتين من أهم مزروعاتهم. وكان من أهم صناعاتهم تطعيم العاج وصنع العربات والسيوف، والتماثيل التي صنعوها من خشب الأبنوس، كما تفوقوا في صناعة الزجاج والنسيج والصوف والقطن، وفي صناعة الأصباغ. كما اشتهر الكنعانيون الفينيقون الذين سكنوا السواحل بصناعة السفن مستفيدين من أخشاب الأشجار التي كانت متوفرة في غابات لبنان.

واختراع الألفباء كان من أهم السمات الحضارية للكنعانيين، فقد قام الفينيقيون، باختراع الألفباء الهجائية ونقلوها إلى أوروبا فكان ذلك بداية تغلب الحروف الألفبائية على الخط المسماري(91).

أ– الكتابة: إن أهم ما قدمه الفينيقيون للحضارة الإنسانية هو اختراع الحروف الأبجدية، وقد اكتشفت أبجدية في أوغاريت تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وتتألف من ثلاثين حرفاً. ثم اكتشفت أبجدية أخرى في جبيل أحدث من أبجدية

أوغاريت بقرن تقريباً وتتألف من اثنين وعشرين حرفاً ساكناً تكتب من اليمين إلى اليسار. وقد نقل اليونانيون هذه الأبجدية في القرن التاسع قبل الميلاد وأدخلوا عليها بعض التعديلات، فكتبوها من الشمال إلى اليمين، كما ظلت بعض الأحرف اليونانية تحمل الاسم الفينيقي السابق (ألفا) وكانت بالفينيقية (ألف) وتعني الثور، وحرف (بيتا) وكانت بالفينيقية (بيت) وتعني المترل. وفيما بعد انتقلت تلك الأبجدية من اليونانيين إلى الرومان وسائر شعوب العالم الغربي. وكذلك نقل الآراميون أبجديتهم عن الفينيقيين، وأخذها عنهم الأنباط والتدمريون والعرب والهنود والأرمن وغيرهم من شعوب الشرق.

إن الكتابات الفينيقية التي وصلتنا قليلة، حيث كانوا يكتبون على ورق البردي القابل للتلف، ولولا الرقم التي اكتشفت في أوغاريت لما أمكننا الاطلاع على بعض الأساطير الفينيقية. وقد اقتبس العبرانيون في كتاباتهم الدينية (خاصة في سفر التكوين وقصص الأنبياء وأسفار الأمثال والمزامير ونشيد الأنشاد) الكثير عن الفينيقيين إذ تؤكد الكتابات الأوغاريتية ذلك.

ب – الفنون: ازدهر فن التصوير عند الفينيقيين إلى درجة جيدة، حيث اقتبسوا بعض المواضيع والأساليب عن الفنانين المصريين والبابليين والحثيين، فيما بعد عن اليونانيين وأنشأوا من ذلك الأساس فناً جديداً بمواضيعه وأساليبه. كذلك تدل آثار المعابد والقصور المكتشفة على تقدم فن البناء عند الفينيقيين، وتذكر المصادر أن الملك الفينيقي احيرام أرسل المهندسين المعماريين إلى الملك سليمان ليساعدوه ببناء قصره وهيكله في أورشليم(92).

ج – انتشار التأثيرات الفينيقية: نالت المدن الفينيقية استقلالها في القرن الثاني عشر الميلادي، و بقيت مدة مئتين وخمسين عاماً بعدها بقيت على قمة السلطة والثراء. وكانت هناك مستوطنات فينيقية في قبرص من قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وبعد ذلك التاريخ وصل البحارة الفينيقيوّن إلى كل سواحل البحر الأبيض المتوسط وسيطروا

على تجارته، ثم أنشؤوا مستعمرات على امتداد الساحل الجنوبي لإسبانيا والساحل الشمالي لإفريقيا والساحل الغربي لصقلية. وربما يمكن القول أن غرب البحر الأبيض المتوسط أصبح بحيرة فينيقية في تلك الحقبة التي سبقت مجيء الإغريق .

أثّر الفينيقيون في الحضارة الغربية عبر مستعمرتهم قرطاج التي تُعد كبرى المستعمرات الفينيقية في الغرب، أنشأ هذه المستعمرة جماعة من مدينة صور نحو 750ق.م وكانت الملكة ديدو من بين الشخصيات الأسطورية التي أنشأت المدينة. كانت هذه المستعمرات، بما فيها قرطاج، تُشابه المدن الفينيقية، وكان يعيش فيها عدد من الحرفيين والعمال والتجار والبحارة.

أعطى التحكم على جانبي مضيق جبل طارق الفينيقيين مدخلاً إلى المحيط الأطلسي، وتمكنوا من التحكم في تجارة سواحل إفريقيا الشمالية وغرب أوروبا. ويذهب بعض الباحثين إلى أن الفينيقيين ربما يكونون قد وصلوا إلى كورنوول في جنوب غربي بريطانيا، واشتغلوا بالتعدين في مناجم القصدير هناك.

وأبحر الفينيقيون حول إفريقيا في القرن السابع قبل الميلاد، أي ألفي عام قبل البرتغاليين الذين لم يتحقق لهم ذلك الإنجاز إلا في عام 1497م، ويحكي هيرودوت المؤرخ الإغريقي هذه القصة في المجلد الرابع من كتابه التاريخ[93].



القسم الثاني

الحضارات الأجنبية القديمة





الفصل الأول

حضارة فارس

أولاً – التاريخ السياسي لبلاد فارس:

في أزمن ما قبل التأريخ ترك فرع من الأسرة الهندية – الأوربية موطنهم الأصلي في أراضي السهوب شمالي قزوين وهاجر في الاتجاه الجنوبي الشرقي، ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر إلى البنجاب بينما استقر البعض الآخر في شرقي الهضبة الإيرانية العظيمة. وفي بواكير السنوات الألف الثانية، توجهت هذه القبائل الإيرانية سمت نفسها آرية (ومن هذه التسمية اشتق الإسمان المحليان آريا وإيران) صوب الغرب إلى المرتفعات التي تحف سهول ما بين النهرين وكلديا. وبعد ذلك بألف سنة، نجد الميديين إلى الجنوب من بحر قزوين والبرتيين في خراسان والبكتريين في منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس في الجبال التي تشرف على الخليج الفارسي إلى الشمال الشرقي. وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزاً من جهة الهند. ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابي عهد به ولكن استخدمه الأشوريون كعدة حرب [94].

وكانت أولى الحضارات في فارس تلك التي أقامها العيلاميون الذين ربما استوطنوا البلاد منذ نحو عام 3000ق.م. وقد بدأت قبائل الميديين والفرس تنتقل داخل فارس في القرن العاشر قبل الميلاد، وأنشأ الميديون أول دولة لهم في الهضبة الفارسية في القرن الثامن قبل الميلاد ووصلوا ذروة قوتهم في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، ثم تمكن الفرس بقيادة قورش الكبير من الإطاحة بالميديين في نحو عام 550ق.م.

ثم وسع قورش الإمبراطورية الميدية باحتلاله مملكة ليديا نحو 545ق م، ثم ضم تدريجياً المستعمرات اليونانية في إيونيا غربي آسيا الصغرى، وسماها الإمبراطورية الأخمينية

على اسم سلفه أخمينيوس، وقد تمكن قورش من هزيمة بابل في 539 ق.م، وحرر اليهود الذين سباهم نبوخذنصر وكانوا في الأسر هناك، كما أنشأ إمبراطورية امتدت من البحر الأبيض المتوسط وغربي آسيا الصغرى إلى أعالي نهر السند، وهو ما يُعرف اليوم بشمالي الباكستان، ومن خليج عمان إلى بحر الآرال.

استطاع قمبيز، ابن قورش، هزيمة مصر نحو عام 525ق.م، لكنه توفي في طريقه وهو عائد إلى فارس، وقد أعقبت ذلك حرب أهلية بسبب التراع حول الحكم، وتمكّن داريوس الأول، أحد أقرباء قمبيز، من أن يصبح ملكاً نحو 522ق.م.

أعاد داريوس تنظيم الحكومة بنظام المرزبانيات، وأقام السلطة المطلقة للشّاهان شاه، كما طوّر نظاماً مُحكماً للضرائب، كذلك بنى القصور في عاصمتين من عواصمه هما برسيبوليس وسوسا، ووسّع داريوس الإمبراطورية الفارسية داخل جنوب شرقي أوروبا وداخل مايسمى الآن جنوبي الباكستان.

و قام الفرس في نحو عام 513 ق.م بغزو المنطقة التي تقع غربي البحر الأسود وجنوبيه ولكنهم لم يحتلوا أراضي واسعة، وأرسل داريوس جيشاً إلى اليونان حوالي عام490ق.م، ولكن القوات الأثينية هزمته في ماراثون. ثم توفي داريوس حوالي عام 486 ق.م عندما كان يعد العدة لهجوم جديد على اليونان.

غزا أحشورش بن داريوس، اليونان نحو عام 480ق.م، وهزم قوة من الأسبرطيين وغيرهم من اليونانيين بعد معركة شرسة في الثرموبايلي، لكن الفرس واجهوا هزائم طاحنة في سلاميز وبلاتايا وأُخرجوا من أوروبا نحو عام 479ق.م.

تدهورت فارس بعد موت أحشورش، ولكن الإمبراطورية استمرت بالرغم من الانتفاضات حتى حوالي عام 331ق.م، عندما هزم الإسكندر المقدوني جيشاً فارسياً ضخماً في معركة أربيل(تُسمى أحياناً معركة جوجاميلا). وانتهت بذلك الإمبراطورية الأخمينية وأصبحت فارس جزءاً من إمبراطورية الإسكندر.

وبعد أكثر من عشر سنوات مـــن مـــوت الإســـكندر في 323 ق.م، أســـس سلوقوس، أحد قواده، أسرة لتحكم فارس والمناطق المجاورة. أنشأ السلوقيون العديد من المدن وأدخلوا الثقافة اليونانية في غربي آسيا وفي أواسطها، وتمكن الفرثيون من حكـــم فارس بدءاً من 155ق.م.

واستمرت الإمبراطورية الفرثية حتى عام 224م، وقد أسس الفرثيون إمبراطورية واسعة بامتداد شرقي آسيا الصغرى وجنوب غربي آسيا. وفي المائتي عام الأخـــيرة مـــن حكمهم، كان على الفرثيين أن يُحاربوا الرومان في الغرب وفي الكوشان، وهو مايعرف حالياً باسم أفغانستان، ومن ثم اندلعت الحروب الأهلية في الإمبراطورية الفرثية.

و قام في نحو عام 224م فارسي يُدعى أردشـــير بإطاحـــة الفـــرثيين، وتســـلم الإمبراطورية الفرثية. وبعد أكثر من 550 سنة، وفي ظل حكام آخرين، استطاع الفرس أن يحكموا فارس مرة أخرى.

أما الأسرة الساسانية، فقد سُمِّيت كذلك تكريماً لاسم ساسان؛ الجـــد الأكـــبر لأردشير. وقد حكمت الأسرة الساسانية في فارس حتى منتصف القرن السابع الميلادي. وقد استمرت الحرب بين الفرس والرومان طوال مدة حكم الساسانيين. وبعد أن اعتنق الرومان النصرانية في القرن الرابع الميلادي، بدأ الصراع يأخذ شكلاً دينياً بين النصرانية والزرادشتية.

بلغت الحضارة الساسانية أوج قمتها في منتصف القرن السادس الميلادي حيـــث حقق الفرس عدداً من الانتصارات على الرومان وأعادوا احتلال أراضٍ كانت جزءاً من الإمبراطورية الأخمينية. تقدمت القوات الفارسية حتى أبواب القسطنطينية إسطنبول، في تركيا حالياً (التي كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الرومانية الشـــرقية)، ولكنـــهم هزموا هنالك وأجبروا على الانسحاب من كل الأراضي التي احتلوها.

أدى ظهور الإسلام في جزيرة العرب، إلى نهاية ســـريعة للأســـرة الساســـانية في

منتصف القرن السابع الميلادي، حين فتح المسلمون فارس حوالي عام 15هـ، 637م، و لم تمض سنوات قلائل حتى كان الإسلام قد انتشر في سائر بلاد فارس. وكما صان الإسلام أرواح الناس بعد اعتناقهم له، فقد أبقى الحكام المسلمون على العمارة الفارسية، وفنونها، وآدابها ما لم يتعارض ذلك مع جوهر الدين[95].

ويرى بورج أن الإمبراطورية الفارسية اتخذت السمت الذي أصبح مألوفاً في تاريخ الشرق؛ الغزو فالتنظيم والاحتفاظ بالقوة فالتدهور فالسقوط، تتابع كلها في سلسلة منطقية. ويمثل قورش، المؤسس وأحد بناة الإمبراطوريات العظام، في التاريخ، مرحلة الغزو، وعند موته عام 528 ق.م، كانت ممتلكاته تمتد من ايجا في الغرب إلى هندوكوش في الشرق ومن قزوين في الشمال إلى صحراء العرب في الجنوب. ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب شاهنشاه ملك الملوك، و لم يكن توكيده هذا لدعواه في إمبراطورية عالمية، دون أساس. لقد كان قمبيز بن قورش هو الذي غزا مصر عام 525 ق.م، والمستعمرة الإغريقية في قورينا. و لم يحدث قبل ذلك بتاتاً أن مدينة النيل تألفت بمدنية الفرات في دولة واحدة. وتتركز الحقبة الثانية، حقبة التنظيم في شخص دارا بن كشتاسب521 ق.م، إن دارا هو طراز الإداري الشرقي على مدى الزمان، وكانت إمبراطوريته شاسعة الأرجاء وهي مزيج من جميع الشعوب والأمم واللغات ولا تنتظمها وحدة سلالة أو دين أو صالح مشترك، وكانت تنقسم إلى عشرين ولاية أو إقليم يحكمه نائب ملك. ولكي تكون البلاد بمأمن من خطر نشوب ثورة، وضع دارا زمام السلطتين المدنية والعسكرية في كل ولاية في أياد مختلفات. وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن في سوس مقر الحكم الرسمي، يحمل لقب «عين الملك»، هي الإشراف على الولايات. وساعد على تركيز التحكم، نهج رائع للطرق والمراكز. وكما كانت تجري عليه الأمور في الإمبراطوريات الشرقية، فإن الشعوب الخاضعة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها، بعيدة بعداً تاماً عن تدخل الحكومة المركزية. وكانت علامتا

الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتجنيد لخدمة الميدان. وكان أشراف الفرس يعيشـــون تربطهم أواصر شخصية وثيقة بالحاكم أما الفرس المقيمون في الأقاليم فكانوا يشـــكلون مع ممثلين من السكان الوطنيين مجلس الشورى للوالي. وكان يقوم بالرقابة على الـــوالي مجلسه وقائد الجيش والحكومة المركزية في آن واحد ولقد أصبح هذا النهج الذي وضعه دارا النموذج الذي تحتذيه الملكيات الشرقية التي جاءت فيما بعد.

وضم دارا أيضاً البنجاب وبلاد العرب إلى الإمبراطورية وعبر السبنطس إلى أوربا وتقبل ولاء تراقيا ومقدونيا. وفي ختام حكمه الطويل جمع جيشاً ليخضع اليونان الحرة. وعلى مثال غيرها من دول الشرق، جهدت فارس في التوسع صوب الغرب الذي لاقت منه مصيرها المحتوم.

كان خلفاء دارا طوال قرن ونصف قرن بعد ذلك معنيين على الأخص بالمحافظـــة على الإمبراطورية التي عمل دارا على لم شملها وقد أدى الوهن الذي حل بالبيت المالك والثورات المتواصلة في الأقاليم المتطرفة، وخاصة في مصر، والصراع الطويل مع اليونـــان على انحلالها على التدرج، وانتقل مركز الثقل في السياسة العالمية إلى شواطئ بحر إيجـــا. وقبيل انتصاف القرن الرابع كانت تعتمد هيبة الفرس على معاونة المرتزقـــة الإغريـــق وقادتهم. وأعقب موت آخر حاكم قدير وهو أردشير الثالث أخوس في سنة 338 ق.م مرحلة فوضى أتاحت للعدو فرصة فريدة إذ كان فيليب ملك مقدونيا قد دبر حـــرب انتقام من الغزو الفارسي لليونان، وفي عام 334 ق.م عبر ابنه الإســـكندر الســـبنطس وأقام نفسه سيداً على آسيا الصغرى. وفي عام 331 ق.م حقق أعظم انتصـــار لـــه في جوجميلا، وبعد ذلك بعام، بموت آخر خلف لدارا، انتقل اللقب والإمبراطورية جميعـــاً إلى الغازي المقدوني[96].

ثانياً- التاريخ الحضاري لبلاد فارس:

1- الإدارة:

على الرغم من أن الإمبراطورية الفارسية قامت على القوة والتوسع فإن حكامها اهتموا بوضع نظام إداري ثابت لها، فكان الملك رأس الدولة ويسمى الملك المحارب، وهذا يدل على الصبغة العسكرية للإمبراطورية، ويصل الملك إلى العرش عن طريق الوراثة، وفي بعض الأحيان بالقوة، ومن حقه اختيار خليفة له من بين أبنائه، وكانت سلطته مطلقة من الناحية النظرية ولكن عملياً مقيدة بتقاليد وعادات كثيرة، وبقوة الأشراف والأعيان الذين كانوا يؤلفون مجلساً استشارياً للملك(97).

كانت الإمبراطورية الفارسية مقسمة إلى ولايات واحداها ساترابه أو مرزبة Satrapien) تدار كل منها من قبل ستراب Satrap أي حاكم مرزبان، مسؤول عن الشؤون المدنية، ومن قائد عسكري مسؤول عن الشؤون العسكرية.

وكان عدد الولايات يتفاوت خلال حكم داريوس الأول ما بين العشرين والاثنتين وعشرين ولاية عدا ولاية فارس التي كانت تشكل ولاية مستقلة كونها موطن الأسرة الحاكمة. وفُرض على كل ولاية أن تقدم مقداراً معيناً من الضرائب إلى الملك سنوياً باستثناء ولاية فارس التي أُعفيت منها.

كان تحت تصرف الملك موظفون خصوصيون يدعون (عيون الملك وآذانه) وتوكل إليهم مهمات مراقبة تنفيذ القوانين والأوامر الملكية في الولايات.

وكان القانون في الإمبراطورية الفارسية مستمداً من الإرادة الإلهية ويجوز الخروج عليه لأن ذلك يعد خروجاً على إرادة الآلهة.

وبالنسبة للقضاء عُدّ الملك القاضي الأعلى ولكنه كان ينيب عنه في تسيير الأمور القضائية أحد العلماء الشيوخ، وكانت هناك محكمة عليا مؤلفة من سبعة قضاة، أما في الولايات فتألفت محاكم محلية للنظر في القضايا المعروضة(98).

2- الاقتصاد:

أظهر الفرس في الفن وفي العمارة، القليل من الابتكار وكانوا ينقلون عن النماذج

البابلية، أما الجندية والزراعة والفلاحة فكانت أعمالهم التقليدية [99].

واهتم ملوك الفرس بالحياة الاقتصادية فأمروا ببناء منشآت مائية ضخمة وشجعوا على زراعة كثير من المحاصيل والأشجار المثمرة.

فكان الفرس الأوائل مزارعين يربون الحيوانات ويزرعون الحبوب، وقد كانت الصحارى تغطي معظم المناطق المرتفعة، وقد طور الفلاحون وسائل الري لزراعة القمح والشعير والشوفان والخضراوات، واستخدموا القنوات المحفورة تحت الأرض لتجنب التبخر الذي تسببه الشمس الحارقة، كما جلبوا المياه من الجبال من بُعد أكثر من 160كم إلى الأودية والسهول. وكان بمرتفعات فارس، حتى حين فتحها الإسكندر المقدوني، عدد قليل من المدن الكبيرة.

والزراعة من وجهة نظر الكتب الفارسية الدينية أفضل عمل يزاوله الإنسان، وكانت هناك أملاك خاصة يقوم أصحابها بزراعتها، وأملاك إقطاعية تخص النبلاء والأشراف ويقوم بزراعتها المستأجرون أو الأرقاء الأجانب. وكان القمح والشعير أهم المحاصيل الزراعية، أما زراعة الرز فقد أخذها الفرس عن الهنود بعد احتلالهم أجزاء من الهند.

ولم يهتم الفرس بالصناعة كاهتمامهم بالزراعة، وتركوا ذلك للشعوب والأمم الأخرى التي حكموها. أما التجارة فقد ازدهرت بسبب استتباب الأمن في مختلف أرجاء الإمبراطورية، واهتمام الملوك، وبخاصة داريوس الأول، بفتح الطرقات وتعبيدها لأهداف حربية واقتصادية، وقد سهّلت هذه الطرق عملية المبادلات التجارية بين أرجاء الإمبراطورية المختلفة. و كانت الشعوب الخاضعة للفرس كالبابليين والفينيقيين والآراميين هي التي تمارس التجارة غالباً لأن الفرس كانوا يحتقرون التجارة ويرون في الأسواق بؤرة للخداع والكذب. ومن الإجراءات التي سهّلت عملية التبادل التجاري في الإمبراطورية الفارسية قيام داريوس الأول بسك عملة من الذهب والفضة سميت

الداريق، وربما اقتبس داريوس النقود عن المدن الأيونية على الساحل الغربي لآسية الصغرى[100].

ونشأت حول القصور الملكية في برسبوليس Presepolis وسوزة Susa وأقباتان Ekbatan همذان حالياً مدن ازدهرت فيها روابط الحرفيين واتسعت التجارة معتمدة على هيئة مصرفية تستخدم ما يشبه الشيكات. وولدت التجارة والرحلات حب المغامرة، فأبحر مكتشفون فرس من نهر السند حتى مصر، وغامر المدعو ساتاسبيس Sataspes نحو عام 500 ق.م عبر المتوسط ووصل حتى غرب إفريقية[101].

ويلاحظ أن الحرف قد تطورت بعد إنشاء المدن، وأصبحت صناعة الخزف والنسيج وأعمال التعدين في النحاس والحديد والذهب والفضة مهمّة، وأصبحت الأواني الخزفية والمعدنية أكثر أهمية من الأسلحة وأدوات الحرب والزراعة، وقام الخزافون والنساجون بصناعة الخزف والملابس والسجاد للناس.

و حملت القوافل التجارية البضائع من مختلف أنحاء العالم عبر إيران إلى البحر الأبيض المتوسط. واشتملت السلع التجارية المهمة على الأحجار الكريمة وشبه الكريمة وعلى التوابل. وقد افتتح طريق الحرير إلى أواسط آسيا والصين ربّما حوالي القرن الثاني قبل الميلاد، وقد أدت الطرق التجارية من بلاد الرافدين إلى الشرق الأقصى إلى فتح أواسط فارس كما جابت الصحراء الوسطى.

وربطت طرق أخرى الشرق بالهند والشمال بجبال القوقاز والبحر الأسود. وقد عبَّد الفُرس الطرق بين المدن المهمة في إمبراطوريتهم، وكان أكثرها شهرةً الطريق الملكي الذي كان يربط سارديس في غربي آسيا الصغرى بسوسا بالقرب من الخليج العربي. وقد استخدم الفرس هذه الطرق لإيصال البريد السريع بتناوب الخيالة.[102]

3- المعتقدات الدينية:

اعتقد قدامى الفرس بآلهة من الطبيعة، كالشمس والسماء والماء والنار وغيرها،

وكان أهم الآلهة الإيرانية (قبل ظهور الديانة الزرادشتية) مثراس Mithras إله النـور والشمس، وماه Mah إله القمر، وأنيتا Anita إلهـة الخصـب، وزام Zam إلـه الأرض.

واعتقد الناس أن لآلهتهم قدرات اجتماعية، فعلى سبيل المثال، إلههم مثـرا، إلـه الضوء عندهم، يعتقدون أنه يتحكم في العقود. و لم يكن لدى الفرس معابد وإنما كـانوا يؤدون الصلاة ويقدمون القرابين في الجبال .

واكتسبت الإمبراطورية الفارسية المزدهرة مصدراً جديداً من القوة مـع الـدين القومي الذي جاء به زرادشت زراتوسترا (Zarathustra) في القرن السادس قبـل الميلاد، ففي البداية أثار إيمان زرادشت بإله واحد غضب الكهنة الفرس الـذين كـانوا يرعون عبادة الآلهة التقليدية، ولكن فيما بعد اعتنق داريوس الأول الزرادشتية وجعلـها دين الدولة الرسمي ليدعم بها وحدة إمبراطوريته.

تقوم الزرادشتية على الإيمان بإله واحد للعالم هو أهورا مزداAhura Mazda (السيد الحكيم) إله النور والسماء والحق والعدل والخير، ويرى أنه يوجد صـراع بـين مبدئه الخيِّر ومبدأ الشيطان أهريمان Ahriman الشرير، فالعالم مسرح لصراع طويل ما بين الخير ممثلا بأهورا مزدا والشر، ممثلاً بأهريمان، ولكن سيفوز أهورا مزدا في النهاية وينتصر الخير على الشر.

وقد جمع أتباع زرادشت أقوال وأدعية معلمهم في كتاب يعد كتاب الزرادشـتية المقدس الذي سمي فيما بعد الأبستا (الأبستاق عند المؤرخين العرب).

لم تكن للديانة الزرادشتية هياكل وأصنام وإنما كانت تقام لها المذابح المقدسة على قمم الجبال وفي القصور أو في قلب المدن حيث توقد فيها النار تكريماً لأهوار مزدا إلـه الخير والنور، فكانت النار مقدسة ووجب على كل أسرة أن تبقي نارهـا متقـدة لأن انطفاءها يعني البؤس والاضمحلال للأسرة، وكانت هناك بيوت للنـار تقـام علـى

مرتفعات صخرية. [103]

وقد قام زرادشت بإدخال تعديلات في عقيدة الفرس المجوسية، و حث النّاس على التمتع بمباهج الحياة المادية وحضهم على الأخلاق الفاضلة لينصروا أهورامازدا على أهريمان، فينصرهم في صراعه الدائم معه .

نشر أتباع زرادشت، تدريجياً، هذا المعتقد في كل أنحاء فارس، و توجد تعاليم زرادشت في كتاب (غاتها الأناشيد) وهو جزء من كتاب ديني يسمى أفستا [104].

عادت عبادة الإله مثراس إله النور والشمس إلى الانتشار من جديد في القرون الأولى الميلادية، بينما كانت الديانة الزرادشتية في تراجع وانتقلت فيما بعد عبادة مثراس إلى روما [105].

ويرى بورج أن الفرس قد حملوا معهم ديناً متميزاً، يتناقض تناقضاً يسترعي البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل، وكان يختلف أيضاً – على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس إلى يومنا – عن دين الآريين ذوي قرابتهم في الهند، وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى إلى إله أعظم أوحد، فإن الدين الإيراني كان له مظاهر ثنائية. وكان الدين الإيراني يترع إلى آداب السلوك، و لم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود، أي معان مجردة تصورية، ولكنهم كانوا شخوصاً خلقيين، و لم يكن هدف الجهد الإنساني الاندماج التألهي في مطلق وحدة الوجود، ولكن سعادة أبدية في السماء حيث يحكم أهورا مزدا وما كانت الحياة الإنسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة، ولكنها المجال للعمل في همة والقيام بالواجب الخلقي. وفي اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه إلى غاية يكون فيها الخلاص الفردي وليس الخلاص القومي، فإن دين إيران كان يختلف عن دين الساميين وإن تشابه معه في تعليمه الخلقي الرفيع. [106]

4- الكتابة والآداب والعلوم:

في اللغة والأدب، تحّدث الفرس القدماء الفارسية القديمة وهـــي لغـــة هنـــدو ـــ أوروبية لها صلة باللغة السنسكريتية في الهند وباللغة الفارسية الحديثة. و استخدم الفرس لغات وكتابات متعددة في إمبراطوريتهم التي أنشؤوها، فقد كانت اللغة الآرامية اللغـــة الرسمية في الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية حيـــث دُونـــت بهـــا الوثـــائق والمراسلات الرسمية المختلفة.

وكذلك استخدموا اللهجة البابلية المتأخرة واللغة العيلامية الحديثة كما يظهر من نقش الملك داريوس الأول على صخور بهيستون.

واستخدم الإيرانيون الكتابة المسمارية لكتابة لغتهم الفارسية القديمة وذلك بعد أن بسّطوا وأنقصوا عدد رموزها إلى ستة وثلاثين رمزاً تحولت تدريجياً إلى حروف هجائية مسمارية. لكن النظام المسماري هذا، استُخدم في المخطوطات الملكية فقط، لأن عـــدداً قليلاً من الناس استطاعوا قراءته. و لما كانت الآرامية واســـعة الاســـتعمال في ســـوريا وفلسطين وبلاد الرافدين، فقد استطاع الفرس نقلها إلى الهند وآسيا الوســـطى وآســـيا الصغرى (تركيا حالياً).

كانت اللغة الفارسية القديمة لغة البلاط والأعياد في عهد داريـــوس الأول وهـــي تظهر تشابهاً كبيراً مع اللغة السنسكريتية، وقد تطورت مع الزمن وانقسمت إلى لهجتين هما: الزندية والبهلوية التي تعد لغة هندية، وقد نشأت منها اللغة الفارسية الحالية.

ويُعرف القليل عن أدب فارس القديمة، ولكن القصص حول الأبطـــال القـــدماء مازالت موجودة، وربما ساعد في بقائها المغنون، وتداولها في القصص الشعبي(107).

وبالنسبة للعلوم؛ فإنها لم تتطور عند الفرس بسبب عدم عنايتهم بها لأن اهتمامهم الأساس كان منصباً على الحروب والتوسع، فكان الطب يعتمد على السحر ويمارس من قبل الكهنة، ولكن مع الزمن ازداد الاهتمام به وأنشأ داريوس الأول مدرسة للطـــب في

مصر، وكان على الطبيب الناشئ أن يبدأ مهنته بعلاج (الكفرة والأجانب)، فإذا أثبت كفايته يسمح له بمعالجة الفرس [108].

وكان الفن والعمارة في فارس القديمة مزيجاً فريداً من الثقافات اليونانية والمصرية والبابلية وغيرها من الثقافات. وقد وجدت بقايا القصور الملكية الضخمة في بسارغادا وبرسيبوليس وسوسا وهي ما يُعرف اليوم باسم إيران، كذلك وُجدت الكؤوس والصحون وغيرها من الأشياء التي صُنعت من الذهب أثناء وجود الإمبراطورية الفارسية، وبعد أن فتح الإسكندر المقدوني بلاد فارس أصبحت الفضة أكثر شعبية حيث وُجد الكثير من القطع الفنية الفضية. ويلاحظ أن الكثير من المتاحف تعرض المنسوجات والسجاد والفخار الفارسي [109].

الفصل الثاني

حضارة الهند

أولاً – تاريخ الهند:

قامت في الهند إحدى أقدم وأغنى الحضارات في العالم، إذ يرجع تاريخها لأكثر من خمسة آلاف سنة، ظهر فيها عدد من الإمبراطوريات التي سادت ثم بادت، وكان آخرها الإمبراطورية البريطانية التي انتهت عام 1947م إثر تأسيس جمهورية الهند المستقلة.(110)

فقد اكتشف علماء الآثار في شبه القارة الهندية مواقع تعود للعصر البرونزي، إذ يرجع تاريخ الحضارة الهندية القديمة إلى نحو سنة 3500ق.م، وتدل القرى والمدن القديمة على وجود نظام حكومي واقتصادي.

وأشهر مدينتين في حضارة وادي السند هما: موهنجو دارو في السِّند وهرابَا في البنجاب، كما وجد علماء الآثار بقايا العديد من القرى الصغيرة الأخرى من إقليم غوجارات الممتد من جنوب الهند إلى الهملايا في الشمال(111).

ثانياً– حضارة الهند:

1– تشكل حضارة الهند:

قامت حضارة الهند القديمة على ضفاف أنهارها ودلتاتها، كوادي السند وروافده، حيث مقاطعة البُنْجاب، ونهر الغانج وروافده، وعلى ضفاف نهر كرشنا في الدَّكن.

وأقدم حضارة عرفتها الهند قبل قدوم الآريين، كانت في وادي السند، وترجع إلى نحو 2500ق.م التي اكتشفت في «هرابا» harappa في البنجاب، و«موهنجودارو» Mohenjodoro في السّند.

لقد سكن الهند قبل هجرة الآريين إليها «الدرافيديون» dravions، وهم

شعب دخلها قبل فجر التاريخ، لا يعرف أصله، ثم جاءها الآريون من الشمال والشمال الغربي بين 2000ق.م، واحتلوا سهل الغانج، وأرجح النظريات أن موطنهم الأصلي أواسط آسية شمالي بحر قزوين، منهم من هاجر جنوباً، ومنهم من دخل أوربة، فهم شعوب هندو- أوربية[112].

وزودت التجارة سكان وادي السّند بالأغذية الضرورية، والمواد الخام الأساسية مثل الخشب والقطن والأصباغ والمعادن والزجاج. ويعتقد العلماء أن التشابه القوي بين حضارتي السند وبلاد ما بين النهرين في العراق يُرجح قيام علاقات تجارية بحرية بينهما.

تكلمت الشعوب التي وصلت الهند لغات عديدة، منها السنسكريتية، والإيرانية القديمة، والإغريقية، واللاتينية [113].

2- حضارة الهند القديمة في عصر الفيدا: (2000-1000ق.م):

أقدم عصور حضارة للآريين في الهند هي الفيدا: vida، والفيدا مجموعة أغنيات استُقيت منها المعلومات عن الهنود الآريين، وهي أقدم أثر أدبي في أية لغة هندية- أوربية في الشرق والغرب.

والفيدا تعني المعرفة، وهي المعرفة لكسب رضى الخالق، وهي ثلاثة أنواع: الريجفيدا، أو فيدا الأناشيد، والسمافيدا: وهي فيدا النغمات والتراتيل عند شرب شراب السُّوما، والياجورفيدا: وهي فيدا القرابين. ويعتقد أن ظهور الريجفيدا، وهي أقدمها، كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد [114]. ولقد قدّمت نصوص الفيدا معلومات كثيرة عن تاريخ الآريين في الهند. وتشكل الفيدا الأركان الأساسية لكل من الفلسفة والدين الهندوسيَّيْن، والتي كانت تنتقل شفوياً عن طريق أجيال الكهنة والعلماء قبل تدوينها. ويستنتج من الفيدا أن الهنود كانوا يعيشون في هذه المرحلة على الزراعة ورعي المواشي، ولهم إله خاص للأرض المحروثة، ويستخدمون البقرة دون أن ينزلوها من أنفسهم منزلة التقديس[115].

وكان المجتمع الفيدي الأول يتكون من ثلاث طبقات تماماً كما كان عليه الحال في المجتمع الآري، وهي طبقة الكهنة (البراهمة) والمقاتلة (الكساتريا) والعامة (فاسيا)، وهذه هي أسس الطبقية الهندية الحالية.

وأشارت الفيدا والتواريخ المتأخرة أيضاً إلى شعب أسود البشرة عُرف بالداسا وهو أصل الهنود، وقد خاض حروباً عديدة ضد الآريين. ويبدو أن طبقة السودرا الوضيعة كانت هي السودرا المستعبدين.

وقد دُوّنت بطولات الآريين وحروبهم في ملحمتين قصصيتين هما الرامايانا والمهابهاراتا.

وأقام بوذا أول دَيرْ (فيهارا) في سارنات، وكان أفضل مكان للبراهمة الذين كانوا كهنةً وحُماة للثقافة السنسكريتية، وقد تعرض وضع البراهمة هذا للتهديد بسبب ظهور أديان جديدة كالبوذية واليانية (116).

وبالتالي لقد انقسم المجتمع الهندي إلى خمس طبقات:

أ- الكهنة أو البراهمة، ويعتقدون أنهم خُلِقوا من رأس براهما، أو من فمه. ويأتي بعدهم:

ب- المحاربون، وخلقوا من كتفي براهما ويديه، ثم:

ج- المزارعون والتجار وأصحاب الحِرَف، وخُلقوا من فخذي براهما، ثم يليهم:

د- الخَدَم، وخُلِقوا من قدمي براهما، وهم من نسل السكان الأصليين، ثم:

هـ- المنبوذون ولا ينتسبون إلى طبقة معينة، وهم نحو أربعين درجة، لهم نوع خاص من اللباس، ولا يمكن التقدم من طبقة إلى أخرى، كما أنه لا يمكن التزاوج بين طبقتين إلا بين الأولى والثانية، والقانون هو العُرْف، ويستشير فيه الملك أحد علماء الدين.

أما الديانة؛ فإنها كسائر ديانات الهندو- أوربية قائمة على عبادة قوى الطبيعة،

كالشمس والقمر والهواء والعاصفة. فآغني agni إله النار الــذي يمثــل الشــمس في السماء، والنار المقدسة في الأرض، وتحتوي الفيدا على أفكار وتعــاليم نبيلــة تتعلــق بالاستقامة والنقاوة، ولما كان وصول الآريين إلى الهند عن طريق آسية الصغرى، وهضبة إيران، فلا بد أنهم تأثروا بحضارة البلاد التي مرّوا فيها، ومنها بلاد ما بين النهرين.

3- حضارة عصر البطولة والديانة البراهمية: (1000-500ق.م):

مصدر المعلومات عن هذه المرحلة الملحمتان: المهابهراتــا mahabharata، أو قصة أسرة بهراتا، والرامايانا ramayana، أو تاريخ راما.

والتعليم في هذا العصر كان في طبقة الكهنة أو البراهمة، وكان شــفهياً حــتى لا تصل المعرفة إذا كُتِبَت إلى الطبقات الدنيا (117).

وظهرت في ذلك العصر عقيدة التقمص، بمعنى أن الروح تولد مرات متعاقبة.

وحصل رد فعل ضد البراهمة، لأن الكهنة أصبحوا أقوياء وتعقّدت الطقوس كثيراً، فقامت ثورة ضد الكهنة البراهميين.

وظهرت «الجاينية» ومؤسسها مهافيرا mahavira (550-477ق.م)، الذي كان أميراً وترك الإمارة، وراح يعذب نفسه اثنتي عشرة سنة، حتى جاءه (الهــدى) دون مساعدة الكهنة، ومن هنا جاء لقب الجينا jina أي الغالب، وأسس رهبنة كان فيهــا 14000 من أتباعه عندما توفي، والطريق المؤدية إلى الخلاص في رأي الجانتيين، هــي توبة تقشفية، وامتناع عن إيذاء أي كائن حي.

كما ظهرت - ضمن رد الفعل ضد البراهمة - البوذية، ومؤسّسها غوماتا ســيد هانا (564-483ق.م)، الذي دعي بوذا، أي المستنير، أو الذي اهتدى، وكان ابــن أمير منطقة على حدود نيبال، فتنكر لسلطة الفيدا، وقرر قواعد خلقية خمســة، وهــي بمترلة الوصايا، وهي:

أـ لا يقتلنّ أحد كائناً حياً.

ب ـــ لا يأخذنّ أحد ما لم يُعْطه.

جـــ لا يقولنّ أحد كذباً.

دـــ لا يشربنّ أحد مسكراً.

هـــ ـــ لا يقيمنّ أحد على دنس.

ومما يميز الجانية والبوذية أهما تكلمتا وعلمتا بلغة الشـــعب Prokrit، ولـــيس بالسنسكريتية لغة الكهان، ودخل في العقيدتين جماعة مـــن مختلـــف الطبقـــات ومـــن الجنسين. وتدخل «الكارما» عنصراً هاماً في تعاليم الطرفين، وهي قضية الإرادة، فـــإذا عاش الإنسان وفكّر بصورة صحيحة يتخلّص من «الكارما» ويصـــل إلى مـــا يســـمى بالنيرفانا Nirvana، بمعنى أنه لا يعود يولد مرة ثانية، والوصول إلى ذلـــك يكـــون باتباع خطة النقاوة والصفاء في الفكر والقول والعمل، وتجنب القتل والسرقة والـــزنى، والابتعاد عن الكذب والطمع واللذات والرغبات.

ويهتم الطرفان بالسلوك القويم، وبالمعرفة الصحيحة، وينظران إلى العـــالم شـــراً، ويميلان إلى الرهبنة، والجاينية تشجع الزهد التام وإماتة النفس، بينمـــا البوذيـــة أكثـــر اعتدالاً. وبقيت الجانبية في الهند، بينما انتشرت البوذية في بلاد الشرق الأقصى.

ويعد آزوكا Asoka (273ـــ232ق.م) ناشر البوذية، حيث أرسل بعثـــات التبشير إلى سيلان وبرمة وسيام، وبجهوده أصبحت تلك البلاد بوذية.

ومما يذكر أنه في القرن التاسع ظهرت حضارة الراجبـــوت Rajput أي أبنـــاء الملوك، التي انتهت بالفتح الإسلامي لوادي السند وحوض الغانج الأوسط أيام السلطان محمود الغرنوي(118).

4- الإنجازات الثقافية والعلمية:

تميّز تاريخ شبه القارة الهندية بعد إمبراطورية كوشان (القرن الرابـــع المـــيلادي) بظهور عدد من الأسر التي حكمت أقاليم مجّزأة. وتُمثل هذه المرحلة، النجاح الثقـــافي

الكبير للدراسات السنسكريتية والاكتشافات العلمية، فازدهر الفن والأدب والفلسفة والطب والرياضيات والفلك، وقُدم العديد من النماذج الجميلة عن عبقرية الهند القديمة. (119)

أ- الطب: في أول الأمر لم يكن الطب في الهند منفصلاً عن السحر، ولكن مع الزمن تحول الساحر (بخيشاج – محضر الشياطين) إلى طبيب معالج مع أنه ظل يسمى ساحراً. وقد جاء في الفيدا ذكر لعدد من الأمراض مثل: اليرقان، مرض المفاصل، ألم الرأس، الجذام وغير ذلك. ومع تطور علم الطب ظهر اختصاصيون في معالجة الأمراض الداخلية وفي أمراض العيون وفي الجراحة وغير ذلك، كما ذُكرت في الكتب البراهمية بعض الأدوات الجراحية.

وقد أدى تراكم المعارف في طرق المعالجة إلى ظهور بعض الكتب الطبية، فوضع الطبيب سمخيتا شاركا مؤلفاً طبياً في القرن الأول الميلادي، كما وضع الطبيب سوشروتا مؤلفاً في القرن الخامس الميلادي، وترجم الكتابان إلى العربية في القرن الثامن ونقلاً فيما بعد إلى اللاتينية. وتتشابه بعض المعارف الطبية الهندية مع كتابات الطبيب اليوناني أبقراط مما يدل على الاتصال الحضاري بين الهند واليونان.

ب- الفلك: أدت مراقبة الشمس والقمر والنجوم إلى توضع الكثير من الحقائق الفلكية عند الهنود، فتوصلوا إلى معرفة المراحل التي يمر بها القمر وفسروا الكسوف و الخسوف. ومن ناحية التقويم عدوا السنة أول الأمر 360 يوماً ثم 366 يوماً، وفي القرن السادس الميلادي عرفوا طول السنة الحقيقي. وقد كتب الفلكي الهندي أريابخاتي (القرن السادس الميلادي) عن حقيقة دوران الأرض حول المحور وأشار إلى أن الأرض مستديرة، كما عرف قانون الجاذبية الأرضية، وقال أن القمر يستمد نوره من الشمس. وفي العصور الوسطى أخذ العرب هذه المعارف الفلكية عن الهنود. ويختلف العلماء في تعيين مصدر الفلك الهندي، فبعضهم يقول: إنه مأخوذ عن اليونان، والبعض الآخر

يقول بفضل الهند على اليونان في مجال الفلك، ومهما يكن فربما أخذ كل منهما عن الآخر ما دامت هناك صلات حضارية بين الطرفين.

جـ- الرياضيات: استخدم الرياضيون الهنود الرقم (0) للصفر، كان لديهم تصور للأرقام السالبة. [120]، فمنذ الألف الثانية قبل الميلاد عرف الهنود النظام العشري في الحساب، وفيما بعد عرفوا الصفر، وقد تطورت العلوم الرياضية في الهند بعد الميلاد خاصة، فكتبوا في القرن الخامس في الجبر عن الكميات المجهولة والمعادلات غير المعينة من الدرجة الثانية، وحلوا معادلات من الدرجة الثالثة والرابعة، كذلك عرفوا الكسور والجذر التربيعي والتكعيبي والمساحات والجيب والتصاعد الحسابي والمثلثات. ومن المتعارف عليه أن الأعداد العربية المستعملة في أوروبا حالياً انتقلت من الهند إلى الغرب عن طريق العرب، رغم تناقض آراء العلماء حول هذا الموضوع. وقد تأثر علم الجبر عند العرب بالجبر الهندي، كما جرى تأثير متبادل بين الهند واليونان في مجال الرياضيات[121].



الفصل الثالث

حضارة الصين

أولاً- موجز التاريخ السياسي الصيني:

عاش الناس فيما يطلق عليه الآن اسم شمالي الصين قبل بداية تدوين التاريخ، فإنسان بكين عاش ما بين 500،000 ــ 250,000 عام خلت.[122]

ويرجع أول تاريخ مكتوب للصين إلى عام 1766ق.م، فقد وجدت بعض المخطوطات المدونة داخل أوعية برونزية ومقتطفات منقوشة على أصداف سلاحف وعظام بعض الحيوانات. في عام100ق.م، قام المؤرخ الصيني سيماكيان بكتابة تاريخ الصين، حيث يُبدي الصينيون اهتماماً بالتاريخ، ولهذا فهم يحتفظون بسجلات للأحداث وأزمنتها بشكل مفصل[123].

ففي وديان الأنهار الثلاثة الرئيسية، وجدت أهم مراكز الحضارة الصينية القديمة، حيث وجدت بقايا الإنسان القديم، وتعود إلى نحو أربعمائة ألف سنة، حيث كان يعيش على الصيد ثم الزراعة والصيد، وذكرت وكالة أنباء الصين الجديدة أن بعض الباحثين عثروا في شهر نيسان 1985م على الشواطئ الصخرية بالمنطقة الواقعة بأقصى شمال غربي الصين على آلاف النقوش التي ترجع إلى عصر يتراوح بين 8000 ق.م 6000 ق.م، وبعضها تآكل في حين يوضح بعضها الآخر صوراً لحيوانات وأشخاص ومشاهد الصيد والمعارك، بالإضافة إلى رموز مختلفة قامت بنحتها على الأحجار بعض القبائل الرُّحل.

وفي عهد سلالة شانغ shang (2765-1122ق.م) التي حكمت في مقاطعة هونان في وادي النهر الأصفر سارت الصين إلى البرونز ثم إلى عصر الكتابة. وعبد

الصينيون في هذا الدور الأرواح المتعلقة بالقوى الطبيعية وعناصرها، كما عبدوا الأسلاف، فالصّين موطن عبادة الأسلاف.

ثم غزا من الغرب أقوام تحت زعامة قبيلة تشو chou، استقرت في وادي النهر الأصفر متخذة من هاو hao عاصمة لهم، فاقتبسوا حضارة الدور السابق، وحكموا ما بين (1122-256ق.م)، وأعطوا الحكم لرؤساء في المقاطعات، وتأسس نوع من الحكم الإقطاعي، وفي منتصف القرن الثالث ق.م حصلت حروب كثيرة بين المقاطعات لأجل السيطرة، فنجحت مقاطعة تشين chin في توحيد البلاد وأعطت اسمها لبلاد الصين كلها[124].

أما التاريخ الإمبراطوري للصين، فقد دامت إمبراطورية سلالة كين حتى عام 206ق.م، إلا أنها أحدثت تغيراً أثر في العهد الإمبراطوري بكامله. قام أول إمبراطور بإلغاء الدويلات كافة، وأنشأ نظاماً مركزياً قوياً، عمل هذا النظام على توحيد الأوزان والمقاييس ونظام الكتابة في كل أنحاء الصين، ولكي يحمي الصين من خطر الغزاة أمر ببناء سورها العظيم الذي بلغ طوله6400 كم من الساحل إلى مقاطعة غانو في شمال وسط الصين، جمع أباطرة الصين الضرائب الباهظة من المواطنين لتنفيذ مشروعاتهم؛ مما جعل الناس في ظروف معيشية صعبة، ودعاهم إلى تفجير حرب أهلية.

في عام 8م استولى أحد المسؤولين الهان واسمه وانج مانج على الحكم وأنشأ سلالة زين، وتمكنت أسرة هان من استعادة حكم الصين وانتعشت في عهدها العلوم والثقافة ووُضعت في عهد هذه الأسرة المعاجم وكتب التاريخ. في عام 105م، اخترع الصينيون ورق الكتابة، ودخلت البوذية إلى الصين من الهند في نهاية حكم سلالة هان.

انتشر بعد ذلك الصراع بين الأقاليم الإدارية القوية، وتجاهل حكام الأقاليم السلطة المركزية، مما تسبب في انهيار الإمبراطورية، وأدى إلى تقسيم الصين إلى ثلاث ممالك متناحرة [125].

ثانياً– التاريخ الحضاري:

1– حضارتا يانجشاو ولونجشان:

احتضنت الصين حضارتي يانجشاو ولونجشان، فقد بلغت حضارة يانجشاو أوجها نحو عام 3000 ق.م، وامتدت هذه الحضارة من الوادي الأوسط هوانج هي إلى الإقليم المعروف حالياً باسم جانسو، ثم حلت محلها حضارة لونجشان التي انتشرت في أرجاء البلاد كافة، وعاش شعب هذه الحضارة داخل الأسوار، وزرعوا الأرز والدخن وربوا الأبقار والأغنام.

وانبثق عن حضارة لونجشان حضارة السلالة الحاكمة شانج في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ونشأ خلال هذه الحضارة مجتمع متطور تحكمه بالوراثة طبقة أرستقراطية. إن أهم ما قدمته هذه الحضارة، وما زال شاهداً على عراقتها، يتمثل في الأواني البرونزية الضخمة وتماثيل الخيول والعربات، ووضعها لنظام كتابة خاص بها.

في عام 1122ق.م، قام سكان غربي الصين بإنهاء حضارة شانج، وأقاموا بدلاً منها حضارتهم، وهي حضارة سلالة تشو التي حكمت الصين حتى عام 256ق.م. وفي عام 500 ق.م، ظهر الفيلسوف كونفوشيوس الذي حول الناس من الدين إلى الفلسفة(126).

2– العلوم والآداب:

اهتم الصينيون بالعلوم والآداب والفنون وكانت لهم انجازاتهم الهامة فيها؛ ففي الكيمياء؛ كتب واي – بو – يانغ Wei-po-Yang عام 140م كتاباً بعنوان «توحيد المبادئ الثلاثة»، وفي أوائل القرن الرابع ظهر كتاب عن الكيمياء نظرياً وعملياً، وفي القرن الرابع أو الخامس عرف الصينيون الحبر الأسود وكانوا قد عرفوا قبل ذلك الحبر الأحمر. أما في الرياضيات فحصل تبادل في المعلومات بين الهند والصين أثناء رحلات الحجاج الصينيين البوذيين إلى الهند، وربما استطاع الصينيون حل المعادلات

المجهولة، وتوجد كتب رياضية متعددة تبين تقدم الصينيين في هذا المجال.

وفي مجال الطب أحرز الصينيون خطوات متقدمة، فاشتهر في القرن الثاني الميلادي طبيب لُقّب بـ«جالينوس الصين» وكتب كتابين عن الأطعمة وعن الحمى، وفي القرن الثالث أنتج طبيب جراح نوعاً من المخدر، وفي القرن السابع كتب طبيب آخر كتاباً عن أمراض متعددة منها أمراض العين والمجاري البولية، وظهر في القرون التالية أطباء كتبوا في الحمى والأمراض النسائية والعقلية والطب البيطري والأوعية الدموية، ويبدو أن الصينيين كانوا يلقحون ضد الجدري في القرن الحادي عشر.

واهتم الصينيون أيضاً بعلم الفلك، وأوجدوا بعض الآلات الفلكية لمراقبة النجوم. إلى جانب العلوم اهتم الصينيون بالآداب ويعد عصر الإقطاع العصر الكلاسيكي في الأدب الصيني، وقد قام كونفوشيوس بجمع كثير من الكتب التي كُتبت قبل عصره وشرحها ونشرها، ولكن مؤلفات عصر الإقطاع الهامة تقع في مجموعة تسمى «كتب كونفوشيوس» وهي «الكتب الكلاسيكية الخمسة» و«الكتب الأربعة»، ويقال إن كونفوشيوس نفسه جمع أول أربعة كتب من «الكتب الخمسة» وألف الكتاب الخامس، بينما تنسب الكتب الأربعة إلى أتباعه [127].

والكتب الخمسة هي: «كتاب التغيرات» وهو كتاب تنبؤات وتنجيم، و«كتاب التاريخ»، و «كتاب الشعر»، و «كتاب المراسم أو القواعد المتعلقة بالسلوك»، والكتاب الخامس هو «حولية الربيع والخريف»، وهناك كتاب آخرون أيضا كتبوا كتباً متعددة.

كذلك فقد عرف الصينيون الشعر الغنائي، ولعل أقدم مجموعة شعرية صينية هي «كتاب الشعر» الذي جمعه كونفوشيوس من الأشعار القديمة، وازدهرت الحياة الشعرية نحو 300م، كما نبغ عدد كبير من الشعراء خلال المرحلة الأخيرة من حكم أسرة هان.

لقد تأثر الصينيون بحضارات الشعوب الأخرى كالهنود والفرس واليونان، ويظهر

تأثير اليونان في مجال الفن والموسيقى والتقويم وعلم الفلك والكيمياء، وبالمقابل كان للحضارة الصينية تأثيرات في الحضارات الأخرى [128].

3- الإنجازات الحضارية العالمية لحضارة الصين:

حقق الصينيون الكثير من الإنجازات الحضارية التي انتقلت إلى أوروبا في أواخر العصور الوسطى عن طريق العرب المسلمين، وكان لها تأثير كبير في بدء عصر النهضة الأوربية في مطلع العصور الحديثة.

فقد اخترعوا البوصلة في القرن العاشر أو ربما قبل ذلك، وعرفوا البارود منذ القرن السابع حيث استُخدم في الألعاب النارية، ومنذ نهاية القرن العاشر استُعمل في الأسلحة الصينية. وقد عرف العالم الغربي البارود عن طريق غزوات المغول لأوربا في القرن الثالث عشر. أما الورق فقد اخترعه في عهد أسرة هان رجل يدعى تساوي لون Tsailon عام 105م وذلك كما يذكر فان يه Fanyeh في كتاب تاريخ أسرة هان الثانية، ويذكر هذا الكتاب أن الموارد التي كانت تستخدم سابقاً للكتابة هي الخيزران والحرير، وبما أن الحرير غالي الثمن والخيزران ثقيل صنع تساي لون الورق من قشر الشجر والقنب والأقمشة البالية، وقد نال هذا الاختراع تقدير الإمبراطور وثناءه [129].

وقد عرف العرب صناعة الورق عام 712م بعد فتحهم سمرقند لكنهم لم يعيروه اهتماما أول الأمر غير أنهم أدركوا أهميته بعد مرحلة فتعلموا صناعته ونشروها في القسم الشرقي من دولتهم، ويعود الفضل إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد في إدخال استعمال الورق (أو الكاغد كما كان يسمى) في الدواوين، ثم شاع وانتشر فيما بعد كمادة للكتابة بدلاً عن الجلود وغيرها من المواد التي كانت مستعملة.

وتأسس أول مصنع للورق في بغداد عام 794م حيث تركز إنتاجه في محلة دار القز، أما في مصر فأقيم أول مصنع فيها عام 800م، وفي الأندلس عام 950م، وكانت

مدينة شاطبة مركز إنتاجه ومنها كان يصدر إلى أوروبا، وقد تعلمت أوروبا صناعة الورق من العرب عن طريق احتكاكها بهم في الأندلس وفي شمالي إفريقية وفي بلاد الشام أيام الحروب الصليبية، وقد أُقيم أول مصنع لإنتاج الورق في أوروبا في صقلية عام 1102م، وفي إيطاليا عام 1154م، وفي ألمانيا عام 1228م وفي إنكلترا عام 1309.

وقد سهّل اختراع الورق عملية الطباعة التي ظهرت في القرن السادس وذلك بوساطة الألواح الخشبية، وأدخلت تحسينات جمة على أدوات الطباعة منذ القرن الحادي عشر، وظهرت الكتب المصورة في الصين قبل ظهورها في البلدان الأخرى. ومن الاختراعات الأخرى التي أوجدها الصينيون في القرن الثالث قبل الميلاد: الفرشاة، والتي كان لها أثر كبير في تطوير فن الرسم والكتابة الصينية. وفي القرن الرابع الميلادي أوجدوا عدادات لقياس المسافات. وفي القرن السابع عرفوا قضايا التحقق من الشخصية بوساطة بصمات الأصابع. كما استعملوا العملة الورقية في القرن الثاني عشر [130].

.

الفصل الرابع

الحضارة اليونانية

أولاً– التاريخ العام لليونان:

ظهرت أول حضارة رئيسية في بلاد الإغريق في كريت، تلك الجزيرة الواقعة في بحر إيجة، وكان ذلك نحو عام 3000 ق.م. وقد عُرفت بالحضارة المينوية نسبة إلى الملك مينوس، الحاكم الأسطوري لكريت، ودامت سيطرتهم على بحر إيجة حتى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عندما تمكن المسينيون من تكوين إمبراطورية مسينية كبرى، تمكنت من القضاء على كريت، إلا أنها اتخذت بعضاً من المعالم الحضارية المينوية، مثل نمط الكتابة، ويعتقد المؤرخون أن المسينيين كسبوا الحرب ضد طروادة، في آسيا الصغرى (تركيا الآن) في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، تلك الحرب التي ألهمت العديد من الأعمال الأدبية القديمة الكلاسيكية.

لم تُعمَّر الحضارة المسينية طويلاً، فسرعان ما تهاوت بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد بقليل؛ عندما داهمهم الدوريون وهم غُزاة جدد من الشمال، وفرَّ الكثير من سكانها إلى آسيا الصغرى، وتُعرف تلك المرحلة من تاريخ بلاد الإغريق بالعصر المظلم الذي استمر حتى عام 800 ق.م. و فيها نسي الإغريق الكتابة، وبعد القرن الثامن ق.م، عاودوا الكتابة بأبجدية مأخوذة من الكتابة الفينيقية، ولقد روى بعضاً من أشعارهم بإفاضة الشاعر الضرير هوميروس في ملحمتيه الإلياذة والأوديسة (131).

وأقدم الشعوب اليونانية هم الآخائيون الذين اندفعوا إلى البلقان والهيللاد نحو سنة 2000ق.م، في الوقت الذي هاجر فيه بعض الكريتين من جزيرتهم وأقاموا في الأرض اليونانية، فولدت حضارة هي الحضارة الآخائيّة والهيللادية، التي بلغت قمتها ما بين: 1400-1200ق.م.

ودُفِعَ الآخيون بدورهم إلى السواحل الآسيوية أمام أقوام جديدة، حملت منـــهم الحضارة ما قبل الهللينية، ونشأت مجتمعات جديدة في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد ليس من السهل أن يميز المرء من كان أصله إيجياً ومن كان أصله يونانياً، وشكلت هذه المجتمعات الجديدة الحضارة الهللينية.

ويظهر أن الهللينين عندما حلّوا في بلاد اليونان كانوا منقسمين إلى قبائل تـــدعى كل منها جينوس genos، وكل قبيلة مستقلة قائمة بنفسها– ممالك مدن –، وكانت العادة والعرف تنظّم الأفراد فيما بينهم، وهناك قوانين ناظمة تحدّد علاقات كل قبيلـــة بالقبائل الأخرى، وخصوصاً بعد أن تحوّلوا من رعاة إلى زرّاع.

يقول ديورانت: «وأصعب ما يواجه مؤرّخ الحضارة اليونانيّة القديمة ويثبط همته، هو أن يؤلّف من هذه الأعضاء المتفرقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة، وقصـــة متصلة الأجزاء»[132].

ويمكن القول إن التطور السياسي والاجتماعي لبلاد اليونان يتمركز منذ منتصف القرن السابع حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد حول قطبي مدينة أثينا: التي مثلـــت المدينة العابثة المتبدلة والتي كان كل واحد من سكانها حرّاً بشخصيه وأعماله وبإمكانـــه أن يناهض ويحرج سلطة الدولة. وإسبارطة: التي مثلت الصلابة التي لا تلين، فنظامهـــا (الاجتماعي والاقتصادي) كان يستهدف تأسيس جيش يؤدي الفلاحون نفقاته [133].

وهذا يدلل أن حضارة الإغريق قد تطوَّرت على نحو رئيس في الدول ـــ المـــدن الصغيرة، فكانت الدولة ـــ المدينة الصغيرة تتكون من مدينة أو بلدة كبيرة بالإضافة إلى القرى والأراضي الزراعية المحيطة بها. وكانت المدن ـــ الدول مستقلة، وغالباً ما تـــدور الحروب فيما بينها، وقامت فيها حكومات ديمقراطية ومن أشهر تلـــك الـــدول أثينـــا وأسبرطة [134].

و لم يُقدّرْ للمدن ـــ الدول الإغريقية أن تتوحد في أمة واحدة بالرغم من وجـــود

لغة عامة وديانة وثقافة كانت تربط بين السكان. وسَمّى الإغريق أنفسهم بـــالهيلينيين، وأراضيهم باسم هيلاّس، وكانوا يعتقدون أهم مجموعة مختلفة عن غيرها من الشـــعوب الأخرى، التي كانوا يطلقون عليها اسم البرابرة (الهمج).

واهتم الإغريق بحريتهم وطريقة حياهم التي أكدت على أهمية الفرد، وشـــجعت الأفكار الإبداعية، وأوجد المفكرون الإغريق أسساً للعلم والفلسفة؛ وذلك عن طريـــق البحث في التفسيرات المنطقية لما يحدث حولهم في العالم. وابتدع الكتاب أشكالاً جديدة للتعبير، تستكشف الشخصيات والعواطف الإنسانية. ووصلت الحضارة الإغريقية ذروها في أثينا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وعرفت هذه المرحلة بالعصر الذهبي(135).

اضطر قدماء الإغريق نتيجة لنقص الغذاء والمصادر الطبيعية للاعتماد على التجارة فيما وراء البحار؛ لتوفير الاحتياجات الضرورية، كما اضطر الكثيرون لمغادرة الـــبلاد، بحثاً عن مستوطنات أكثر وفرة للمتطلبات الحياتية، ونتيجة لذلك، انتشر الإغريق علـــى طول شواطئ البحرين المتوسط والأسود وصولاً إلى جنوبي إيطاليا وجزيرة صقلية(136).

المقطع 1.03 ثانيـــاً- النشـــاط الاجتماعي والاقتصادي:

وفيما يتعلق بحياة الإغريق الاجتماعية، فقد بدأت الحضارة الإغريقية في التطـــور منذ ما يقرب من عام 2000 ق.م. كانت قد وصلت آنذاك مجموعات من الناس مـــن الشمال، وأسسوا قرى زراعيةً صغيرة، وكانت المجموعتان الرئيسيتان للشعب الإغريقي هما: الدوريين والأيونيين.

وأصبح العالم الإغريقي بحلول القرن الثامن قبل الميلاد، يتكون من العديـــد مـــن الدول ــ المدن الصغيرة المستقلة (كما مرّ معنا أعلاه). وقد ميّز الإغريق في تلك الدول ــ المدن بين المواطنين من أهل البلاد وغيرهم، فقد كان للمواطن فقط حـــق الملكيـــة والمساهمة في الحكومة، أما الآخرون فلا. ومن أشهر مدن اليونان: أثينا الـــتي وضـــعت

مبادئ الحكم الديمقراطي في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، أيام دراكون وصولون وبيزيسترات وكليستين، مع قسوة وشدة، فالموت عقاب أي مخالفة لحكم من أحكام قوانينهم.

وقُسِّم المواطنون إلى طبقات اجتماعية، اعتمدت النَسَب والثروة مقياساً للتقسيم؛ وبذلك كانت الطبقة العُليا تشكل ما يقرب من 5-10 % من إجمالي عدد السكان، وشكلت الطبقة الوسطى ما يقرب من 20-30 %، بينما شكلت الطبقة الفقيرة ما يقرب من 60- 70 %، وتضم فئة غير المواطنين النساء والعبيد والأتباع الزراعيين، وكانت البلاد تزخر بأعداد كبيرة من هؤلاء.(137)

وأهم المؤسسات الآثينيَّة؛ مجلس الشّعب: وكل مواطن مسجّل في سجل بلديّة ما، أتمّ خدمته العسكريّة، وغير محكوم بأي حكم، هو عضو في هذا المجلس، ولو توافرت الشّروط المذكورة بثلاثين ألف أو أربعين ألف، لذلك قيل عن أثينا: إنّها جمهوريّة من الخطباء.

ومجلس الشيوخ: هو مجلس الدّولة، والهيئة التي تمثل الشعب بصورة دائمة، وتنفذ مشيئته، وعدد أعضائه خمسمائة فقط، يُنتخبون بالقرعة بعد ترشيحهم من بلدياتهم، وكانوا في كل مساء ينتخِبُون من بينهم بالقرعة رئيساً يُعطى مفاتيح الخزنة، وخاتم الدولة وسجلاتها، ليحكم أثينا يوماً واحداً.

ومن أشهر مدن اليونان أيضاً: إسبارطة؛ التي لم يكن فيها أي نوع من أنواع الحياة الخاصة، فقد كان الرجال طوال أوقاتهم في الثكنات حيث التمارين العسكرية، وتناول الطعام مع الزملاء، والمرأة ينظر إليها نظرة أمّ لا زوجة، وينزع منها ولدها منذ حداثته ويسلّم إلى الدولة لكي تجعل منه جندياً، ومع وجود مساوئ لنظام إسبارطة التربوي، فإنها كانت كفيلة بصنع رجال مملوئين شجاعة وحزماً (138).

وكان رجال الإغريق يستمتعون بمحادثة أصدقائهم بالأجورا (الأسواق)، أو

خلال احتفالات الشراب، وبحضور الاحتفالات والمباريات الرياضية التي كانت تحتـدم فيها المنافسات في المصارعة والملاكمة والجري وسباق الخيل والقفز ورمي الرمح، وغير ذلك من الألعاب العديدة التي كان الفوز فيها شرفاً كبيراً يناله الرياضيون(139).

أما الدين؛ فقد اعتقد الإغريق أن ثمة آلهة تُراقبهم من عَلٍ وتُوجه الحوادث اليومية. وكان لكل دولة آلهتها الخاصة بها أو الإله الخاص بها، وكانت تُقام لها الاحتفالات في كل عام تكريماً لها، واعتقدوا أن لديها إمكانية الإخْبَار عن المستقبل؛ لذا كان الناس يقصدون المزارات المخصصة لها والتي كانت تُعرف بالعرافات (هياكل الوحي)، لاستشارة الكهنة، وكانت تلك التي في دِلْفي أعظَمها. ويزور المرضى مزارات أسْكليبيوس إله الشفاء عندهم، تشبه الآلهة الإغريقية الكائنات البشرية من حيث إظهارها عواطف مماثلة كالحُب، والغيرة، والغضب. كان جبل الأولمب مقراً لكبير آلهتهم، وقد جعلوا زيوس وزوجته هيرا حاكمي الجبل، الذي ضم عدداً من آلهتهم الأوليمبية الأخرى، مثل أفروديت آلهة الحب عندهم، وأبولو إلههم للموسيقى والنور، وأريس إلههم للحرب، وأثينا آلهة الحكمة (140).

وفي القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد توسعت هيئة الأرباب في اليونان، وأصبح من آلهتهم المعترف بها أفروديت «عشتار» القادمة من سورية وقبرص، وزميلها أدونيس، وإيزيس القادمة من مصر، وآمون الذي قدم من ليبيا.

ولما قام بعض الفلاسفة والمفكرين في انتقاد المعتقدات الخرافية، تدخلت الدولة، وأجبرت بعضهم على التراجع، وأعدمت آخرين، لأنها لم تكن تفرق بين السياسة والديانة(141).

وبالنسبة للحياة الاقتصادية عند اليونان؛ فقد عمل أكثر من نصف سكان بلاد الإغريق بالزراعة والرعي. وكان المزارعون يعملون بمفردهم أو بمساعدة عدد قليل من العبيد. وتتضافر جهود العائلة جميعها في أعمال الزراعة ووقت الحصاد، حيث تتم زراعة

الحنطة، والشعير، والزيتون، والكروم، وتُربى الأغنام والماعز في الأراضي الأقل خصوبة، ويُصدّر فائض الإنتاج من زيت الزيتون، والنبيذ، والصوف...إلخ.

أما الصناعة فقد صنَع الإغريق معظم منتجاتهم يدوياً، وكان الحرفيون المهرة يعملون بشكل مستقل، إضافة لوجود معامل تضم ما يقرب من 20 – 100 عامل، معظمهم من العبيد. ومن أبرز الصناعات الفخار والأسلحة والملابس. وقد حظيت بعض الدول- المدن بشهرة كبيرة في صناعات معينة، مثل الفخار المزخرف في أثينا، والأثواب الصوفية في ميجارا، والمجوهرات والأدوات المعدنية في كورنث.

و كانت التجارة الرئيسية لبلاد الإغريق تتم مع مصر وصقلية وإسكيثيا، قرب البحر الأسود. وصدَّر التجار الإغريق فائض إنتاجهم للدول المجاورة مقايضة بالعبيد، ومنها الحبوب والأخشاب والمعادن.(142)

ثالثاً- التاريخ الحضاري لليونان:

1- الحياة الفكرية:

مهَّد الإغريق القدماء لتأسيس الحضارة الغربية، فالديمقراطيات الحديثة تدين بقسط كبير لأنظمة الحكم الإغريقية التي جعلت الشعب مصدر السلطة وأساس الحكم، كما جعلت المحاكمة من اختصاص هيئة محلفين، ونادت بالمساواة أمام القانون. وتعتمد الأبحاث الإغريقية القديمة في العديد من الميادين على الفكر المنتظم، بما في ذلك علوم الأحياء والهندسة والتاريخ والفلسفة والفيزياء، وقد أنجز الإغريق عدداً من الفنون الأدبية المهمة والتاريخ والمأساة والملهاة. وفي نشدهم للانتظام والتناسب، أوجدوا مثالية في الجمال كان لها تأثيرها القوي والفعّال في الفن الغربي (143).

وكان أبناء المواطنين الأصليين فقط يتلقون التعليم، وكان عدد قليل جداً من البنات يذهبن إلى المدرسة، وبعضهن الآخر يتعلمن في منازلهن. ويتعلم الأطفال الخبرات العملية من آبائهم أو العبيد. وقد اختلف نوع التعليم في الدول ــ المدن؛ ففي أثينا،

أنشأ المُدرّسون مدارس خاصة، وكانت أهم المواد التعليمية هي القراءة والكتابة والحساب والموسيقى والتربية البدنية، وضمت الرياضة البدنية ألعاب القوى؛ حيث يُمارس التلاميذ المصارعة والجري والقفز بمختلف أنواعه، ورمي القُرص والحربة. وشمل تعليم الموسيقى الغناء مع العزف على نوع من الآلات الموسيقية الشبيهة بالقيثارة، وكان الأبناء الأكبر سناً يتعلمون استعمال الأسلحة كالسيف والرمح.

أما في أسبرطة، فقد اختلف التعليم عنه في أثينا، حيث كان الأسبرطيون يرغبون في تنشئة جيل قوي محب للحرب، وكانت القراءة والكتابة أقل أهمية بكثير من التدريب العسكري، ففي سن السابعة، كان الأطفال يرسلون إلى مخيَّمات عسكرية يجري فيها تدريبهم على تقبُل الانضباط والحزم، وتَحمُّل الظروف القاسية، وحتى الفتيات كُنَّ يُشاركن في المباريات الرياضية.

واشتمل التعليم العالي على دراسة القانون والطب والفلسفة أو الخطابة، وقد أنشأ الفيلسوف أفلاطون مدرسة في أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد عرفت بالأكاديمية عدها بعض الباحثين أول جامعة في العالم، وأوجد أرسطوطاليس فيما بعد مدرسة مشابهة في أثينا هي الليسيوم[144].

واعتقد العلماء الإغريق، شأنهم في ذلك شأن الفلاسفة، بوجود عالم يخضع لنظام، ويعمل وفقاً لقوانين يمكن اكتشافها. وقد بُنيت العديد من النظريات العلمية على المنطق والرياضيات، واستنتجوا الكثير من الملاحظات الدقيقة للطبيعة، وحققوا بعض الاكتشافات محدودة التأثير في التقنية والحياة اليومية.

قال ديموقريطس في القرن الخامس قبل الميلاد: إن كل الأشياء تتكون من ذرات، وهي أصغر جزء في المادة لا يمكن أن ينقسم. وكان أريستاركوس، في القرن الثالث قبل الميلاد، أول من قرر أن الأرض تدور حول الشمس، إلا أن معظم المفكرين الإغريق ظلوا على اعتقادهم بأن الشمس والنجوم والكواكب السيارة تدور حول الأرض[145].

2- العلوم:

أ- الفلسفة: نشأت الفلسفة في بلاد الإغريق القديمة خلال القرن السادس قبل الميلاد. وكلمة فلسفة تعريب للكلمة (فيلوسوفي) الإنجليزية التي تنحدر إلى كلمتين إغريقيتين تعنيان حب الحكمة، أثار الفلاسفة العديد من الأسئلة التي يمكن عدها اليوم موضوعات للبحث والدراسة، وفَكَّروا في جوهر الكون وكيفية عمله، ثم ناقشوا فيما بعد طبيعة المعرفة، والحقيقة، وبحثوا كثيراً، بغية تحديد الخير والشر.

عُدّ كلّ من سُقْراط وأفلاطون وأرسطوطاليس أكثر الفلاسفة أهمية، و كانت دروس سقراط تنصبُّ على مساءلة مستمعيه بدقة؛ لإظهار ضعف آرائهم وحججهم، بينما تناول أفلاطون موضوعات مثل الجمال، والعدالة، وحسن الحُكم. ولخص أرسطوطاليس إنجازات الفلسفة والعلم.

وكان القسم الأكبر من أبناء الشعب الإغريقي يكتنفهم الشك حيال الفلاسفة ونظرياتهم، وبالرغم من هذا، فإن الخرافات والأساطير باتت تحظى باعتقادهم. وفي عام 399 ق.م، قضت هيئة من المُحلفين الأثينيين على سقراط بالموت؛ لأنه أبدى استخفافه بآلهتهم المزعومة[146].

ومن أعلام الفلسفة - التي أرادت حل أحجية الوجود ومنشأ الأشياء - إمبيدوكل empedocls الذي حاول تفسير جميع حوادث العالم بامتزاج العناصر الأربعة: النار والهواء والأرض والماء تحت تأثير المحبة، أو بانفكاك بعضها عن بعض تحت تأثير التناقص، وديموقرط democrite، وسقراط الذي رأى أن الإنسان مصاب بداء يتألم منه دوماً، وهو جهله بنفسه، ولا يمكن شفاؤه من ذلك إلا إذا عرف نفسه جيداً[147].

ب – الفنون: أما الفن، فقد ألبس اليونانيون الجمال كل شيء لمسوه بواسطة موهبة خاصة امتازوا بها.

فقدّم المعماريون والنحاتون والمصورون إسهامات مهمة للفنون، وناضلوا لإيجـــاد تصور للجمال يستند على التناسب المتناسق، وكانت المعابد أكثر الأعمـــال المعماريـــة أثراً؛ لأن المعبد يتكون من أعمدة متسقة محيطة بقاعة طويلة داخلية.

وطوّر الإغريق ثلاثة نماذج للأعمدة؛ النموذج الدوري البسيط، والأيوني الجميل، والكورنثي المزخرف، وكان أفضل المعابد التي تم بناؤها في الأكروبولس بأثينا في القرن الخامس قبل الميلاد. وصوَّر النحاتون أشكال آلهتهم وإلاهاتهم والكائنات البشـــرية، ثم تزايدت أعمالهم عبر القرون، ومن أشهرهم فيـــدياس، وبراكســـيتيليس، وليســـبوس، وميرون.

وبقي عدد قليل من اللوحات الفنية، وقد زودتنا الرسوم على الفخار، وكـــذلك الكتابات الإغريقية، والنسخ التي صنعها الرومانيون بمعلومات رئيســـية عـــن الرســـم الإغريقي، وتصور الرسوم الفخارية والنسخ الرومانية أشكالاً من الأســـاطير والحيـــاة اليومية.

ورافقت الموسيقى ـــ في الغالب ـــ المسرحيات والقصـــص الشـــعرية في بـــلاد الإغريق، وكان الموسيقيون يعزفون المعزوفات الموسيقية في الاحتفالات والاجتماعـــات الخاصة، واعتمدت تلك الموسيقى، وبشكل رئيسي، على اللحن والإيقاع.

وقدم الكُتاب الإغريق العديد من الأشكال الأدبية، بما فيها القصـــيدة، وشـــعر الملاحم، والمسرحيات المأساوية والهزلية، والتاريخ [148].

3- الحضارة الهِلْنستيّة:

وحّد الإسكندر بلاد اليونان سنة 336ق.م، فألغى جميع الحكومات الدكتاتورية، وأقر أن تعيش كل مدينة يونانية حرّة حسب قوانينها، وأعربت جميع الممالك اليونانيّة – باستثناء إسبارطة – عن ولائها له، ثم سار شرقاً إلى آسية فاتحاً لينال مجد إقامـــة دولـــة عالمية، بلغة وثقافة واحدة، فهزم داريوس ووصل السند، وأصبح إمبراطـــوراً يونانيـــاً –

فارسياً، يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفياء، أراد أن تمتزج ثقافتهم ودماؤهم امتزاجاً سلميّاً، ينهي النزاع الطويل بين الشرق والغرب، بذلك الاقتران السعيد بين حضارتيهما، فشجّع الآلاف من جنوده على أن يتخذوا لهم أزواجاً فارسيات، وتزوّج هو في عرس عظيم استاتيرا staira ابنة دارا الثالث. وبهذا ربط بنفسه الأسرة المالكة الفارسيّة.

وفتح الإسكندر أراضي الجزيرة وفارس لليونانيين، فخفف بهذا العمل ضغط السكان في بعض الدول اليونانية، وقلل من حدّة حرب الطبقات، فتشكلت مدن (متأغرقة) في آسية، شكلت الجزء الهام في الإمبراطورية السَّلوقية seleucud empire.

اتبع الإسكندر حياة وسطاً بين الأساليب الشرقية والمقدونية اليونانية، وكان جنوده يرون في هذا التّغيُّر استسلاماً منه للشرق، وكان أكبر شاهد على ارتداده عن دينه وفكر أرسطو، جهرة بألوهيته، وبعث عام 324ق.م رسالة إلى الممالك اليونانية يبلغها أنّه يرغب في أن يعترف به إبناً للإله زيوس، والإِله آمون، وصدعت معظم الدُّول بما أُمِرَت.

ولما عاد الإِسكندر من السند إلى بابل، انغمس في الشراب، ومات عن عمر قدره ثلاث وثلاثون سنة، عام 323ق.م، ولما سأله قوّاده لمن يترك ملكه؟ أجابهم: «إلى أعظمكم قوّة».

انقسمت إمبراطورية الإسكندر بعد وفاته، فقامت ثلاث ممالك هي: الدولة السَّلوقية، أسسها القائد سلوقس وعاصمتها أَنطاكية، وضمّت إيران والعراق وسورية وآسية الصغرى، ودولة البطالمة (أو البطالسة)، أسسها القائد بطليموس في مصر، وعاصمتها الإسكندرية، والدولة الأنتيغونيَّة، أسسها القائد أنتيغون في مكدونية، وعاصمتها بيلّا pella، وباحتكاك وامتزاج حضارة اليونان بحضارة الشرق تكونت

الحضارة الهِلْنستيّة [149].

أ- التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب قبل الاحتلال المكيدوني:

أطلق المؤرخون اسم «الحضارة الهيللنستية» على الحضارة التي نشأت عن تفاعل وتمازج مظاهر الحضارة اليونانية مع مظاهر الحضارات الشرقية التي ظهرت في ربوع مصر وسورية وبلاد النهرين وآسيا الصغرى وإيران والهند والصين، كما عدوا مرحلة الاحتلال المكيدوني للشرق بداية العصر الهيللنستي، ومرحلة الاحتلال الروماني للشرق نهاية له، ولكن هذين التاريخين اللذين حددوا بهما بداية ونهاية العصر الهيللنستي ليسا سوى اصطلاحين أشبه بالرواسي على الطريق، فالتاريخ وحدة حية متداخلة لا تنقسم هذا التقسيم الآلي، كما أن معالم العصر الهيللنستي بدأت قبل الإسكندر المكيدوني بكثير واستمرت أيضاً إلى ما بعد الفتح الروماني للشرق. وهكذا فإن ظهور معالم الحضارة الهيللنستية لم يكن حادثاً فجائياً، بل توضعت أسس هذه الحضارة منذ أن بدأت الصلات التجارية والثقافية القديمة بين سواحل الشرق والسواحل اليونانية وظلت آثارها ماثلة في العصور الوسطى كما لا تزال ملموسة في كثير من مظاهر الحضارات المعاصرة. وبالواقع اقتبس اليونانيون الكثير عن أسس حضارتهم وعناصرها عن المصريين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من شعوب الشرق، كما أسسوا المستعمرات اليونانية على شواطئ آسيا الصغرى ومصر وقبل أن يستولي ذو القرنين على بلدان المشرقين (الأدنى والأوسط) وتنتشر فيها معالم الحضارة اليونانية [150].

ب- ملامح التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب بعد الاحتلال المكيدوني:

وإذا حاولنا أن نتلمس بعض الملامح والصفات العامة للتفاعل الحضاري الذي تم بين الحضارة الإغريقية والحضارات الشرقية إثر الاحتلال المكيدوني للمشرق نجد أن الحضارة الهيللنستية كان لها وجهان في الشرق، فالمدن الجديدة كانت أشبه بالجزر الإغريقية في بحار الشرق وهي يونانية في لغتها ومؤسساتها ونظمها وتقاليدها وشكلها

الخارجي، أما الوجه الثاني فهو شرقي محض، فاللغة والأفكار والآلهة المصـــرية القديمـــة، وكذلك اللغة الآرامية والمؤسسات السورية والوحدانية العبرانية ولغة بابل وآلهتها وآلهة آسيا الصغرى وفارس ولغتهما، كل ذلك ظل ماثلاً حياً في قرى الشرق ومدنه القديمة. و هكذا فإن الحضارة الإغريقية لم تخنق و لم تغط الحضارة الشرقية تماماً، بـــل ظهـــرت الحضارتان معاً حتى أن بعض المؤسسات الشرقية القديمة كانت تظهر أحياناً في ثـــوب إغريقي ظاهري.

ولكن وعلى الرغم من ذلك، فقد جرى تفاعل واختلاط واقعي بين الحضـــارتين فكان تأثير الشرق أقوى في ميدان السياسة والدين، بينما كان تأثير اليونـــان أقـــوى في مجال العلم والفن والفلسفة. لقد كان نظام الحكم في اليونان يقوم على أساس دول المدن المستقلة وعلى النظام الجمهوري فأصبح نظام الحكم تحت تأثير الشرق ملكيـــاً علـــى الطراز الشرقي. وكذلك دخلت على الديانة اليونانية بتأثير الشرق فكرة الحياة الآخـــرة وتسربت الغوامض والأسرار الدينية الشرقية إلى اليونان وأضيفت إلى الآلهـــة اليونانيـــة صفات شرقية جديدة. أما في مجال الفلسفة والعلوم والفنون فكانت الغلبة للفكر اليوناني حيث انتشرت في الشرق فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو وتلاميـــذهم واختلطـــت بالأفكار الشرقية فنشأت مذاهب فلسفية جديدة مثل الرواقية (فلسفة الاحتمال والصبر التي وضعها زينون) والأبيقورية وصاحبها ابيقور الذي يرى أن الســـعي وراء الســـعادة غاية الحياة، كما انتشر في القرن الثالث الميلادي مذهب الريبية (الذي وضعه بـــيرون)، ومذهب الأفلاطونية الحديثة (الذي أسسه أمونيوس وتلميذه أفلوطين في الإســـكندرية وهو مزيج من أفكار أفلاطون والعقائد المسيحية واليهودية). وقد اهتم المثقفون بالفلسفة حتى أصبحت دين الخاصة وانتشرت بين أعوام الشعب أيضاً فأثرت في نواحي حياتـــه العلمية. كذلك أصبح للعلوم مفهوم جديد اتصف بالعالمية بعد أن كان محصوراً في أطر إقليمية ضيقة وأصبح العالم ينقل علمه إلى طلاب قوميات وبلاد مختلفة، كمـــا أصـــبح

المؤرخون الإغريق (هيرودوت مثلاً) يكتبون أيضا عن تاريخ الشعوب الأخـــرى غـــير الإغريقية بعد أن كان تاريخهم يقتصر على الحوادث المحلية بصورة رئيسة [151].



الفصل الخامس

الحضارة الرومانية

– لمحة عامة:

تمتد شبه جزيرة إيطاليا كلسان بري في البحر الأبيض المتوسط ويحيط بها البحر الأدريتيكي من الشرق والبحر التيراني من الغرب ويفصلها عن اليونان في الجنوب الشرقي البحر الأيوني (بحر اليونان)، أما في الشمال فتمتد سلسلة جبال الألب التي تفصلها عن أوروبا، كما تخترقها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي سلسلة جبال الأبنين، بينما تمتد السهول الصالحة للزراعة بين تلك السلسلة الجبلية وشواطئ البحار. ويسود إيطاليا مناخ البحر الأبيض المتوسط وتهطل فيها الأمطار الكافية لزراعة الحبوب والأشجار المثمرة بأنواعها ولنمو الأعشاب اللازمة لإطعام المواشي[152].

ونشأت روما القديمة فوق سبعة تلال مغطاة بالغابات على ضفة نهر التيبر في وسط إيطاليا، وقد وفر لها هذا النهر طريقاً ملائماً إلى البحر الذي يقع على بعد نحو 24 كم إلى الغرب منها، ولكن روما كانت بعيدة عن البحر بما يكفي لتجنيبها غارات القراصنة، وكانت تلال روما شديدة الانحدار، مما ساعدها في الدفاع عن نفسها بسهولة ضد الأعداء. وبالقرب من روما وُجِدت التربة الخصبة ومواد البناء الممتازة.

وقعت شبه الجزيرة الإيطالية، تدريجياً، تحت حكم الرومان، وكانت شبه الجزيرة هذه ممتدة في البحر المتوسط على نحو بارز، وهكذا احتلت إيطاليا مركزاً وسطاً بين البلاد المحيطة بهذا البحر. وفي الشمال ساعدت جبال الألب في حماية إيطاليا من الغزاة القادمين من وسط أوروبا، ولكن الممرات الجبلية كانت تفسح المجال لعبور قلة من المستوطنين، الذين جذبهم مناخ إيطاليا المعتدل وتربتها الخصبة. وكان نمو السكان

المطرد، في وقت لاحق، قد وفر لروما الجنود الذين تحتاجهم لتوسعها.

انتشر الحكم الروماني تدريجياً في البلاد المحيطة بالبحر المتوسط، وأطلق الرومان على هذا البحر اسم بحرنا والبحر الداخلي، وامتدت الإمبراطورية الرومانية، في ذروة اتساعها، في القرن الثاني الميلادي، شمالاً حتى الجزر البريطانية وشرقاً حتى الخليج العربي.

وكان للإمبراطورية الرومانية موارد طبيعية متعددة، من حقول القمح الخصبة في صقلية وشمالي إفريقيا، إلى المناجم المعدنية الغنية في أسبانيا وبريطانيا، ومحاجر الرخام في اليونان. كما وُجدت أيضاً غابات كثيفة في آسيا الصغرى، وبساتين الكروم والزيتون في بلاد الغال (وهي حالياً فرنسا وبلجيكا وجزء من ألمانيا) [153].

ولقد نشأت روما القديمة عندما استوطنت جماعة صغيرة من الرعاة في وسط إيطاليا وأصبحت واحدة من الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ ثم انهارت. فمدينة روما حسب القصص الروماني، تأسست سنة 753 ق.م. وفي نحو سنة 275 ق.م، سيطرت روما على معظم شبه الجزيرة الإيطالية وشملت الإمبراطورية، وهي في أوجها، في القرن الثاني الميلادي، نحو نصف أوروبا والقسم الأكبر من الشرق الأوسط والساحل الشمالي لإفريقيا، ثم بدأت في التفتت، وأطاحت القبائل الجرمانية، المولعة بالحرب، بآخر إمبراطور روماني سنة 476م.

كان الملايين من الناس، الذين عاشوا في الإمبراطورية الرومانية، يتكلمون لغات متعددة، ويتبعون تقاليد وأدياناً مختلفة، ولكن الإمبراطورية الرومانية ربطتهم جميعاً بنظام قانوني وحكم مشترك، وقد أثار هذا الإنجاز البارز الاهتمام والإعجاب منذ الأزمنة القديمة حتى الوقت الحاضر [154].

أولاً– التاريخ السياسي للرومان:

أ– نشوء روما: روى المؤرخون اليونانيون والرومانيون قصة نشوء روما على نحو أسطوري مفاده أن رومولوس وأخاه ريموس (من أحفاد البطل إينياس الذي هاجر من

طروادة إلى سهل لاتيوم بعد سقوطها على يد الآخائيين اليونانيين وذلك بتدخل الآلهة في هذا الأمر) هما اللذان وضعا أسس المدينة (سنة 753 ق.م). وخطط رومولوس بإرادة الآلهة سور المدينة بمحراث رأسه من النحاس وترك في السور ثلاثة أبواب رئيسية للمدينة، ثم قتل أخاه ريموس الذي قفز من فوق السور ساخراً منه، وصاح رومولوس قائلا: «هكذا سيقتل كل من يجتاز سور مدينتي هذه».

ومهما يكن من أمر الأساطير فإن مدينة روما نشأت في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد من اتحاد سبع قرى شامخة فوق سبعة تلال على ضفتي نهر التيبر الذي يخترق سهل اللاتيوم ليصب بعد ابتعاده عن روما خمسين ميلاً في البحر الأيوني المتصل بالبحر الأبيض المتوسط، وقد كان يسكن في أربع من تلك القرى السابينيون وفي ثلاث منها اللاتينيون، وهذا ما يفسر لنا تعاقب الملوك اللاتينيين والسابينيين على عرش روما وفيما بعد الأتروسكيين الذين احتلوا المنطقة.

ب- روما في العهد الملكي الأتروسكي: في القرن السابع قبل الميلاد كان الأتروسكيين يسيطرون على منطقة أترورية، وقد أسسوا فيها عدة مدن ثم أخذوا يتوسعون في المناطق المجاورة فسيطروا على سهل اللاتيوم ومدينة روما وتقدموا جنوبا نحو السواحل فاصطدموا باليونانيين الذين كانوا قد أسسوا مستعمرات لهم في تلك المناطق. وتحالف الأتروسكيين مع القرطاجيين فانتصروا على اليونانيين في معركة بحرية سنة 535 ق.م وأجلوهم عن بعض المناطق، كذلك سيطر الأتروسكيون على منطقة سهل البو في شمال إيطاليا وهكذا أصبحت معظم إيطاليا خاضعة لسيطرتهم في القرن السادس قبل الميلاد. وقد حكم في مدينة روما ثلاثة ملوك من الأتروسكيين بين 616 – 509 ق.م، وكان قد حكمها قبلهم ملكان من السابينيين وملك من اللاتينيين هو مؤسسها الأول رومولوس (الأسطوري).

كان نظام الحكم لدى الأتروسكيين يتمثل بقيام عدة ممالك مدن تشكل فيما بينها

اتحاداً شكلياً لتنظيم السياسة الخارجية، بينما تحافظ كل مملكة مدينة علــى اســتقلالها الداخلي. وتدريجياً بدأ التنافس يزداد بين تلك المدن الأتروسكية ممــا أدى إلى انفصــام عرى اتحادهم الشكلي الذي لم تكن أسسه متينة منذ البداية. وكذلك أخــذ التنــاقص الاجتماعي بالتوتر بين الطبقات وازداد التفاوت الطبقي بين الأتروسكيين، كما تعرض الأتروسكيون أيضاً للضغط من قبل الغاليين في الشمال ومن قبل اليونانيين في الجنــوب وللمقاومة من قبل السابينيين واللاتينيين في الداخل، كل هذه الأمور أدت إلى ضــعف الأتروسكيين وطردهم من مدينة روما وسهل اللاتيوم على يد اللاتينيين الذين خلعــوا آخر ملك أتروسكي في روما سنة 509 ق.م وأعلنوا فيها النظام الجمهوري سنة 508 ق.م. وهكذا بعد أن استطاع الأتروسكيون أن يوحدوا شبه جزيــرة إيطاليــا تحــت سيطرتهم طوال قرن ونصف من الزمن وانحسرت سيطرتهم تلك واضــطروا أخــيراً إلى الانزواء في منطقة أترورية التي كانت مهدهم الأصلي.

جـــ- روما في العهد الجمهوري: بعد أن طرد الملوك الأتروسكيون الأجانب من روما (سنة 509 ق.م) تسلمت زمام الحكم فيها العناصر اللاتينيــة والســابينية الــتي أصبحت تسمى بالرومانيين أي سكان مدينة روما الأصليين، وقد أقام الرومــانيون في روما نظاماً جمهورياً ،رستقراطياً امتد من سنة 508 إلى سنة 30 قبل الميلاد. وبعد طرد الأتروسكيين أخذت مدينة روما تعمل على مد سيطرتها على شبه الجزيــرة الإيطاليــة كلها، ولكنها تعرضت لمقاومة تحالف بعض المدن اللاتينية في سهل لاتيوم ودار الصراع طويلاً في حروب عرفت باسم الحروب اللاتينية التي كانت في نهاية المطاف لصالح مدينة روما. وقد تعرضت روما أيضاً لضغط الغائيين الذين انحدروا من الشمال واقتربوا مــن جدران روما بالذات، ولكن الرومانيين استطاعوا أن يردوهم على أعقابهم ويســيطروا على شمال إيطاليا ووضعوا حاميات رومانية هناك لتتصدى لأي هجوم أجنبي يهــددها في المستقبل. وفيما بعد انكفأ الرومانيون نحو الجنوب وشــنوا حربــاً شــعواء ضــد

المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا وفي صقلية فاستطاعوا أن يخضعوا تلك المنطقة إلى سيطرتهم وهكذا استطاعت روما أن توحد إيطاليا تحت زعامتها فأخذت تمتد ببصرها للتوسع الخارجي.

وعندما بدأت روما بتنفيذ مشروعها التوسعي اصطدمت بدولة قرطاجة التي كان قد أسسها الفينيقيون في شمالي أفريقيا (قرب تونس الحالية) ومن ثم مدوا نفوذهم على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وهكذا بدأت الحروب بين قرطاجة وروما ودامت قرناً ونيف من الزمن. ففي المرحلة الأولى من تلك الحروب (264-241 ق.م) كان النصر حليف روما التي سيطرت على بعض المناطق الخاضعة لقرطاجة. أما في المرحلة الثانية (218-202 ق.م) فكادت أن تكون مدينة روما بالذات ضحية لتلك الحروب، حيث عبر القائد القرطاجي هانيبال إلى إسبانيا ومنها إلى إيطاليا واقترب من جدران روما، ولكن دفاع الرومانيين المستميت عن مدينتهم وفتحهم بعض المعارك الجانبية في صقلية وسردينيا وإسبانيا خفف الضغط عن روما واضطر هانيبال للانسحاب من إيطاليا والتنازل عن بعض المناطق في حوض البحر الأبيض المتوسط لصالح روما. وفي المرحلة الثالثة من تلك الحروب (المعروفة في التاريخ باسم الحروب البونية) دارت الدوائر على قرطاجة فتعرضت للتدمير الكامل على يد الرومانيين وسيطرت روما على الحوض الغربي للبحر المتوسط سيطرة تامة دون منازع.

د- روما في العهد الإمبراطوري: بعد القضاء على دولة قرطاجة طاردت الجيوش الرومانية قبائل الغاليين في شمال إيطاليا، ثم انكفأت نحو الشرق فاستولت بعد خوض المعارك العديدة على مكيدونيا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى وقضت على دولة السلوقيين في سورية سنة 64 ق.م وعلى دولة البطالمة في مصر سنة 31 ق.م. وهكذا امتدت رقعة الإمبراطورية الرومانية ما بين الأطلسي غرباً والفرات شرقاً، وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية.

وفي القرن الأول قبل الميلاد أخذ النظام الجمهوري في روما بالاحتضار إذ حاول بعض الزعماء السياسيين الاستئثار بالسلطة وفرض نوع مـــن الحكـــم الـــديكتاتوري، فنشبت الفتن والاضطرابات (هؤلاء الزعماء هم: ماريوس، سللا بومبيـــوس، يوليـــوس قيصر). ولكن بوصول أوكتافيوس أغسطس إلى الحكم سنة 30 ق.م يلفـــظ النظـــام الجمهوري أنفاسه الأخيرة ويولد نظام سياسي جديد هو النظام الإمبراطوري الذي امتد حتى سنة 476م عندما سقطت روما على يد البرابرة من القوط الغربيين[155].

ثانياً– الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

في مطلع الألف الأولى قبل الميلاد كان التركيب البشري في إيطاليا عبـــارة عـــن خليط مبرقش يتألف من عناصر بشرية متعددة كانت قد توافدت إلى شبه الجزيرة هذه من جهات مختلفة تتضارب آراء المؤرخين على تحديدها، ففي القسم الجنوبي من إيطاليا استقرت مجموعة بشرية أطلق اليونانيين عليها اسم (إيطالي) ومن هنا اشتق فيما بعد اسم إيطاليا والإيطاليين. كما سكن بجوارها (البروتـــون والأوســـكيون). وعلـــى شـــاطئ الأدرياتيكي استقر (السابليون) وإلى الغرب منهم اســـتوطن (المســـابيون والبوكتيـــون والدونيون). وفي وسط إيطاليا سكن (اللاتينيون) في سهل لاتيوم الواقع على الســـاحل الغربي، وإلى الشمال منهم استوطن (الأتروسكيون) في منطقة أتروربة (يطلق هيرودوت على الاتروسكيين اسم التيرينيين نسبة إلى تيرنوس ابن ملك ليديا آتيس الذي أمر ابنه أن يقود قسماً من شعبه إلى إيطاليا بسبب القحط في بلاده فاستقروا في أتروربة فأصـــبحوا يعرفون فيما بعد باسم الأتروسكيين). أما في شمالي إيطاليا فقـــد اســـتقر (الليغوريـــون والريتيون والفينتنتيون). وفي القرن الرابع قبل الميلاد أغار (الكلتيون) على شمال إيطاليـــا واصطدموا بالأتروسكيين وسيطروا على سهل البو بقوة أسلحتهم الحديدية، كما أنـــه منذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ (اليونانيون) يتوافدون إلى جنوب إيطاليا وإلى صـــقلية

ويؤسسون المستعمرات اليونانية هناك [156].

وبالنسبة للحياة في المدينة، فكانت روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وكـــبرى المدن فيها، بلغ عدد سكانها، في أوج نموِّها نحو مليون نسمة، ولم يسبق لمدينة من المدن القديمة أن وصلت إلى مثل هذا الحجم والازدهار. وكانت الإسكندرية، في مصر، ثانية المدن الكبرى في الإمبراطورية، وعدد سكانها 750 ألف نسمة. ووُجدت مدن مهمـــة أخرى في الإمبراطورية كأنطاكية في سوريا والقسطنطينية (إسطنبول حالياً).

وكانت المدن في الإمبراطورية الرومانية مراكز للتجارة والثقافة، وقـــد خططهـــا المهندسون الرومان بعناية فائقة، شيّدوا المباني العامة في أمـــاكن مناســـبة، وزودوهـــا بشبكات المياه والمجاري. وكان الأباطرة أو الأثرياء يدفعون الأموال اللازمـــة لإنشـــاء المباني العامة الضخمة، مثل: الحمامات والملاعب الرياضية والمسارح. وفي قلب المدينـــة يقع الفورم الروماني، وهو ميدان كبير مكشوف تحيط به الأسواق والمبـــاني الحكوميـــة والمعابد، وقد اختلط الغني بالفقير في هذا الميدان الصاخب، وفي الحمامات والمســـارح والملاعب.

أما الحياة في الريف؛ فقد كان الرومان الأوائل رعاة ومزارعين، وفي روما القديمة كوَّن المزارعون، الذين يعملون في أراضيهم الخاصة، العمود الفقري للجيش الرومـــاني، وكان هؤلاء يزرعون محاصيلهم في الربيع ويحصدونها في الخريف. أما خـــلال الصـــيف فيُجندون في الجيش.

وقد تغيرت الحياة الريفية بعد أن بدأت روما في توسيع رقعتها؛ إذ أُرســـل عـــدد كبير من المزارعين لخوض الحروب الخارجية لفترات طويلة، وبذلك كانوا مضطرين لبيع أراضيهم، فأقام أثرياء الرومان مزارع كبيرة زرعوا فيها المحاصيل وربوا المواشي من أجل التجارة، واشتروا المستعبدين للعمل لديهم، كما كـــانوا أيضـــاً يـــؤجرون الأراضـــي للمزارعين التابعين لهم. وكانت الحياة شاقة بالنسبة لمعظم المزارعين، ولكنـــهم كـــانوا

يتشوقون إلى الأعياد الدورية التي تقام عند زراعة الأرض وحصادها، وكانت تشـــتمل على ألعاب رياضية وتسليات أخرى(157).

و كان الرومان يتمتعون بعطل كثيرة وكانوا يحرصون عليها، وكانت معظم هذه العطل دينية، وأصبحت كثيرة إلى حد كبير خاصة في أوائل القرن الثاني الميلادي (ســـنة 101 وما بعدها)، حتى أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس حدّ من عـــددها وجعلـــها 135 يوماً في السنة، وفي كثير من هذه العطل كان الإمبراطـــور أو موظفـــو الدولـــة الأغنياء يتبنون إقامة أنشطة الترويح العام مجانـــاً في مســـارح مكشـــوفة واســـعة ذات مدرجات وتعرف بالمسارح المدرجة، وكان أشـــهر هـــذه المســـارح المكشـــوفة ذات المدرجات الكولوسيوم الذي كان يتسع لنحو 50000 متفرج. وكان أكثـــر هـــذه الأنشطة الترويحية ذا طابع عنيف تسفك فيه الدماء، فمثلاً كان هناك بعـــض المحـــاربين المدربين على فنون القتال، وكان يُسمَّى الواحد منهم المجالد، وكانوا يؤخذون إلى الحلبة داخل المدرج ليقاتل أحدهم الآخر حتى الموت. وكان معظم هـــؤلاء المجالـــدين مـــن المستعبدين، أو من أسرى الحرب، أو من المجرمين الذين حكم عليهم بالموت، وفي بعض الحالات كان هناك بعض الرجال المسلحين الذين يطلـــب منـــهم أن يقـــاتلوا بعـــض الحيوانات المتوحشة أو المتضورة جوعاً، كما كانت تلك الحيوانات تهجم على أولئـــك المجرمين الذين يراد إعدامهم.

وجذب سباق عربات الخيول أعداداً كبيرة من الناس في روما القديمة، حيث كان السباق يأخذ مجراه في مضمار بيضي الشكل طويل المدى يسمى المدرج، وكانت ساحة السباق الرومانية أكبر مضمار في روما، يتسع لنحو 250000 شخص، وكان سائقو العربات المهرة يعدون أبطالاً لهم شعبيتهم ومكانتهم السامية بين الجماهير، وكان كـــثير من الرومانيين يراهنون على من يفضلونهم من بين هؤلاء المتسابقين.

كانت هناك ثلاثة مسارح في روما تعرض عليهـــا المســـرحيات الكوميديـــة،

والمسرحيات الجادة التي ألفها بعض الكتاب من الإغريق أو الرومان، ولكـــن معظـــم الرومانيين كانوا يفضلون التمثيل الصامت الذي يتناول حياتهم اليومية، أو القصص التي تروى عن طريق استخدام الموسيقى والرقص أثناء السرد أو ما يعرف بالتمثيل الإيمائي.

واعتاد أباطرة الرومان على بناء بعض الحمامات العامة التي يظهر فيهـــا البـــذخ والتي يستخدم في تزيينها الرخام والذهب، وذلك لتشجيع الناس على الرياضة اليوميـــة والاستحمام. وكان المستحمون يمرون من خلال غرف مليئة بالبخار الحـــار، وبـــرك داخلية فيها ماء حار وبارد ودافئ، وكان الرومان يزورون الحمامات بغرض التَّـــرويح ومقابلة الأصدقاء، وكان يحيط بهذه الحمامات بعض ميـــادين التـــدريبات الرياضـــية والحدائق، وغرف الجلوس والمكتبات[158].

أما النشاطات الاقتصادية، فتأتي في مقدمتها الزراعة؛ فكان نحو90% من سكان العالم الروماني يعيشون عليها، فقد أدرك الرومان الحاجة إلى محاصيل دورية، كما عرفوا أيضاً أن تَرْك نصف الحقل بوراً كل سنة يجعل التربة أغنى لزراعة المحاصـــيل في الســـنة التالية، ولكن قلة من أصحاب الأراضي استطاعوا تحمُّل مثل هذا الأسلوب.

زرع الفلاحون الوديان الخصبة، شمالي وجنوبي مدينة روما، حبوباً، مثل القمـــح والشيلم والشعير. أما على منحدرات التلال، وفي التربة الأقل خصوبة، فقـــد زرعـــوا الزيتون والكرم، وربوا الغنم والماعز. كما ربّى المزارعون الرومان الخنـــازير والأبقـــار والدجاج. وعندما توسعت الإمبراطورية تزودت روما بمنتجات زراعية عديـــدة مـــن مزارع الغال وإسبانيا وشمالي إفريقيا.

أما الصناعة؛ فإن روما لم تصبح مركزاً صناعياً في العصور القديمة إطلاقاً؛ فقـــد كانت تستورد معظم السلع المصنعة، ولكن مناطق إيطالية أخرى كانت تزود العاصـــمة بمنتجات، مثل الفخار والأواني الزجاجية والأسلحة والأدوات والمنسوجات. كما أنهـــا صنعت الآجر والأنابيب الرصاصية التي يحتاجها الرومان لأشـــرعة الســـفن، وعنـــدما

توسعت الإمبراطورية تطورت مراكز صناعية مهمة خارج إيطاليا، كانت بمثابة أسواق محلية وصدَّرت سلعاً إلى روما.

وكان التعدين واحداً من أكثر نشاطات روما القديمة أهمية، فقد تطلبت مشـاريع البناء الضخمة في الإمبراطورية كميات كبيرة من الرخام والمواد الأخرى، وجاء الرخام من اليونان وشمالي إيطاليا. كما وُجد في إيطاليا النحاس ومناجم غنية بخام الحديد، وجاء القسم الأكبر من الذهب والفضة في الإمبراطورية من أسبانيا، وأنتجت مناجم بريطانيـا الرصاص والقصدير، وكان العمل في المناجم شاقاً وغـير صـحي، وأجـبر الرومـانُ المستعبدين والمجرمين المحكومين وأسرى الحروب على العمل فيها.

و ازدهرت التجارة مع توسع الإمبراطورية الرومانية، فقد نقلت السفن البحريـة الضخمة البضائع بين موانئ البحر المتوسط، ومن ثم كانت العربات والمركبات تقـوم بنقل هذه البضائع على شبكة الطرق الإمبراطورية الواسعة.

وكانت الواردات الرئيسية لمدينة روما تشتمل على المواد الغذائية والمـواد الخـام والسلع المصنعة، وصدَّرت شبه الجزيرة الإيطالية الخمور وزيت الزيتون، وتاجر الرومان مع بلاد تقع خارج الإمبراطورية أيضاً. فقد استوردوا، مثلاً، الحرير من الصين، والتوابل والأحجار الكريمة من الهند وجنوبي الجزيرة العربية، والعاج من إفريقيا.

وسكَّت الحكومة الرومانية قطعاً نقدية من الذهب والفضة والنحاس والبرونـز، وتحكمت بالموارد المالية لجعل التجارة أكثر سهولة [159].

ثالثاً- التاريخ الحضاري للرومان:

1-التعليم: لم يكن في روما القديمة مدارس للدولة، فكـان الأطفـال يتلقـون تعليمهم الأول في البيت تحت إشراف والديهم، وكان معظم الأولاد وبعض الفتيات، ما بين سن السادسة أو السابعة حتى العاشرة أو الحادية عشرة مـن عمـرهم، يلتحقـون بمدارس خاصة أو يدرسون في منازلهم، وكانوا يتعلمون القراءة والكتابـة والحسـاب.

وكان المستعبدون يعلّمون الأولاد في عدد كثير من المنازل؛ ومن الجدير بالذكر أن بعض المستعبدين، وبصفة خاصة الذين كانوا من الإغريق، ظهروا أكثر تعليماً من ساداتهم.

أما معظم الرومان الذين كانوا يتلقون تعليماً أكثر من ذلك، فقد كانوا من أبناء العائلات الثرية الذين يدرسون حتى الرابعة عشرة، بصورة رئيسية، قواعد اللغتين اللاتينية واليونانية والأدب، وكذلك الرياضيات والموسيقى والفلك.

كان التعليم العالي، في روما القديمة، يعني دراسة الخطابة، والرومان الذين درسوا الخطابة من أبناء الطبقة العليا هم وحدهم الذين مارسوا مهنة القانون أو السياسة؛ لأن التدريب على الخطابة كان يوفر المهارات اللازمة لطرح المشكلات أمام المحاكم القانونية أو مناقشة المسائل في مجلس الشيوخ الروماني. وكان الطلبة يدرسون أحياناً الفلسفة والتاريخ أيضاً من أجل تحسين قدراتهم خطباء في المحافل العامة. أما النساء اللواتي درسن الخطابة فقدكن قلة، لأن عالم السياسة كان حكراً على الرجال(160).

2- العلوم والآداب: كانت الكشوف العلمية للرومان القدماء قليلة، غير أن أعمال العلماء الإغريق ازدهرت في ظل الحكم الروماني، فطاف الجغرافي الإغريقي سترابو في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وكتب وصفاً دقيقاً لما شاهده. كما طوّر الفلكي اليوناني بطليموس، الذي عاش في مصر، نظرية الكون، التي ظلت مقبولة لنحو 1500 سنة. وافترض الطبيب الإغريقي، جالينوس، نظريات طبية مهمة اعتمدت على تجارب علمية. وجمع الرومان أنفسهم مجموعات مهمة من المعلومات العلمية، فصنّف بليني الأكبر، مثلاً، دائرة معارف في 37 مجلداً بعنوان: التاريخ الطبيعي.

أما الأدب؛ فقد تأثر تأثراً كبيراً بشعر الإغريق وآثارهم المسرحية، وكيَّف الشعراء والمسرحيون الرومان؛ من أمثال: نايفيوس وإنيوس، والكتاب المسرحيون؛ من أمثال: تيرينس بلاوتوس، الأشكال الإغريقية من أجل الجمهور الروماني. كما بنى قيصر

وسالُّوست كتاباهما التاريخية على النماذج الإغريقية. وأبدع شعراء روما الكبار؛ أمثال: كاتولّوس ولوكريتيوس وأوفيد وفيرجيل، وتاكيتوس ــ ألمع مؤرِّخي روما ــ أعمالاً عظيمة وأصيلة، هذا بالإضافة إلى مؤلفات أخرى مهمة في الأدب اللاتيني تشتمل على خطب شيشرون ونقائض هوراس وجوفينال، ورسائل شيشرون وبلينيوس الأصغر (161).

إذن؛ ليست الحضارة الرومانية في مجال العلوم والآداب والفكر سوى استمرار للحضارة اليونانية، والرومانيون مقلدون أكثر مما هم مبتكرون وقلدوا اليونانيين بصورة خاصة، ففي الرياضيات لم يضعوا نظريات جديدة، وإنما طبقوا عملياً نظريات العلماء اليونانيين بشكل ممتاز وخاصة في هندسة البناء.

أما في الفلك فقد اقتصروا على وضع تقويم مشحون بالأخطاء العلمية، وحتى القرن الثالث قبل الميلاد لم يعرفوا من الطب سوى التداوي بالأعشاب وبالرقى والسحر، بينما كثر فيما بعد الأطباء اليونانيون الذين يعملون في روما. وقد وجدت بعض المدارس الخاصة لتعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة والحساب والتاريخ وحب الطاعة والتفاني في سبيل الوطن، ثم أصبحت تدرس اللغة اليونانية لأنها ضرورية لكل من يريد التعمق والتوسع في مختلف العلوم.

وإذا كانت روما قد استعمرت بلاد اليونان سياسياً فإن اليونان قد استعمرت روما في جميع المجالات الفكرية، إذ بعثت إلى العوام بالدين اليوناني والمسرحيات الهزلية وإلى الطبقات العليا بالأخلاق والفلسفة اليونانية، وقد استمر هذا الاستعمار حتى نهاية عصر النهضة. وكان الرومانيون ضيقي الخيال ضعفاء الإبداع في ميدان الأدب، فعملوا على ترجمة إلياذة هوميروس وكثير من المسرحيات الشعرية. ولكن الرومانيين لم يتذوقوا المأساة فتضاءل شأنها وأحيوا الملهاة فتطورت وازدهرت وترجمت عن اليونانية وأعطيت طابعاً رومانياً. وقد نجح كتّابهم الا نتقاديون وأبدعوا في نقد مساوئ الحياة الاجتماعية

مما زاد تعلق العوام بالمسرحيات الانتقادية الهزلية. أما في مجال النثر فكان مـــن أشـــهر الكتاب الرومانيين في العهد الجمهوري فابيوس فيكتور كوليوس الذي وضـــع تاريخـــاً للحروب البونية الثانية بأسلوب يوناني، ومنهم أيضاً الكاتب المشهور كاتون الذي تأثر بالثقافة اليونانية ولكنه استاء من سيطرة الفكر اليوناني على الرومان، وقـــد كتـــب في الخطابة والزراعة والعلوم العسكرية والقانون، ومن أقطاب النثر الفني في نهايـــة العهـــد الجمهوري الخطباء السياسيون يوليوس قيصر وشيشرون وهورتانسيوس.

وفي العهد الإمبراطوري ازداد انتشار المذاهب الفلسفية واهتم الرومانيون بصورة خاصة بالفلسفة الرواقية ولكنهم لم يهتموا بما كانت تبحثه من مسائل ما وراء الطبيعة، وإنما حولوها إلى فلسفة عملية اتصفت بالجد والصرامة مما يتلاءم مع المزاج الرومـــاني. كذلك ازدهرت العلوم الجغرافية النظرية والعملية وازدادت المعرفـــة الجغرافيـــة نتيجـــة التوسع فوضعت خريطة للإمبراطورية الرومانية ودليل جغرافي، ومن أشهر الجغـــرافيين مارينوس (من صور) وبطليموس القلوذي (من الإسكندرية) اللذان ذهبا إلى روما لوضع أطلس جغرافي. وقد ازدهرت التعليم منذ من القرن الأول قبل الميلاد وأصبحت الدولـــة تنفق على التعليم وعلى المدرسين وفُتحت المدارس ليس في روما فقط وإنما في سائر مدن الإمبراطورية، ثم نشأت المعاهد العليا والجامعات بعد الميلاد.

واشتهر في أواخر القرن الأول قبل الميلاد الشاعر العبقري فرجيل الـــذي وضـــع ملحمة الإنيادة على غرار إلياذة هوميروس، وتبدأ أحداثها منذ تأسيس روما وما تـــلاه من أحداث. ومن شعراء هذه المرحلة البارزين هوراس، ومن المؤرخين الكبار تيت ليف الذي وضع كتاباً عن تاريخ روما. وقد ظل الأدب الروماني وثنياً حتى القرن الثالث بعد الميلاد حين نشأ إلى جانبه أدب مسيحي بعد انتشار المسيحية في الإمبراطورية الرومانيـــة (162).

3- العمارة والهندسة:

تبنّى الرومانُ القدماء الأشكالَ الأساسية للعمارة الإغريقية، التي اشتملت على المعبد المحاط بالأعمدة، والرواق المسقوف الذي كان يعرف باسم بورتيكو، وابتكروا، إضافة إلى ذلك، أشكالاً جديدة من الأبنية، مثل الحمامات والقاعات العامة التي تتسع لعدد كبير من الناس. وعلى العموم فقد صمم الرومان مباني أكبر من مباني الإغريق وأكثر ضخامة منها.

وهناك إنجازان، من إنجازات الهندسة الرومانية، جعلا بناء العمائر الرومانية الضخمة أمراً ممكناً، أولهما: القوس، وثانيهما: الملاط الخرساني (المِلاَط: إسمنت أو طين يُطلَى به الحائط). فالأقواس كانت تدعم أبنية مثل الجسور والأقنية التي كانت تنقل المياه إلى المدن الرومانية، وكانت السقوف المُحمَّلة على الأقواس وتعرف بالعقود تسمح بترك مساحات داخلية واسعة ضمن الأبنية، وقد ألغت هذه السقوف المحمولة على الأقواس الحاجة إلى الأعمدة لحملها. ومع أن الرومان لم يكونوا مبتكري الأقواس، إلا أنهم كانوا من أوائل من نقلوها إلى حيز الواقع، ووفّر الملاط الخرساني الذي ابتكره الرومان، مادة بناء قوية بالنسبة إلى الجدران والسطوح المقبَّبة.

أما النحت والرسم: فقد اقتبس النحاتون والرسامون الرومان أعمالهم من الفن الإغريقي ومن التقاليد الإيطالية المحلية، وبالتالي فقد عكست أعمالهُم الفنية الأشكال الإنسانية النابضة بالحياة من الفن الإغريقي، كما عكست الجوانب الأكثر واقعية للفن الإيطالي المحلي.

أبدع النحاتون الرومان صوراً واقعية تمثل أشخاصاً معينين، كما أنهم صوروا أحداثاً تاريخية بالنحت على المنشآت العامة الضخمة، فمذبح السلام، مثلاً، المزخرف غاية الزخرفة، يمجد السلام الذي جاء به الإمبراطور أوغسطس إلى الإمبراطورية، كما كانت هناك منحوتات على الأعمدة العالية، وعلى أقواس النصر تصور الحملات العسكرية.

وزينت رسوماتُ الجدران الضخمة بيوتَ الطبقة الميسورة من الرومان، وتُظهر مثل هذه الرسومات مناظر الحدائق وأحداثاً من الأساطير الرومانية ومشاهد من الحياة اليومية، وجعلت الرسومات الملونة بألوان عديدة والمبتكرة باهتمام ودقة، الغرف في البيوت تبدو أجمل وأكثر بهاءً.

4- التراث الروماني:

سقطت الإمبراطورية الرومانية بوصفها قوة سياسية، ولكن ثقافتها ونظمها استمرت وشكلت الحضارة الغربية والعالم البيزنطي، فلقد أصبح القانون الروماني أساساً لنظم تشريعية عديدة في أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية، كما بقيت اللغة اللاتينية لغة الأوروبيين المتعلمين لمدة تزيد على 1000 سنة، وانبثقت عنها اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية ولغات رومانسية أخرى. وما يزال فن العمارة الروماني يلهم تصاميم المباني العامة إلى يومنا هذا.

نقلت الإمبراطورية الرومانية نظامها الاجتماعي والاقتصادي إلى القرون الوسطى، وهي مرحلة التاريخ الأوروبي الممتدة من القرن الخامس الميلادي حتى القرن السادس عشر، وفي غضون القرون الوسطى حلت كنيسة الروم الكاثوليك محل الإمبراطورية الرومانية بوصفها القوة الموحدة في أوروبا. وكانت الكنيسة قد صاغت بنيتها الإدارية على غرار هيئة الإمبراطورية الرومانية، واستعملت اللغة اللاتينية كما حافظت على كلاسيكيات الأدب اللاتيني[163].

كان لروما القديمة تأثير كبير على تطور الحضارة الغربية؛ لأن هذه الإمبراطورية كانت واسعة للغاية، ودامت زمناً طويلاً، فقد أصبحت لغة الرومان القدماء أساساً للغة الفرنسية والإيطالية والإسبانية، واللغات الرومانسية الأخرى. كما قدم القانون الروماني الأساس للنظم التشريعية لمعظم بلدان أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية. وأسهمت مبادئ العدالة الرومانية والنظام السياسي الروماني في إقامة حكومات في عدد كبير من البلاد في

الغرب. كما ظلت بعض الطرق والجسور والقنوات الرومانية تستخدم نماذج للمهندسين في العصور اللاحقة [164].

الفصل السادس

حضارات أمريكا

أولاً– السكان الأوائل لأمريكا:

كان الهنود الحمر هم أول السكان الأصليين لأمريكا اللاتينية، ويرى العلماء أن أسلاف هؤلاء الهنود قدموا إلى أمريكا الشمالية من آسيا منذ ما يزيد على 20,000سنة حيث كان هناك برزخ يصل بين آسيا وأمريكا الشمالية عبر ما يعرف الآن باسم مضيق بيرنج وهذا المضيق يفصل الآن بين آسيا وألاسكا. ومن المحتمل أن يكون بعض الناس من آسيا قد عبروا هذا البرزخ وهم يتابعون بعض حيوانات الصيد. وقد أصبحت سلالة هؤلاء يعرفون باسم الهنود الحمر، وفي حوالي عام 6000 قبل الميلاد انتشر هؤلاء الهنود في معظم أرجاء الأمريكتين حتى الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية.

ظل الهنود الحمر لآلاف السنين يعيشون في مجموعات صغيرة، كانوا يتحركون باستمرار بحثاً عن حيوانات الصيد والنباتات البرية كطعام لهم. ثم قام بعض الهنود، في النهاية بزراعة الأرض. كان الهنود هم أول شعب زرع الكاكاو والذرة الشامية والفاصوليا والفول السوداني والبطاطس والقرع والتبغ والطماطم. كان بإمكان الهنود، الذين مارسوا الزراعة العيش في بقعة واحدة حيث ينتجون طعاماً يكفيهم ويكفي غيرهم، قام المزارعون منهم بالاستقرار في مكان واحد وإنتاج طعام لكثير غيرهم، وقام هؤلاء ببناء المنازل الدائمة والاستقرار في قرى صغيرة، ومع زيادة السكان الهنود نمت بعض القرى وتحولت إلى مدن صغيرة ثم مدن كبيرة وعواصم وأدى هذا التطور إلى نمو حضارات متقدمة[165].

ومن المحتمل أن تكون حضارة الهنود المبكرة في أمريكا تعود جذورها إلى حضارة الأولمك، التي تقع في المنطقة التي تعرف الآن بشرق المكسيك فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس قبل الميلاد. أما حضارة المايا التي نشأت في منطقة جنوب المكسيك وشمال أمريكا الوسطى فقد وصلت إلى قمة ازدهارها فيما بين منتصف القرن الثالث والقرن العاشر الميلاديين. أنتجت حضارة المايا مجموعة رائعة من المعمار والتصوير التشكيلي والخزف والنحت، كما توصلت هذه الحضارة إلى اختراع التقويم السنوي وكذلك نظاماً متقدماً للكتابة، كما امتلك المايا معرفة متقدمة بالفلك مما ساعدهم على التنبؤ بدقة بمواسم زراعة محاصيلهم، كما استطاعوا بناء شبكات متشعبة من قنوات الري تحت الأرض.

استطاع التولتك التحكم في وسط المكسيك من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر الميلاديين، ولكن الأزتك في بداية القرن الخامس عشر الميلادي استطاعوا أن يحلوا محل التولتك ويصبحوا أقوى شعوب المنطقة. استمرت حضارة الأزتك مزدهرة حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي، واستطاع كل من التولتك والأزتك بناء أهرامات ضخمة ومبانٍ مازالت بقايا كثير منها موجودة حتى الآن. كما أن شعب الإنكا استطاع أن يحكم إمبراطورية ضخمة حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي، وأتقنت شعوب الإنكا الزراعة ووصلوا إلى درجات عالية في المعمار، وبنوا شبكة واسعة من الطرق عبر جبال الأنديز لكي يربطوا مدن إمبراطوريتهم المتباعدة مع بعضها البعض، واستطاع مزارعو الإنكا بناء مصاطب زراعية في منحدرات الجبال ثم جلبوا المياه إلى هذه القطع بواسطة قنوات الري[166].

إذاً قامت في أمريكا الوسطى والجنوب حضارات أهمها:

الآزتك: وذلك في القرن السادس عشر الميلادي في شمال غربي المكسيك، كان حكمها ملكياً، وتركزت عقيدتها الدينية حول عبادة إله يرمز إلى الشمس.

والمايا: في أمريكا الوسطى التي تأسست سنة 300م واندثرت بسبب الكوارث الطبيعية سنة 900م، ثم عادت إلى الظهور في القرن العاشر الميلادي، وبقيت مجهولة حتى اكتشفت مصادفة سنة 1840م. امتازت بوجود كتابة تصويرية، مع ازدهار الفلك والعمارة وأكثروا من الأهرامات.

والأنكا: في غربي أمريكا الجنوبية في جبال الأنديز، قامت سنة 1200م، وقضى عليها المستعمرون الأوربيون سنة 1533م، وكانت حضارتها زراعية (167).

ثانياً – الأزتك.

1- الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

تألف مجتمع الأزتك من أربع طبقات رئيسية هي: أ- طبقة النبلاء. ب- طبقة العامة. ج- طبقة الأتباع د- طبقة العبيد. وعلى الرغم من هذا التقسيم الطبقي فقد ارتبطت عائلات من طبقة النبلاء بعائلات من طبقة العامة بصلات قربى وثيقة، وانتمت هذه العائلات كلها إلى مجموعات الكالبولي، وامتلك أفراد المجموعة مساحة من الأرض ملكاً مشتركاً، وكان يُسمح لكل عائلة أن تزرع قطعة كبيرة من الأرض تكفي لسد حاجاتها، وبالإضافة إلى أرض الكالبولي كان معظم النبلاء يمتلكون أراضي خاصة بهم أو أراضي كانوا قد حصلوا عليها من الحكومة لاستخدامها خلال شَغْلِهم لمناصبهم الحكومية. وشَكَّلَ العامة غالبية السكان، وعاش عددٌ كبيرٌ منهم على زراعة أراضي الكالبولي. وعمل الأتباع في الأراضي التي يملكها النبلاء، وكانوا يستمرون فيها وإن انتقلت ملكيتها إلى نبيل جديد. وكان العبيد يُعدّون ملكية خاصة، لكن أولادهم كانوا يولدون أحراراً، وكان عدد كبير من العبيد أسرى حرب وعدد آخر اشتراه الأزتك من جماعات أخرى، وهناك عبيد استُرِقُوا؛ لأنهم كانوا مجرمين أو أناساً عجزوا عن دفع ديونهم (168).

وكان يعيش في مدينة تينوختيتلان نحو مليون إنسان في بيوت حجرية مؤلفة من

طابق واحد وذات سطوح مستوية، وتركزت المدينة حول معبدين هرميين كانا يرتفعان فوق 30م، هناك كان الكهنة يقدمون الأسرى للآلهة كقرابين في حفلات طقسية.

تكلم الأزتك لغة تُسمى ناهواتل، تنتمي إلى مجموعة كــبرى مـــن اللغـــات الهنديـــة تعـــرف بعائلـــة أزتـــك ـــ تانوان أو يوتو أزتكان اللغوية ـــ كما تضم هذه العائلة اللغات التي تتحدث بها قبائل كامنشي وبيما وشوشوني، وقبائل أخرى في أمريكا الشمالية الغربية.

واستخدم الأزتك شكلاً من الكتابة يوصف بالكتابة التصويرية، وتتألف من صور صغيرة، ومنها ما يرمز إلى معاني الأشياء المصورة ومنها ما يعطي أصواتاً لمقاطع لفظية.

ولم يكن تطور نظام الكتابة التصويرية كافياً ليقدم تعبيراً كاملاً عن الأفكار، وقد استخدم الأزتك هذا النظام، بصـــورة رئيســـية، مـــن أجـــل الســـجلات التجاريـــة والإحصائيات والكتابات التاريخية والدينية وقوائم الضرائب[169].

أما بالنسبة لنشاطات الأزتك فلم تكن الثيران والخيول والدولاب معروفة في مملكة الأزتيك كما في كل أمريكا قبل اكتشافها، وكان التجار ينتقلون من مدينة إلى أخـــرى .بموكب طويل من الحمالين الذين يحمل كل منهم حملا من نحو 30 كغ على ظهـــره، وكان يقام في كل مدينة سوق كل عشرين يوماً حيث تجري مقايضة البضائع بعضـــها ببعض.

ازدهر في مملكة الأزتيك الحفر على الخشب وتصنيع الأحجار الكريمة والنســـيج، وكتب الكهان كتباً جلدية كانت تطوى على شكل الأكورديون، ويوجد في بعض هذه الكتب التي كتبت بإشارات صورية مختصر لتاريخ القبيلة البالغ ألـــف ســـنة. وعـــرف الأزتيكيون الخرائط أيضاً ووضعوا نماذج جيدة منها استخدم إحداها أحد القادة الأسبان عند عبوره شبه جزيرة يوكاتان [170].

كانت الزراعة أساس الاقتصاد عند الأزتك، وأكثر المحاصيل أهمية الذرة الشامية.

وكانوا يزرعون أيضاً الأفوكادو والفاصوليا والدباء والبطاطا الحلوة والطماطم وعـــدداً كبيراً من المحاصيل الأخرى. وقد وفرت الأراضي المنخفضة المنتجات الاستوائية مثـــل: القطن والباباي والمطاط وحبوب الكاكاو التي تصنع منها الشوكولاته.

كانت الآلة الزراعية الأساسية هي عصا مدببة تستعمل للحفر، ولجأ المزارعون في الأراضي المنخفضة، المغطاة بغابة كثيفة، إلى عمليتي القطع والحـــرق، حيـــث كـــانوا يقطعون جزءاً من الغابة ويحرقونه، ثم يزرعون المحاصيل في الأراضي التي تم تنظيفها، كان الرماد يزيد من خصوبة التربة. وشق الأزتك في الأراضي المرتفعة المصاطب في جوانـــب التلال كي يزيدوا من مساحة الأرض الزراعية. كما أنهم حفروا شبكات الري لســـقي محاصيلهم، وبالإضافة إلى ذلك حوَّل المزارعون بقعاً من البحيرات الضـــحلة إلى أراضٍ زراعية بجرف الطين من قاع هذه البحيرات وتشكيله على هيئة جُزر، كانـــت تعـــرف باسم تشينامباس، وكان المزارعون يضيفون، بصورة منتظمة، طينـــاً جديـــداً في غايـــة الخصوبة، وأدى ذلك إلى الإنتاج الوفير من المحاصيل الزراعية لجزر التشينامباس، ومايزال في بحيرة زوخيملكو في مدينة مكسيكو سيتي، عددٌ كبيرٌ من التشينامباس، وعلى الرغم من أن هذه الجزر غير عائمة، أي غير محاطة بالمياه، إلا أنهم غالباً ما كانوا يطلقون عليها اسم الحدائق العائمة.

وعرف الأزتك التجارة والنقل، فكانت ساحة السوق مركزاً رئيســـياً في حيـــاة الأزتك، فكان سوق تلاتيلولكو أكبر سوق في الأمريكتين، وقد عُرضت في هذا السوق كل أنواع السلع المتوافرة في عالم الأزتك، وكتب المكتشف الأسباني هرناندو كـــورتيز بأن أكثر من60 ألف نسمة يزورون هذا السوق يومياً، وكان هناك عددٌ كـــبيرٌ مـــن الأسواق الصغيرة في أرجاء الإمبراطورية، وكان موظفو الحكومة يشرفون على التجارة.

وكان التجار يعرفون باسم بوشتيكا، ويجوبون كل أرجاء الإمبراطورية في حملات تجارية، استخدم التجار عدداً كبيراً من الحمالين يسيرون في قوافل طويلة وهم يحملـــون

على ظهورهم حمولات ثقيلة. وتَاجَرَ سكان الأراضي المنخفضة بمنتجاتهم من الكاكاو والقطن والمطاط وجلود نمور اليغور وريش الطيور المدارية. وتسلموا مقابلها سلعاً من الأراضي المرتفعة، منها السبج (الزجاج البركاني) الذي كان يستخدم في صناعة السكاكين، ومجموعة منوعة من المنتجات المصنعة[171].

وكان للدين أهمية فائقة في حياة الأزتك، وكرَّس الناس معظم أوقاتهم للعبادة، حتى أنهم كانوا يشنون الحروب، بصورة رئيسية بغية الحصول على أسرى يقدمونهم قرابين لآلهتهم.

عبد الأزتك مئات من الآلهة، وكانوا يزعمون بأن لكل واحد منها سيطرة على حركة أو أكثر من الحركات البشرية، أو على مظهر أو أكثر من مظاهر الطبيعة. ولما كان اقتصاد الأزتك يعتمد على الزراعة كان لشعبهم عدد كبير من الآلهة الزراعية، منها سنتيوتل للذُرة، تلانوك للمطر والخصب، زايب توتك للربيع وإحياء الأرض.

كان للأزتك كثير من الطقوس الدينية، ويُقام أكثرها أهمية أيام الزراعة والحصاد، ومناسبات أخرى خلال السنة الزراعية. وكان العديد من هذه الطقوس الدينية تهدف إلى ضمان محاصيل وفيرة حسبما كانوا يعتقدونه من عطف آلهتهم.

أَدّت القرابين البشرية دوراً أساسياً في معظم الطقوس الدينية، وكان الكهنة يشقون صدر الضحية الحية وينتزعون منها القلب، إذ كانوا يعتقدون أن آلهتهم تحتاج إلى قلوب ودماء بشرية كي تبقى قوية. وكان المتعبدون يأكلون، أحياناً، أجزاء من جسد الضحية، وربما كانوا يعتقدون أيضاً أن قوة الشخص الميت وشجاعته تنتقل إلى كل من يأكل لحمه، وكان معظم الضحايا من أسرى الحروب أو العبيد، ولكن الأزتك كانوا يضحون بأولادهم لإلههم تيالوك.

كان التقويم الديني عند الأزتك يتألف من 260 يوماً، وقد استخدم الكهنة التقويم لتحديد أيام السعد للقيام ببعض الأعمال، مثل بذر المحاصيل وبناء البيوت

والخروج إلى الحرب، كما كان لهم تقويم شمسي يتألف من 365 يوماً، وكان التقويم الأخير يتألف من 18 شهراً، وكل شهر يتألف من 20 يوماً، علاوة على خمسة أيام إضافية.

كان الأزتك يقيمون احتفالاً كبيراً كل 52 سنة، يُدعى ربط السنوات أو مهرجان النار الجديدة، وقبل بداية الاحتفال يطفيء الناس مواقد نيرانهم، ليشعل الكهنة ناراً جديدة فوق صدر أحد القرابين عند فجر دورة الـ 52 سنة الجديدة. وكان الناس يقومون بوخز أنفسهم ليضيفوا دماءهم إلى القربان، ومن ثم يشعلون من هذه النار الجديدة، نيران مواقدهم ثانية، ثم يحتفلون[172].

2- حضارة الأزتيك:

أخذت قبيلة هندية صغيرة فقيرة عام 1168 حضارة التولتيك وأسست مملكة شملت مع مرور الزمن نحو خمسة ملايين إنسان، وكان هؤلاء الأزتيك أو «الناس المنظمين في صفوف».

هاجر الأزتيكيون بعد انهيار مملكة التولتيك نحو الجنوب، وتروي الأسطورة أنهم عاشوا قبل أن يطوروا حضارتهم على جزيرة في أحد البحار، وهناك ظهر لهم إلههم Huitzilopochtli الذي أمرهم بالبحث عن الإشارة الخاصة به وقال لهم أنهم عندما يجدونها سيصبحون شعباً كبيراً، فتنقل الأزتيكيون من مكان إلى مكان وبقوا في كل مكان بضع سنوات فقط كانوا يزرعون خلالها الذرة، وحوّلهم أحد الملوك مرة إلى عبيد لكنهم هربوا إلى جزيرة مستنقعية في بحر المكسيك، وهناك رأى قادتهم الأربعة، الذين كانوا يشكلون مجلساً للشيوخ، صخرة عليها نبات صبار يقف فوقه نسر يمسك أفعى بمخالبه، وكانت هذه إشارة الإله المنشودة، إذ بنى الأزتيكيون في المكان مدينة تينوختيتلان Tenochtitlan (صخرة الصبار) (حالياً مكسيكو سيتي وهي الآن عاصمة جمهورية المكسيك).

سيطر الأزتيكيون حتى عام 1502 تقريباً على كل الجزء الجنوبي الخصب من المكسيك. وفي عام 1519 احتل الإسبان المكسيك، وبعد سنة مات الحاكم الأزتيكي في الأسر الإسباني وتسلم خليفته من بعده قيادة شعبه[173].

كان للأزتك إحدى أشهر الحضارات المتقدمة في الأمريكتين، وبنوا مدناً كبيرة تعدل أية مدينة في أوروبا وقتذاك، واعتنقوا ديانة وثنية تركت أثرها في كل جوانب حياتهم. وبنى الأزتك معابد ضخمة لعبادة آلهتهم، كما أنهم عملوا منحوتات كبيرة، والتزموا بطقوس تميزت بتقديم القرابين البشرية. ودمر الإسبان إمبراطورية الأزتك عندما غزوها سنة 1521م. لكن أثّر الأزتك في الثقافة المكسيكية ترك بصمات دائمة وثابتة.

يُستخدم اسم الأزتك أحياناً للإشارة إلى الشعب الذي أسس مدينة تينوختيتلان في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت هذه المدينة تقوم في موقع مدينة مكسيكو سيتي الحالية. وكان سكانها يسمون أنفسهم بأسماء مختلفة منها: كولهوا ـــ مكسيكا ، مكسيكا وتينوخكا.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي أخضعت مدينةُ تينوختيتلان وحلفاؤها عدداً كبيراً من التجمعات البشرية الأخرى في وسط المكسيك وجنوبيها، مُشكِّلة بذلك إمبراطورية الأزتك، التي أصبحت تينوختيتلان عاصمتها. واستُخدم اسم الأزتك أيضاً للدلالة على هذه التجمعات الكبرى من الهنود الذين شكلوا هذه الإمبراطورية[174].

وبذلك اشتملت إمبراطورية الأزتك على عدد كبير من المدن والحواضر، وبخاصة تلك الواقعة في وادي المكسيك، وكانت أكبر مدينة في هذه الإمبراطورية العاصمة تينوختيتلان، التي تقوم على جزيرة في بحيرة تكسكوكو، وتربطها بالقارة قنوات وجسور تمر عبر المدينة، وامتدت تينوختيتلان على رقعة مساحتها نحو 15كم^2. وفوق إحدى الجزر الواقعة إلى الشمال من مدينة تينوختيتلان انتصبت مدينة تلاتيلولكو التي كانت توأماً لها. وكلتا المدينتين تقعان داخل حدود مدينة مكسيكو سيتي الآن، وقد

كانت مدينة مكسيكو سيتي تغطي معظم بحيرة تكسكوكو التي جَفَّتْ خلال القرن السابع عشر. وفي سنة 1473م أخضع سكان تينوختيتلان مدينة تلاتيلولكو ووحدوا المدينتين. وعندما وصل الإسبان في القرن السادس عشر، لم يكن في أسبانيا مدينة يبلغ عدد سكانها عدد سكان مدينة تينوختيتلان الذي ربما بلغ أكثر من مائة ألف نسمة.

كان لإمبراطور الأزتك لقب هو هيوي تلاتوني (المتحدث الكبير)، وكان يقوم باختياره من بين أفراد الأسرة المالكة، مجلس مؤلف من نبلاء ذوي مقامات رفيعة، كان الإمبراطور يتمتع بسلطة كبيرة، ولكن كان عليه أن يستشير مجلس النبلاء قبل أن يتخذ القرارات المهمة. وكانت تتمركز، في المواقع الرئيسية في أرجاء الإمبراطورية المختلفة وحدات عسكرية للمحافظة على الأمن، ويقود معظم هذه الوحدات أحد كبار النبلاء، الذي يضطلع، في الوقت نفسه، بدور حاكم الإقليم، ويدير شؤون الإمبراطورية جهاز مُحكَم من الدوائر الحكومية. وكان عدد كبير من المراكز العليا وراثياً، لكن خدمة الإمبراطورية كانت السبيل الرئيسي للحصول على منصب عال(175).

- النشاط الفكري:

كانت المنحوتات الأزتكية، التي كانت تزين المعابد والمباني الأخرى، من أكثر المنحوتات إتقاناً في الأمريكتين، وأشهر أثر أزتكي منحوت، لايزال موجوداً حتى الآن هو حجر التقويم الدائري الضخم الذي يمثل مفهوم الكون عندهم، وقطر هذا الحجر نحو 5,3م، وفي وسطه وجه توناتيوه ــ إله الشمس عندهم ــ وهناك نقوش أخرى على الحجر، تمثل أيام الشهر عند الأزتك، ورموز دينية متعلقة بعبادة إله الشمس عندهم. ويعتقد عددٌ كبيرٌ من الأثريين أن كهنة الأزتك كانوا يضعون قلوب القرابين البشرية على هذا الحجر.

وأنتج الأزتك أشكالاً متعددة من الأدب المروي، يشمل الشعر وروايات متوارثة من تاريخهم، وكان للموسيقى دور رئيسي في طقوسهم الدينية، والآلات الموسيقية

الرئيسية عندهم هي الطبل والمزمار والخشخاشة.

واستخدم حرفيو الأزتك الريش لصناعة العباءات الجميلة وأغطية الرأس وثياب أخرى، كما عرفوا حرفاً مهمة أخرى اشتملت على صناعة المعادن والخزف والحياكة والنقش على الخشب[176].

وتعيش حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية، أعداد كبيرة من ذوي الأصول الأزتكية، وبخاصة في ولايتي كاليفورنيا وتكساس، وقد طوَّر هؤلاء الأمريكيون المكسيكيون، في أواسط القرن العشرين، اتجاهاً ثقافياً جديداً للاعتزاز بأسلافهم الأزتك أطلقوا عليه اسم تراث الأزتك[177].

ولاتزال قلة قليلة من بقايا العمارة الأزتكية باقية حتى الآن، فقد عدّ الإسبان أن واجبهم كنصارى أن يمحوا كل ما في المعابد والآثار الأخرى، من الأشياء المتعلقة بديانة الأزتك، فدمروا مدينة تينوختيتلان وبنوا على أنقاضها مدينة مكسيكوسيتي، لكن الآثاريين كشفوا خلال عمليات التنقيب عن موقع المعبد الكبير في مدينة مكسيكوسيتي، وكشفوا جوانب البناء الأربعة، واكتشفوا حوالي ستة آلاف قطعة، تشمل مجوهرات وخزفاً وتماثيل ونقوشاً جدارية وبقايا قرابين حيوانية وبشرية، ورمم الأثريون بعض المباني الأزتكية الأخرى، منها معابد في كل من تينايوكا وتيبوزتان، الواقعتين قرب مدينة مكسيكوسيتي. وبالإضافة إلى ذلك يضم المتحف الوطني للآثار في مدينة مكسيكوسيتي مجموعة كبيرة من الأعمال الفنية الأزتكية.

والآلاف من السكان في المكسيك لهم أسلاف من الأزتك، كما أن عدداً كبيراً منهم يتكلمون صورة حديثة من لغة ناوات، هذا فضلاً عن أن عدداً كبيراً من أسماء الأماكن المكسيكية، بما في ذلك أكابولكو ومكسيكوسيتي نفسها قد جاءت من لغة ناهواتيل، وكذلك، كان حال الكلمات الإنجليزية مثل الأفوكادو والشوكولاتة والطماطم، واستخدم رسامون مكسيكيون، أمثال جوز أورازكو ودييجو ريفيرا ودافيد

سيكوروز، موضوعات أزتكية في رسوماتهم. هذا فضلاً عن أطعمة من أصل أزتكـــي، مثل الفلفل والشوكولاتة والتاكو، قد أصبحت مألوفة في عدد كبير من البلاد.

ثالثاً– المايا.

1– لمحة عامة:

ترجع أصول شعب المايا إلى الهنود الحمر الأمريكيين الـــذين أســـهموا في بنـــاء حضارة في أمريكا الوسطى. ووصلت حضارة المايا أقصى مراحل تطورها الكـــبرى في منتصف القرن الثالث الميلادي واستمرت في الازدهار لأكثر من ستة قرون[178].

ففي المراحل المبكرة شكلت مقاطعة إلبتين، في جواتيمالا الحالية، قلب حضـــارة المايا، ومن الجائز أن المزارعين الأوائل استقروا في هذه المنطقة منذ 2500ق.م، بحثاً عن الأراضي الزراعية، وسكن هؤلاء الناس في قرى صغيرة وجمعوا الغذاء من الغابة المجاورة بالإضافة إلى زراعة المحاصيل.

وبحلول القرن التاسع قبل الميلاد كانت الأراضي المنخفضة للمايا مأهولة بالسكان برمتها. وآنذاك، كانت مجموعة من الهنود الحمر المسماة أولميك تعيش في منطقة توجد غربي المايا، وربما كان الأولميك من أمريكا الوسطى، هـــم الـــذين اخترعـــوا الأرقـــام والكتابة، وكان لهم كذلك فن متطور حسب نموذج الحضارة عندهم، وأثرت حضـــارة الأولميك في تشييد الأهرامات ونحت تماثيل حجرية. وبالإضافة إلى ذلك، بدأت صـــور من الإله نمر اليغور لدى الأولميك تظهر في بلاد المايا [179].

فالمايا هم أهم شعوب أمريكا القديمة، وقد ســـكنوا في المقاطعـــات المكســـيكية الحالية:

Yucatan، Campech، peten، Tabasco،Chiapas، وفي أجزاء من هندوراس وغواتيمالا.

كانت هناك نحو عشرين قبيلة هندية حمراء تتكلم لهجات المايا ولكن كان التفاهم

فيما بينهم يتم بصعوبة، أما بالنسبة لطبقة الكتاب قليلة العدد فكانت هناك لغة مكتوبة تستخدم نظام هيروغليفي واحد للكتابة في كل مدنهم.

كانت تحكم المايا أربع مجموعات من رؤساء القبائل، ولكن عند الخطـــر كـــان ينتخب رئيس واحد قائداً أعلى للجيش[180].

2- التاريخ السياسي:

وقد مرّ بعدة مراحل:

- المرحلة الكلاسيكية: امتدت حضارة المايا من منتصف القرن الثالث المـــيلادي إلى القرن العاشر الميلادي، وخلال هذه المرحلة أسس المايا أكبر مدنهم وحققوا إنجازاتهم المتميزة في مجالات الأدب والعلوم. وبالإضافة إلى ذلك، بدأ المايا ممارسة تشييد النصب التذكارية تخليداً للأحداث المهمة في حياة قادتهم.

وفي القرون الثلاثة الأولى في المرحلة الكلاسيكية كانـــت المدينـــة المكســـيكية، تيويتواكان مركز إمبراطورية كبيرة. وكان لحضارة تيويتواكان تأثير قوي في فن ومعمار المايا، وأثر مؤقتاً سقوط ثيوثوا الذي حدث في القرن السابع الميلادي على المايا، ومثال ذلك أن المايا أوقفوا حركة البناء في مدنهم وأوقفوا تشييد النصب التذكارية، وبعد مدة قصيرة دبت الروح مرة أخرى في حضارة المايا واستمرت في التطور لمدة ثلاثمائة ســـنة إضافية. ومع بداية القرن التاسع الميلادي، شيد المايا النصب التذكارية في كل مدينـــة، وتخلوا عن مراكزهم الرئيسية في الأراضي المنخفضة الجنوبية الواحد بعـــد الآخـــر، وفي النهاية غادروا المنطقة بصفة نهائية، وما زال العلماء يحاولون اكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيار مجتمع المايا، ويعتقد بعض الخبراء أن الانهيار يمكن أن يكون ناتجاً من عوامـــل مثل المرض وتلف المزروعات وانتقال مجموعات بشرية أخرى إلى منطقة المايـــا، ومـــع ذلك، يرى عدد من المؤرخين أن مزارعي المايا ثاروا ضد حكومة الرؤســـاء والكهنـــة لسبب ما، وساهموا بذلك في انهيار مجتمع المايا.

– المرحلة المكسيكية: بقيت مراكز المايا في شمال يوكاتان مائة سنة بعد أن تلاشت مراكزهم الموجودة في الأراضي المنخفضة الجنوبية، وحتى بعد أن هجر المايا المراكز الشمالية، استمرت بقيّتهم في العيش في تلك المنطقة. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي، غزا التُولتيك ــ وهم شعب جاء من الأراضي المرتفعة لوسط المكسيك ــ يوكاتان، وأسسوا إمبراطورية في المكسيك عاصمتها تُولا، في شمال ما يعرف اليوم بمكسيكو سيتي، واستولوا على المدينة القديمة للمايا، تشيشن إتزا، وحكموا جميع السكان في شمالي مايا، وأثر التولتيك في فن وهندسة المايا، وأدخلوا عبادة الإله الثعبان المريش سموها كوكولكان. وانهارت تولا في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وانتهى حكم التولتيك ليوكاتان في القرن الثالث عشر الميلادي.

وعقب نهاية حكم التولتيك شيدت مجموعة من زعماء المايا عاصمة في مايابان وأعاد المايا بناء ثقافتهم من جديد حيث شيدوا مسلات حملت نقوشا .ومع ذلك، ظهرت تحولات في مجتمعهم، فغلبت التجارة على المعتقدات الدينية التي كانت مهيمنة على ثقافة المايا، وأصبحت مدن المايا مراكز تجارية مزدهرة، وبدأ الناس يديرون التجارة بحرية ونشاط.

ثار بعض زعماء مدن المايا على حكام مايابان وهزموهم نحو سنة 1440م، وبعد هذا أصبحت يوكاتان مقسمة إلى ولايتين. في بداية القرن السادس عشر الميلادي، استولى الغزاة الإسبان على بلاد المايا، ونحو منتصف القرن السادس عشر الميلادي، قضوا تقريباً على ما تبقى من المايا [181].

وما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين شكلت مدن المايا عصبة لدرء الأخطار الخارجية، وفي القرن السابع حدث انهيار لمراكز حضارة المايا في وسط شبه جزيرة يوكاتان وذلك بسبب المجاعات التي نشأت عن ضعف مردود الزراعة الناجم عن فقر التربة، أو بسبب تمردات وحروب أهلية، فغادر السكان المدينة القديمة إلى الأدغال،

ولكن ازدهرت مدن جديدة في شمالي شبه جزيرة يو كاتان.

في الوقت نفسه هرب الكثير من السكان من المدينة الكبيرة تيو تيهواكان، ربما أمام قبائل التولتيك التي كان يقودها رؤساء من عائلات نبيلة، وأسس التولتيك مملكة لهم وكان على السكان أن يدفعوا جزية لهم، وربما كانت غواتيمالا موطن التولتيك.

أسس عام 650 م الملك الكاهن التولتيكي العاصمة تولا Tula. ومن خلال كتابات مكتشفة أمكن معرفة تسعة ملوك تولتيكيين توالوا على الحكم ووسعوا مملكتهم في مكسيكو الحالية.

قامت في منتصف القرن العاشر (950م) حرب أهلية دمرت بنتيجتها مدينة تولا.

توقفت الحضارة عن التطور في السنوات التالية في أمريكا الوسطى بسبب المجاعة والطاعون، وبدأ تدهور حضارة المايا في شمال يوكاتان في الربع الأول من القرن الثالث عشر، بقيت لغة المايا محفوظة ومعها هيروغليفية المايا، وهي كتابة نصف صورية يحاول العلماء تفسيرها[182].

3- المعتقدات الدينية:

عَبَد شعب المايا عدة آلهة وإلهات كغيرهم من شعوب ذلك العصر، وهناك مخطوط للمايا يذكر أكثر من 160 من هذه الآلهة، ومثال ذلك أن المايا عبدوا إلهاً للذرة اسمه أهمون، وإلهاً للمطر عُرف باسم شاك، وإلهاً للشمس اسمه كنيش أهو، وإلهاً للقمر اسمها إكسشيل، وكان كل إله أو إلهة يُرتجى على جزء من حياة المايا، فكانت إكسشيل مثلاً إلاهة الطب والغزل.

وأثّر الدين في الحياة اليومية للمايا تأثيراً كبيراً، وكان لكل يوم في سنة المايا أهمية دينية خاصة، وكانت الاحتفالات الدينية تقام على شرف آلهتهم في أيام خاصة خلال السنة، وزعم المايا أن آلهتهم ذات قدرة على المساعدة والإيذاء. ومن أجل الحصول على

مساعدة الآلهة، كان المايا يصومون ويصلون، ويقدمون القرابين وفق معتقداتهم، ويقيمون احتفالات دينية عديدة. وكانت الأيائل، والكلاب، والديكة الرومية تُذبح قرابين للآلهة تقرباً وتضرعاً، وكان المايا غالباً ما يقدمون دماءهم والتي كانوا ينشرونها على أجزاء من الورق المصنوع من لحاء (قلف) الأشجار، وقدم المايا بعض القرابين البشرية، مثل إلقاء ضحايا في آبار عميقة أو قتلهم في مآتم القادة الكبار، وفي المدن، بنى المايا أهرامات عالية من الأحجار الكبيرة، وأقاموا على رأسها معابد. وكان الكهنة يتسلقون درجات الأهرامات ويقيمون الشعائر الدينية في المعابد، وكانت الاحتفالات الدينية الكبرى التي تتعلق بالسنة الجديدة عند المايا من الطقوس المقدسة وتُقام لكل شهر احتفالات.

ويؤدّي المايا شعائر خاصة عند دفن الموتى؛ فالجثث تُصبغ بالأحمر وبعد ذلك تُغطى بحصير من التبن ويوضع معها بعض الممتلكات الشخصية، ثم تُدفن تحت المنازل، بينما يدفن حكام المايا والشخصيات المهمة الأخرى، مع حليّهم النفيسة في الأهرامات. وكان الخدم يُقتلون ويدفنون معهم، إلى جانب المجوهرات وأدوات المنزل، لاستعمالها في العالم الآخر[183].

وتألفت مدن المايا من بيوت خشبية مغطاة بالقش وتقوم حولها المعابد الهرمية المخصصة لعبادة الآلهة المختلفة كالشمس والقمر والنجوم وآلهة المطر والمريخ والأرض، كانت هذه الآلهة بالنسبة للمايا تتحكم بكل فصول السنة وبنمو محاصيل الحقول، وكان كهنة المايا منجمين كباراً استطاعوا التنبؤ بكسوف الشمس وخسوف القمر[184].

4- النشاط الاقتصادي:

شارك المايا في شبكة تجارية ربطت بين عدد من المجموعات في أمريكا الوسطى وصدَّر شعب المايا في الأراضي المنخفضة عدداً من المواد، من بينها مصنوعات يدوية ومنتجات خشبية وبحرية وفراء النمور، واستوردوا أحجار اليشم والزجاج البركاني

وريش الطائر المسمى الكتزل من مرتفعات جواتيمالا.

أرسل المايا الساكنون في شبه جزيرة يوكاتان الملح والمنتجات القطنية المزخرفة إلى الهندوراس، وفي المقابل، حصلوا على ثمار الكاكاو التي استعملوها لإنتاج الشوكولاتة. ونقل المايا المُنتجات عبر مسافات بعيدة حتى سهل وادي واهاكا في المكسيك ومدينة تيوتواكان، قرب ما يعرف اليوم بمدينة مكسيكو سيتي. ونقلوا أغلب المواد والمنتجات على أكتافهم أو على قوارب صغيرة عبر الأنهار. لم يعرف المايا استعمال العجلة، كما أنهم لم يستخدموا دواب حمل الأثقال كالجياد و الثيران(185).

زرع فلاحو المايا الذرة الصفراء والقرع والكاكاو وربوا النحل، غير أن أدواتهم كانت بدائية، وعرفوا فقط القليل عن المعادن. بعد عام 300 ق.م أقام المايا أهرامات مدرجة حتى علو 18م. وهناك مسلة ارتفاعها 10م نقش عليها أقدم تقويم للمايا وأحد النصوص (186).

5- حضارة المايا:

أنتج شعب المايا نماذج مرموقة من فن العمارة والتصوير التشكيلي والخزف والنحت، وحققوا تقدماً كبيراً في علم الفلك والرياضيات وطوروا تقويماً سنوياً دقيقاً. وكانوا أحد الشعوب الأولى في النصف الغربي للكرة الأرضية، حيث كان لديهم شكل متطور للكتابة. وعاش شعب المايا في مساحة تقارب 311 ألف كم2، وقُسمت في الوقت الحاضر أرض المايا بين عدة بلدان من أمريكا الوسطى. فهي تتكون من الولايات المكسيكية كامبيشي، ويوكاتان، وكوينتانا رو وجزء من ولايتيّ تاباسكو، وتشياباس، كما تضم كذلك بليز ومعظم جواتيمالا، وأجزاء من إلسلفادور والهندوراس، ويوجد مركز حضارة المايا في الغابة المدارية للأراضي المنخفضة في جواتيمالا الشمالية، وتطور في هذه المنطقة عدد من مدن المايا المهمة، مثل: بييدراس نيكراس، وتيكال و

أوكساكتون.

وبحلول القرن العاشر الميلادي تغيرت حضارة المايا في عدة نواح؛ فالناس في الأراضي المنخفضة الجنوبية، تخلوا عن مدهم، وفي النهاية عن المنطقة برمتها. ولا زال العلماء يحاولون معرفة أسباب انهيار مجتمع المايا، وذلك بفحص وثائق المايا المتبقية والبحث عن مؤشرات ضمن بقايا مدن المايا، كما أن هناك تغيرات كبيرة حدثت في الأراضي المنخفضة الشمالية، ورغم ذلك استمر المايا في العيش هناك. واليوم، يعيش المنحدرون من المايا في المكسيك وأمريكا الوسطى، وهؤلاء الناس يتكلمون لغات المايا ويحتفظون ببعض التقاليد الدينية لأجدادهم(187).

وعلى الرغم من أن المايا، شأنهم شأن بقية الهنود الحمر، لم يعرفوا الدولاب والمحراث والقوس، ولم تكن لديهم حيوانات جر، لكنهم حققوا إنجازات حضارية هامة فقد بنوا الأهرامات المدرجة الرائعة والمعابد والقصور، واستخدموا في الحساب نظاماً عشرينياً وحسبوا بالملايين، وكان عندهم تقويم دقيق يتألف من 18 شهراً وكل شهر من عشرين يوماً وشهر يتألف من خمسة أيام، وكان كل يوم مخصصا لتقديس إله، وبذلك كان تقويمهم من هذه الناحية شبيهاً بالتقويم الميلادي الحالي. واعتقد المايا أن قوى الكون هي التي تحدد مصيرهم لذلك خضعوا كالعبيد للتقويم والتنجيم(188).

ما بين عام 100 ق.م – 150م أصبحت بالتدريج الصفات المميزة لحضارة المايا مرئية وهي: قصور من حجارة كلسية – أهرامات كمعابد – كتابة هيروغليفية والتقويم. وفي الوقت نفسه كسب الإنسان في مقاطعة Peten عن طريق حرق الحجر الكلسي مونة بيضاء تمكن بها من بناء أبنية صعبة مثل هرم أواكساكتون Uaxactun بالقرب من تيكال Tikal (189).

أما بالنسبة للعلم والعلوم، فقد طوّر المايا شكلاً متقدماً من الكتابة، تكونت من عدة رموز، وهذه الرموز تركيبية من الأصوات والأفكار شكلّت نوعاً من الكتابة

الهيروغليفية.

سجّل شعب المايا معلومات على النصب التذكارية الحجرية التي تسمى إستيلا، وكذلك على بعض البنايات والأدوات المترلية. واستعملوا الإستيلا لتدوين التواريخ المهمة والأحداث الكبرى في حياة حكامهم. وأنتج المايا كتباً من ورق مصنوع من قلف شجر التين، بقيت منها عدة كتب من القرن الثاني عشر إلى بداية القرن السادس عشر الميلاديين وهي تحتوي على جداول فلكية ومعلومات عن الاحتفالات الدينية ويوميات تبين الأيام المحفوظة لمواسم أعمالهم مثل الزراعة والقنص. وهناك أشكال أخرى من التقدم الثقافي لدى المايا، مثل تطور الرياضيات وعلم الفلك، واستعمل المايا نظاماً رياضياً مبنياً على الرقم 20، بدلاً من الرقم 10 كما هو الشأن بالنسبة للنظام العشري الذي يُستعمل في الوقت الراهن. ومثّلت النُقط والشرطات الأرقام، وكان هناك الرمز الخاص لتمثيل الصفر. ويعد الرياضيون الصفر أحد الابتكارات الكبرى في العالم. وطور بعض الكهنة معرفتهم بعلم الفلك بوساطة مراقبة مدارات الشمس والقمر والنجوم، ووضعوا جداول تتنبأ بالكسوف ومدار كوكب الزهرة.

استعمل الكهنة كذلك الرياضيات وعلم الفلك لتطوير نوعين من التقويم؛ الأول تقويم مقدس على حدِّ قولهم يتكون من 260 يوماً، وحمل كل يوم اسماً مع واحد من أسماء عشرين يوماً ورقماً من 1 إلى 13، وكان لكل اسم من العشرين يوماً إله أو إلهة مرتبطة به، وكان الكهنة يعتقدون أن باستطاعتهم التنبؤ بالحظ السعيد أو السيء بوساطة دراسة تركيب الآلهة أو الإلاهات والأرقام، وكان للمايا تقويم من 365 يوماً مبني على مدار الأرض حول الشمس. وقسمت هذه الأيام على 18 شهراً باحتساب 20 يوماً لكل شهر زائداً 5 أيام عند نهاية السنة. وعدّ المايا هذه الأيام الخمسة الأخيرة في السنة سيئة الحظ للغاية، وخلال هذه المدة كانوا يصومون ويقدمون عدة قرابين ويتجنبون أي عمل غير ضروري .واستعمل المايا الأعشاب والسحر لمعالجة المرضى،

وبالرغم من ذلك، لا يعرف العلماء إلا القليل عن معرفة المايا بالطب.

أما الفنون والحرف؛ فقد أنتج المايا فناً معمارياً مميزاً وفريداً وكذلك الأمر بالنسبة للتصوير التشكيلي والخزف والنحت، وقد بنى معماريون ذوو خبرة عالية أهرامات بالأحجار الكبيرة وفوقها معابد صغيرة. وشيدوا نوعاً من الأقواس وذلك بوساطة بناء حائطين متواجهين عند القمة وربط الهوة بينهما بوساطة صف من الأحجار المسطحة. وبنى المايا كذلك بنايات كبيرة ومنخفضة، ومن المعتقد أنها كانت لسكن الرؤساء والكهنة في الاحتفالات المهمة، وتوافرت عدة بنايات ذات زخرفة مسطحة تسمى مُشوط السقف التي امتدت من النقطة العليا للسطح. وأعطت مُشوط السقف، مثل أبراج الكنائس، الانطباع بأن البنايات ذات عُلو شاهق.

زين الفنانون الجدران برسوم ملونة بألوان زاهية تصور شخصيات تشارك في معارك واحتفالات. ورسموا الشخصيات بالتصوير الكفافي (أي رسم الخطوط العامة لأجزاء الجسم) ثم لونوها بألوان مختلفة، ونادراً ما ظلّلوا هذه الألوان أو صبغوها بصُور متدرجة. وهناك نوع مماثل من التصوير التشكيلي يظهر في خزف المايا. وصنع المايا منحوتات صغيرة من الطين ونحتوا منحوتات كبيرة من الحجر، وتشكلت أغلب المنحوتات الكبيرة التي وصل بعضها إلى عُلو 9م من شخصيات الآلهة والأفراد المهمين[190].

وأخيراً؛ يوجد في الوقت الراهن عدة شعوب في المكسيك وأمريكا الوسطى ما تزال تتكلم إحدى اللغات واللهجات العشرين التي تطورت من لغة المايا، و تعيش بعض هذه الشعوب في الأراضي العليا للمكسيك وجواتيمالا، والأخرى تعيش في الجهات الشمالية لشبه جزيرة يوكاتان في المكسيك. ولعل شعب اليوكاتيكو في يوكاتان اليوم أكثر هذه الشعوب من جهة الانحدار المباشر من المايا، هذا وكثير من المنحدرين من شعب المايا يزرعون الأرض على غرار ما فعله أجدادهم وما يزالون يتمسكون ببعض

شعائرهم وعاداتهم التقليدية.

تشكل اليوم أطلال مراكز احتفالات المايا مواقع جذب سياحي، وتشمل هـــذه الأطلال في المكسيك أطلال بونامباك وبالنات في شياباس وتشيشن إتـــزا في يوكاتـــان الشمالية، ويزور السياح كذلك أطلال تيكال في جواتيمالا وكوبان في الهندوراس[191].

القسم الثالث

الحضارة العربية الإسلامية





الفصل الأول

مقومات وصفات الحضارة العربية الإسلامية

لحضارة العرب والمسلمين مقومات وصفات اكتسبتها عبر الزمن، وأهم ما في هذه المقومات والصفات أنها قد طُبّقت عملياً وكانت في وقت من الأوقات واقعاً عاشه العرب والمسلمون، و هي مقومات وصفات كثيرة أذكر هنا أهمها [192].

ا ــ حضارة تتصف بعالمية الرسالة:

عالمية الرسالة للحضارة العربية الإسلامية تكون بعدم اختصاصها بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقها في إقليم خاص أو بيئة معينة، وبامتدادها أزماناً طويلة، تخلد فيها بعد العصر الذي بدأت فيه، بمعنى أنها تكون صالحة لكل جنس وكل بيئة وكل جيل، وأن عالميتها تكون على الامتدادين الأفقي والرأسي، مع كل لون وفي أية بيئة، ومع أية ثقافة، وفي جميع العصور والأجيال، و من دون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أية دعوة، فهي دعوة لا تكون دعوة جنس تميزه فصيلة الدم أو سمة اللون أو ظاهرة اللغة، بل دعوة لا يفرق فيها بين العربي والعجمي والرومي والحبشي ولا بين الأبيض والأسود، ولا تمنع من أن يستظل بلوائها متكلم بأية لغة من اللغات، وهي لا تكون دعوة محلية تحدها حدود جغرافية واعتبارات إقليمية.

وإذا تأملنا الديانات السابقة على الإسلام، لم نجد فيها العناصر والمقومات التي كان من الممكن أن تضمن البقاء لأي منها، أو تدفع الناس إلى التمسك بها، حيث اتسمت هذه الديانات بالمحدودية في المنهج، وبالأطر الزمانية والحدود المكانية، مما يعوق فعالية انتشار وخلود الديانة وعالميتها.

وقد أنتجت هذه العالمية ثماراً حضارية عظيمة، فلو تأملنا مثلاً خارطة المنطقة

المحيطة بالجزيرة العربية عند مولد الرسالة الإسلامية، فسنجد أنها كانت تقتسمها إمبراطوريات أربع: الإمبراطورية الرومانية في أوربا، وطرف من أسيا وأفريقيا، والإمبراطورية الفارسية وتمد سلطانها على قسم كبير من آسيا، والإمبراطورية الهندية، ثم الإمبراطورية الصينية، وتكادان تكونان مغلقتين على أنفسهما، ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها، وهذه العزلة كانت تجعل الإمبراطوريتين الأوليين هما ذوات الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها.

كانت الديانتان قبل الإسلام: اليهودية والنصرانية، تحت سيطرة الدولة، ولا تسيطران عليها، فضلاً على ما أصابهما من انحراف وفساد.

وشاءت حكمة الله أن لا يكون على مكة ــ وهي المكان الذي بدأت منه الرسالة الإسلامية ــ أي سلطان لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات التي سيطرت على المعمورة حينئذ، فكان أن نشأ الإسلام في أم القرى نشأة دينية إلهية خالصة، ليبدأ منها دعوته العالمية بوصفها أنموذجاً فريداً لصورة المجتمع الجديد إذ انطفأت نار العداوة بين الأوس والخزرج، كما رأينا ذلك في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وذابت الحواجز بين القحطانيين والعدنانيين من العرب، وحل الوئام بين العربي والعجمي، وانمحت الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وبين المتحضرين والبداة، وأصبح مسجد الرسول ﷺ في المدينة يضم جنسيات متباينة اجتمعت على العقيدة، كبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، إلى جوار إخوانهم العرب من الصحابة، كما ضم أغنياء كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وفقراء كأبي ذر الغفاري وأبي هريرة، ولم ينل من إخوانهم اختلاف الجنس واللون والقبيلة أو الطبقة، أو أي مقياس آخر مما اصطلح عليه البشر حيث الفرقة والتنابذ والانقسام.

استطاع الرسول ﷺ في الجزيرة العربية ــ وبفضل الإسلام ــ أن يجمع حول العقيدة الإسلامية قبائل العرب في الشمال والجنوب، وأقبلت القبائل إلى الدعوة

الإسلامية راضية لأنها تلائم فطرتها، حتى الذين وقفوا أمام الدعوة في بدايتها، لم يجدوا إلا الإذعان للدعوة الجديرة فيما بعد.

وحين انتهى من إلقاء خطبته في حجة الوداع كانت أصداء هذه الخطبة لا تقف عند حدود عرفات، ولا تقتصر على الحجاز، بل انتقل صداها إلى كل واد وجبل في الجزيرة.

واستطاع بعدها الإسلام أن يخرج خارج الجزيرة العربية وتخطى حدود البيئة الفقيرة المنعزلة نسبياً التي ظهر فيها أول الأمر، ليصبح قوة حضارية وثقافية اكتسحت أمامها عدداً من الإمبراطوريات والممالك القوية، وحمل المسلمون وقتها المنهج الحضاري للقرآن واندفعوا نحو العالمية، وأعادوا منهجة حضارات العالم وفق الرؤية الإسلامية، وانطلقوا نحو تحقيق السلام على المستوى العالمي [193] .

يقول غوستاف لوبون: « لم ينتشر القرآن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون فيها» [194] .

إن عالمية حضارة العرب و الإسلام أذهلت عقول المفكرين والباحثين ودفعتهم دفعاً نحو اعتناق الإسلام أو دراسته، ولذلك فإن مبدأ العالمية ورد في عشرات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وهذه سمة خارقة من سمات الحضارة الإسلامية، ففي حين جاءت كل المذاهب والشرائع لأقوام محددة ولمرحلة محددة، فإن الإسلام في حضارته سما فوق اعتبارات القوم والجنس واللون والزمن والمكان والدم والعرق، قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [195] ، وقال أيضاً: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [196] .

وفيه تتحدد معايير المساواة والعدالة بين الألوان والأجناس والسلالات

والعنصريات والعمل الصالح، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (197) ، وقال أيضاً: { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ } (198) .

ويجذب مسامعنا ومسامع العالم قول الرسول ﷺ: يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، خيركم عند الله أتقاكم(199)، وقوله لسلمان: سلمان منّا أهل البيت (200). وبالمقابل، تلفت أنظارنا الجاهلية الحديثة ونحن نشاهد أجساد الزنوج تحترق ناراً على يد الإنسان الغربي (الأبيض المتحضر)، وتتوقف النباتات عن النمو في فيتنام وهيروشيما (بفضل) القنابل النووية.

ونأسف أن دورة التاريخ دارت وخسر العالم بأكمله ثمار حضارة الإسلام لأسباب وعوامل كثيرة (201) .

وعالمية الحضارة العربية الإسلامية أينعت ثماراً شهية كثيرة ومتنوعة، ومنها: خصوصية شمولية الحركة، والتوازن أو الوسطية، والتدرج والاستمرارية.

وهناك عدة أحداث تدل على عالمية الدعوة الإسلامية من البدء، وليس فقط بعد الفتوحات الإسلامية كما يدعي كثير من المستشرقين. والشمولية تشمل شمولية التربية، أي التغطية التربوية لجميع أبعاد وحاجات الشخصية الإسلامية روحياً وعقلياً وجسدياً وحركياً، وهذا حرص على مبدئية التوازن، فيجب أن لا يُترك جانباً من الحياة على حساب جانب آخر ، قال تعالى: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (202)؛ وحديث النفر الثلاثة شاهد على ذلك، فعن أنس بن مالك أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم لا أتزوج

وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش، فحمد الرسول الله وأثنى عليه، ثم قال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني[203].

وأما فكرة التدرج ففيها معايير كثيرة، ومنها نزول القرآن منجماً ليسهل على المسلمين حفظه وفهمه وتطبيقه، ومنها التدريج في تحريم شرب الخمر، والتدرج شرط من شروط الدعوة وركيزة فلسفته، ومن سنن الكون الإلهية أكبر عبرة ومعلم لنا، فالله جعل الليل والنهار، والظل والحرور، والشمس تطلع ثم تكبر تدريجياً مع ارتفاع حرارتها بقدر كبرها، والقمر يولد هلالاً ثم يكبر تدريجياً حتى يبدو بدراً، وكيف ينمو الزرع، وكيف يكبر الإنسان تدريجياً[204].

وانظر إلى تدرج الرسول ﷺ بالدعوة؛ قال معاذ بن جبل: بعثني رسول اللّه ﷺ، قال إنّك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي رسول اللّه، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ اللّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ اللّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللّه حجاب[205].

2ــ حضارة انتشارية:

الفتوح العربية الإسلامية وحدها هي التي تستحق التعبير عنها بلفظ «فتوح»، أما ما عداها فهو مجرد «غزوات» و«عمليات احتلال عسكري»؛ لأن الفتوح الإسلامية كانت «فتوحاً للعقول» أولاً وقبل كل شيء، فقد نشر العرب ــ أينما حلوا ــ معارفهم وقيمهم الحضارية وعدلهم ونزاهتهم وتسامحهم، وبددت أضواء حضارتهم ظلمات الجهل و الجمود، وتغيرت أحوال البلدان المفتوحة تغيراً كبيراً لعل أبرز أمثلته الأندلس. كل ذلك إلى حد جعل بعض المنصفين من أبناء الغرب يعدون إخفاق الفتوح

الإسلامية لبعض البلاد بمنزلة كوارث حلت بها، ولنقرأ في ذلك شهادة «كلودفـــارير» أستاذ اللغات الشرقية في «الكوليج دو فرانس»:

«..حلت بالإنسانية في القرن الثامن الميلادي كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى، تخبط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في الهمجية قبـــل ظهـــور النهضة. وما تلك الكارثة إلا ذلك النصر الهائل الذي أحرزته الجماعات الجرمانية بقيادة «شارل مارتل» على فرق العرب والبربر؛ ففي مثل ذلك اليـــوم المشـــؤوم تقهقـــرت الحضارة ثمان مئة عام. وحسب المرء أن يذكر ما كان يمكن أن تصل إليه فرنسا لـــو أن الإسلام النشيط الحكيم الحاذق الرصين المتسامح ـــ حيث الإسلام كل هذا ـــ استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا نجد لها اسماً» [206] .

لقد كانت الفتوحات الإسلامية الانتشارية فتوحات لغوية، فلقد كانـــت أمنيـــة الإسكندر المقدوني الكبرى تحقيق الانصهار بين اليونان والشرقيين، ولهذه الغاية كان قد أغرق آسيا الوسطى بمستوطنين إغريق، وأقام 70 حاضرة، أي أكثر مما قوّض من المدن كل غزاة الشرق الآخرين. فقد استوعب نظامه المغلوبين واجتذبهم إليه، محققاً ازدهـــاراً عظيماً، إلا أن خلفاءه فشلوا في سياسة جمع الشعوب وإعادة بناء الإمبراطورية، فلم يتم حدوث الانصهار، على الرغم من كون النجاح قـــد كلـــل المشـــروع الاقتصـــادي والاجتماعي.

ففي ظل الإدارة الرومانية، المحض خارجية، كان المجتمع والثقافة الهلينية قد استمرا وظلت اليونانية هي اللغة الرسمية طيلة ألف عام ونيف. ومنذ مجيء العرب، تعين علـــى كل شيء أن ينهار بضربة واحدة، بدءاً من انهيار اللغة والفكر اليونانيين. لا شـــك أن الهلينية كانت قد غزت المدن والبلاطات، لكنها لم تتمكن من النفاذ العميق إلى قلـــب سكان الأرياف، ومثال ذلك أن الإدارة والحقوق والتجارة الهلينية في المدن، كانت عادة تقليدية ومختلفة في عمق الأمصار، وعلى الرغم من احتلالها الطويل، لم تتمكن الهلينيـــة

عموماً من الحلول محل الحضارات الشرقية القديمة، أما الإسلام الذي كان أقرب إليهـــا، فقد وجد لديها قبولاً وانفتاحاً.

والواقع أنه منذ بدء الفتح، قام العرب بممارسة تأثير عميق وسريع في البلدان التي كان الساميون قد تركوا فيها آثار لغتهم وعاداتهم. ففي الهلال الخصيب، في فلســطين والشام وكلدة، ظلت العربية وقريبتها المقربة الآرامية، من اللغات الجذريــة في أمصـــار واسعة. كذلك، عندما توغل العرب في فينيقيا، لم يواجهوا أية صعوبة في إفهام السكان والتفاهم معهم، على الرغم من أنهم كانوا قد نزحوا عن الجزيرة العربية قبل ذلك أكثـــر من 3000 سنة.

في شمالي إفريقيا، ساعدت القرابات اللغوية في تسهيل استيطانهم أيضاً، فاللهجات العامية البربرية كانت قريبة من اللغات السامية بفضل تأثير قرطاجة في إفريقيا الشـــمالية وطبعها بطابعها طيلة ألف عام؛ وكانت اللهجات العامية اليونية قـــد حافظـــت علـــى وجودها في الأريفا حتى بلاد الفانداليين، فالأندلس، وهي قاعدة يونية، كانت تـــتكلم اللغة ذاتها على الرغم من عدة قرون من الرومنة. في الواقع، كان الفتح العربي قد توقف عند الحد الأقصى للذكريات اللغوية، عند الخط الفاصل بين التأطير القرطـــاجي وبـــين الغرب، فكان عملياً ينضاف إلى تركيبة المجال الشرقي القديم.

يُظهر التاريخ أن الشعوب المغزوة تتبنى نظاماً سياسياً جديداً بسهولة أكثر مما تبدل لغتها ولسانها. ولقد برهن على ذلك مرة أخرى فشل اليونان والرومـــان في المشـــرق. فماذا يمكن أن تكون، بعد الآن، لغة الشعوب الخاضعة للإسلام؟ لا يمكنها إلا أن تكون اللغة العربية، المميزة بكونها لغة الفاتح لا الغالب، وفوق ذلك، لم يكن هناك أي لســـان آخر قادر على إحداث أثر أعظم في النفوس، فقد كان العامل الـــديني يعمـــل معهـــا ولصالحها، طالما أن اللغة والدين يساندان بعضهما كثيراً، الأمر الذي جعـــل الشـــعوب الداخلة في الإسلام تنفتح له وتنضم إليه جسداً وروحاً.

فالقرآن، بوصفه عقيدة دينية، كان فوق ذلك خلاصة المعارف كلها. وكان يسمى «الكتاب» في البلاد الإسلامية، وكانتا كلمتا: قرأ وكتب، تعنيان قرأ القرآن وكتبه. ولزمن طويل ظل القرآن كتاب القراءة الأول، إلى أن شكّل وحده خلاصة العلم والتربية، وهو في أيامنا هذه، النص المأثور الذي ترتكز عليه قاعدة التعليم في الجامعات الإسلامية، ولن تستطيع الترجمات الإحاطة بغناها، «إذ أن جمال اللغة العربية يذبل في الترجمات، مثلما تذبل زهرة مقطوعة عن جذورها». وبالتالي، لا بد من قراءة القرآن في نصه الأصلي.

والحال، لا بد من البدء مع المسلمين الجدد بتدريسهم اللغة العربية بشكل منطقي وعقلاني، ومن هذه الحاجة ولد أول كتاب مفصل في القواعد، وسرعان ما تبين أنه ضروري أيضاً لكل أولئك الذين كانوا يتولون وظائف عامة. فالعربية، لغة الإدارات والمحاكمات والدبلوماسية، سرعان ما صارت أيضاً لغة العلاقات الاجتماعية والتجارة والأدب.

وراح يعمل علماء هذه الشعوب وأعلامها المتبحرون، المغتنون من قبل بماضيهم الحضاري، والمستندون بقوة إلى مرجعية القرآن الأساسية، والمعتادون منذ زمن بعيد على عادة الجدل البيزنطي. وكان من المهم ضبط القوة التي تمثلها اللغة العربية، لغة الرجولة، وأن يضفى عليها طابع الوضوح والنظام والمنهج والدقة، وأن يطهر مصطلحها من الشوائب، وأن تناط بقواعد ومنطق ونحو. عندئذ انكبت نخبة فكرية حقيقية على هذا العمل الكبير. وقامت هذه النخبة المسكونة بحس اللغة وروحها الحي، باستقبال وجمع نصوص كانت ضاعت لولا ذلك، وألفت معاجم وأنشأت موسوعات، ولا ريب في أن إسهام هؤلاء العلماء المميزين كان إسهاماً جليلاً في وضع هذه الفيلولوجيا، المتسمة فوق ذلك بسمة السرعة والانتشار اللذين كانا سمة العرب أنفسهم بالذات.

فمن تلك اللهجة العامية، التي كان الشعراء البدو يستخدمونها في الماضي لحض

أصحابهم على العمل ومساندهم في المعركة، ولدت أخيراً أكمل لغة في العالم، والأكثر قدرة من اللغات المحلية على تلبية كل الضرورات والمتطلبات. كما أنها ظلت بلا منازع بين جميع لغات البلدان المفتوحة. وسرعان ما تبين أن غناها ودقتها كانا يسمحان لها بالتعبير عن كل دقائق الفكر ولطائفه، وعن كل آداب الفكر المدرسي. فمن الآن وصاعداً، صارت هذه اللغة الشعرية، التي كانت قد فتنت البدو المتوحشين، لغة البلاطات والمجامع والعلماء. وكان روح الكلام وترفع اللفظ من الصفات المبحوث عنها في المجتمع الراقي، أكثر من البحث عن أناقة آداب الحياة وأذواقها.

ولا يرقى الشك إلى أن اللغة والدين، اللذين تطورا جنباً إلى جنب، قد أثّرا تأثيراً كبيراً في أداء المهمة الكبرى، مهمة تعريب هذه الدولة الرائعة وترسيخ الإسلام فيها، فهاتان القوتان أطاحتا بالحواجز التي كانت تفصل الفاتحين عن السكان الأصليين، واستوعبت من الغرباء أكثر مما استوعبت روما في الأزمنة القديمة أو أكثر مما استوعب الأنكلو سكسونيون في الحقبة المعاصرة. فذلك الذي كان يعتنق الإسلام، كان يتكلم ويكتب اللغة، ويبدو كأنه عربي، إن في ذلك لواقعة عظمى على صعيد تاريخ الحضارة الإسلامية. كما أن تلك القوة التوحيدية ألغت الحدود السياسية وأعطت بطريقة ما صبغة موحدة لبلدانٍ متفاوتة ومنتشرة فوق ثلاث قارات، لم يعد يفصل بينها فاصل منذ الآن، ففي كل مكان كان المسلم يجد الدين نفسه، الصلوات ذاتها، الشرائع عينها. وبفضل هذه الشعائر، كان يشعر في كل مكان أنه في داره، سواء في أثناء رحلاته خارج الحدود، أم في علاقاته مع تجار البلدان الأجنبية (207).

على امتداد عدة قرون، وبصرف النظر عن أعراقهم، وضع العلماء المسلمون كل مؤلفاتهم بالعربية، ومن جراء ذلك ازداد غنى اللغة والفكر، وأسهم في انتشارهما التعليم الذي كان مجانياً، كما أن الترجمات العربية للعلم والفلسفة، في الشرقين الأدنى والأوسط معاً، أسهمت في الانتشار الخارق للغة والأفكار. وهكذا احتلت رسالة أرسطو في

المنطق، التي كانت تضم في طبعتها العربية البيان والشعر (الريطوريقا والبوتيقا)، كما احتلت رسالة «ايساغوجي» لفرفوريوس مكانتها إلى جانب النحو العربي، بوصفها ركيزة للإنسانيات الإسلامية.

ونجم عن ذلك أن العربية حققت بين الشعوب المتنوعة التي كانت تخترقها، نوعاً من أممية آداب وعلوم. فقد فرضت نفسها، وسارت على نحو كلي لدرجة أن العرب كانوا أقلية متواضعة ــ في بعض الأوقات ــ في عداد المفكرين والعلماء الذي أسهموا في تفتحها وازدهارها. وفوق ذلك كله، فإن الفرس بعد فتح بلادهم بقليل؛ زودوا الأدب العربي بأعمال بالغة الأصالة، لدرجة أن الأثر العربي ما عاد يظهر فيها. إن هذا الانتصار الشامل، الذي كان يتخطى نفسه بنوعٍ ما، إنما كان ينطلق من من «الكتاب». وكان لتعميم لغة وحيدة فضائل أخرى، فقد مورست هذه الفضائل من خلال كثافة المبادلات الثقافية التي استطاعت، على هذا النحو، أن تنتظم عبر الدولة شرقاً بشكل جلي واضح في أعمال ابن رشد، فيلسوف قرطبة. كما أن الإدريسي، الذي كان يعلّم ويدرس في إسبانيا، طبع بطابعه العميق أعمال ياقوت الذي كان يدرس بالقرب من بحر آرال.

هكذا على امتداد العالم الإسلامي، أسهمت القوة التعبيرية والمؤثرات الطيبة للغة العربية في اختراقها ونفاذها إلى اللغات الغربية، الأيبرية أو اللاتينية، التي لا تزال مفعمة بمصطلحات من أصل عربي، إلا أن هذا الاختراق كان صعباً على العربية.

ولقد قيل إن تاريخ الكتابة واللغة العربية لم يكن شيئاً آخر سوى تاريخ الحضارة العربية [208].

3ــ حضارة استيعابية:

انطلقت الحضارة الإسلامية من قيم الإسلام وحضه على العلم، وكان طبيعياً في المرحلة الأولى من هذه الانطلاقة ــ وشأن كل حضارة وليدة ــ أن تستوعب إنجازات

الآخرين في العلم والفكر، ثم تبنى عليها وتعلي البناء، وكانت أبرز الحضارات في عصر بدايات الحضارة الإسلامية، وهي الحضارة البيزنطية ذات الأصول الإغريقية والحضارة الفارسية والحضارة الهندية والحضارة الصينية والحضارة الفارسية، قد تلقت منها الحضارة العربية الكثير من المؤثرات المدنية (أي المؤثرات المتعلقة بالتمدين والفنون وأساليب المعيشة).

والكثير من أساليب إدارة الدولة وتدوين الدواوين وبعض المؤثرات الأدبية، وتلقت الحضارة الإسلامية من الحضارة الهندية مؤثرات علمية هامة في الرياضيات والفلك وبعض المؤثرات الأدبية والفنية والمدنية، و كانت الحضارة الصينية نظراً لبعدها عن قلب الدولة الإسلامية وعواصمها الكبرى ــ دمشق وبغداد والقاهرة ــ أقل تأثيراً في الحضارة الإسلامية، ومع ذلك فقد تلقت منها هذه الأخيرة مؤثراً واحداً فائق الأهمية، كان بمثابة ثورة داخل الحضارة الإسلامية، هو «صناعة الورق».

ونعود إلى الحضارة البيزنطية وأصولها الإغريقية؛ ونبدأ بإلقاء بعض الضوء على تاريخها، فلقد كانت الثقافة الإغريقية سائدة في بلاد اليونان حين خضعت للاحتلال العسكري الروماني المنطلق من إيطاليا، وظلت هي السائدة في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية (شرق أوربا وآسيا الصغرى والشام ومصر) دون أن تتمكن الثقافة الرومانية اللاتينية ــ ثقافة المحتل ــ من قهرها، لأن الثقافة الإغريقية واللغة اليونانية كانتا أقوى وأعمق جذوراً من الثقافة الرومانية واللغة اللاتينية .

وحين انقسمت الإمبراطورية الرومانية عام 395م إلى قسميها: الغربي (الذي عرف باسم «الإمبراطورية الرومانية الغربية» وضم إيطالية وغرب أوربا) والشرقي الذي عرف باسم «الإمبراطورية الرومانية الشرقية» أو «الإمبراطورية البيزنطية»، ترسخت الثقافة الإغريقية واللغة اليونانية في القسم الأخير، وظهر بعض العناية بالتراث الإغريقي المتمثل في المخطوطات والبرديات التي أثمرتها الحضارة الإغريقية القديمة ومدرسة

الإسكندرية. ولما كان التراث الإغريقي هو أرقى تراث حضاري عرفه العرب، وأقرب تراث الحضارات السابقة قاطبة إلى العقل العربي، فقد اتجـه العـرب والمسـلمون ــ خصوصاً في بدايات الحضارة العربية الإسلامية ــ إلى النهل منه بقدر أكبر كثيراً من أي تراث حضاري آخر، وركزت حركة الترجمة التي استهلها الأمير خالد بـن يزيـد في العصر الأموي وبلغت أوجها في عهد الرشيد والمأمون في العصر العباسي على ترجمـة تراث الحضارة الإغريقية في الطب والعلوم الطبيعية والفلسفة. ومـع تـوالي عمليـات الترجمة واستمرار الدراسة، تحول المسلمون إلى نقد ما يترجمون، وبدؤوا في المزاوجة بين تراث الحضارات المختلفة خصوصاً الإغريقية والهندية، ثم انتقلوا للبحث عـن المعرفـة بأنفسهم، وقادهم البحث إلى التجريب وساعدهم على ذلك التقدم الكبير الذي حققوه في العلوم الرياضية، كما ساعدهم عليه كثيراً ذلك الفكر العلمي المعروف في مجموعـه باسم «الطريقة العلمية Scientific method»، الذي توصلوا إليه والذي يشـمل المبادئ والإجراءات المتبعة في التوصل إلى الحقائق والمعارف العلميـة المختلفـة سـواء بالاستدلال العقلي أو بالتجريب . وبذلك اكتملت للحضارة الإسلامية ــ ولأول مـرة في تاريخ الحضارة البشرية ــ كل المقومات اللازمة لبلوغ مرتبة الحضـارة الكـبرى، وتحقق لها بالفعل الوصول إلى ذرا غير مسبوقة في كل أفرع العلم والفكر، بما في ذلـك الفلسفة والمنطق اللذين تميز فيهما الإغريق كثيراً (209) . ولنقرأ عن المقدرة الاسـتيعابية للحضارة الإسلامية شهادة عالم إنجليزي هو «برنارد لويس» المستشرق الكبير وأسـتاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط بجامعة لندن:

«السمة الأولى التي تسترعي انتباهنا هي المقدرة الاستيعابية للثقافة العربيـة الـتي غالباً ما وصمت بأنها قائمة على المحاكاة والتقليد، فقد وحّد الفاتحون العرب ــ ولأول مرة في التاريخ ــ الأقاليم الشاسعة الممتدة من حدود الهند والصين إلى تخـوم اليونـان وإيطاليا وفرنسا، ومن خلال قواهم العسكرية والسياسية لبعض الوقـت، ثم ولمرحلـة

طويلة بعد ذلك من خلال لغتهم وعقيدقم؛ وحّد العرب بين ثقافتين كانتا تتصارعان في الماضي، هما التراث المتنوع لحوض البحر المتوسط البالغ من العمر ألف عام، وحضـــارة فارس الثرية وأنماطها الخاصة في الحياة والفكر، وصلاتها المثمرة بالحضارات العظيمـــة في الشرق الأقصى. ذلك أنه من خلال التعايش بين الكثير مـــن الشـــعوب و العقائـــد و الثقافات داخل حدود المجتمع الإسلامي وُلدت حضارة جديدة، متنوعة مـــن حيـــث أصولها ومبدعيها، لكنها تحمل في كل مظاهرها البصمة المميزة للعروبة و الإسلام، ومن هذا التنوع الذي اتسم به المجتمع الإسلامي نشأت سمة ثانية لافتة خاصة لأنظار المراقب الأوربي، هي تسامحه بالمقارنة بالمجتمعات الأخرى. فعلى النقيض من معاصريه الغـــربيين نادراً ما شعر المسلم في العصور الوسطى بالحاجة لفرض عقيدته بـــالقوة علـــى كـــل الخاضعين لحكمه، لقد ترسخ في وعيه أن أولئك الذين يعتنقون عقيدة مغايرة سيحرقون في الجحيم في الوقت المقدر لذلك، لكنه على خلافهم لم ير ثمة فائدة في استباق القضاء الإلهي في هذه الدنيا، وكان قانعاً في أغلب العصور بالانتماء إلى العقيـــدة الســـائدة في مجتمع متعدد العقائد . لقد فرض على الآخرين قيوداً اجتماعية وتشريعية معينة كرمـــز لسيادته، و كان يذكرهم تذكرة فعالة إذا ما بدا أنهم في سبيلهم للنسيان، و فيما عـــدا ذلك ترك لهم حرياتهم الدينية والاقتصادية والثقافية، كما ترك لهم فرصة الإسهام البارز في حضارته هو» [(210)] .

4ـــ حضارة اقتصادية اجتماعية:

إن علماء الاقتصاد المعاصر يضغطون الضغط كلـــه علـــى الاتجـــاه المـــادي في اقتصادهم، إما بطريق مباشر كما فعل ماركس، أو بطريق غير مباشـــر كمـــا فعلـــت الرأسمالية، أما حضارة الإسلام فإنها تعمل على إيجاد التوازن بـــين الاتجـــاهين المـــادي والروحي في طبيعة الإنسان، فالاقتصاد الإسلامي مجموعة من الأصول العامة مستخرجة من القرآن الكريم والسنة النبوية في أسس عامة هي الفصل بين الخير والشر، وهي قابلة

للبناء عليها بما يسد مطالب كل بيئة وكل عصر على نحو يعصم المجتمع من الانهيار ومن الحيرة بين المذاهب المضطربة والأهواء الجامحة.

وهو اقتصاد يعترف بحق المالك في الانتفاع بملكه وحق التصرف فيه طوال حياته وبعد مماته، أما النظم الشيوعية فإنها لا تعترف بالملكية الخاصة لمصادر الإنتاج، فتتعارض مع غريزة الإنسان الفطرية في حب التملك، وتتجاهل حافزاً أساسياً في توجيه النشاط الاقتصادي.

وتبيح الرأسمالية للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أي قيد عليه، فيما يفرض الإسلام طائفة من التكاليف والالتزامات على المالك لمصلحة المجتمع.

ولا نستطيع أن نتحدث عن الاقتصاد الإسلامي في هذا المقام، فهذا يحتاج منا إلى مجلدات، وإنما نعطي صوراً توضح بعض معالمه الرشيدة، فالزكاة مثلاً فريضة مالية في الإسلام وركن أساسي من الأركان الخمسة للإسلام، ولكن ما فوائدها، إنها تساهم في الحد من التضخم لامتصاص فائض الطلب، وتساهم في مجال توزيع الدخل والثروة في دعمها للفئات الفقيرة وتخفيف معاناتهم، فهي تؤخذ من الأغنياء وتُرد على الفقراء، وهذا ما يساعد على عدم ازدياد معدل الإنفاق الحكومي الذي يؤدي إلى انهيار الدولة لو حدث.

وإذا علمنا أن الإسلام يحرّم الاكتناز، فمعنى ذلك أن ما يتم ادخاره يلزم توجيهه إلى الاستثمار، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ}[211]، ولم يكتف الإسلام بهذا التهديد بل طلب من أصحاب الثروات النقدية دفع 2.5 % سنوياً على ثرواتهم لتحريكها، ومن هنا أوصى ﷺ باستثمار مال اليتيم وعدم

تجميده حتى لا تأكله الصدقة، حيث قال «اتجروا بأموال اليتامى لا تأكلها الزكاة»[212]. وإن من شأن حصيلة الزكاة دعم الاستثمار من ناحية أخرى، لأن بين مصارف الزكاة سداد ديون الغارمين أي المدينين، ومعنى ذلك أن بيت المال يضمن للدائن وفاء دينه، وفي هذا دعم للائتمان، لأن المقترض سوف يطمئن إلى أنه إذا عجز عن سداد دينه فإن المجتمع ممثلاً بالدولة سوف يؤدي عنه دينه. وبذلك يتجنب الإفلاس وما يؤدي إليه من حرمانه من المساهمة في النشاط الاقتصادي، وكذلك المقرض إذا اطمأن إلى سداد دينه فإنه لا يحجم عن الإقراض.

وبما أن الاقتصاد هو أحد الأركان في كل حضارة، وبما أن أي خلل فيه يؤدي إلى أزمات ونقلات اجتماعية خاطئة، فقد أقامه الإسلام على أصلين:

1ــ الاعتراف بمواهب الفرد وحقه في ثمرات كفاحه.

2ــ حق المجتمع فيما يكسبه الفرد والتكافل بين أبنائه.

وبذلك فقد أقام الإسلام الاقتصاد على منهج الحق والعدل والفطرة، وعندما علم المسلمون أن المال مال الله وأنهم مستخلفون فيه لينظر صاحبه الحقيقي وهو الله ماذا وكيف يفعلون به، عرفوا أنه سبحانه حدد لهم هذه الأسس لتسعدهم:

1ــ أقرّ الملكية الفردية وحماها، لكنه قيدها بأمرين: الحلال وما أوجبه من حق في المال، والحرام وما حرّم به كل كسب وكل معاملة في محرم.

2ــ أوجب في المال حقوقاً أدناها الزكاة التي جعلها ركناً من أركان الإسلام، وكذلك حرّم حبس المال وكنزه حتى لا يكون دُولة بين الأغنياء.

3ــ أحاط هذا النظام بمنهج كامل في التربية والسلوك.

ومن جانب آخر قال تعالى: {وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }[213].

إن الإسلام قرّر هذا الحق من قبل أن تتعقد الحياة وتنشأ المصانع الضخمة وتبرز مشاكل العمال، وقبل أن تعرف عقود الإذعان أي العقود المحرفة التي يفرض شروطها ويملها عليها صاحب العمل على العامل مستغلاً حاجته وفقرة، فجعل الإسلام صاحب الحق في إملاء هذه الشروط العامل الضعيف.

وقد قام مصرف هو من أكبر المصارف السويسرية (يونيون بازيك أوف سوبتز لاند) بالاعتماد على الأسس المصرفية الإسلامية في تقديم خدماته المصرفية، مما ألجأ صندوق النقد الدولي إلى دراسة جديدة أكدت أن النظام المصرفي الإسلامي هو النظام الأكثر استقراراً من بقية الأنظمة، ذلك أن نظام الفائدة المصرفية المفتوحة على الأسس الإسلامية أكثر استيعاباً للصدمات المالية، فالقيمة الحقيقية لموجودات المصرف والتزاماته تظلان دون تغيير، أما في النظام الربوي فإن أي هبوط في قيمة الموجودات في مواجهة قيمة اسمية ثابتة للالتزامات يوجد حالة من عدم التوازن بين الموجودات الحقيقية والالتزامات القانونية، مما يزعزع الاستقرار في النظام المصرفي.

وفي ظل كل هذا النظام الاقتصادي جعل الإسلام العلاقة علاقة اجتماعية سليمة قائمة على التواد والتعاطف والتراحم ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [214]، وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذي: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد في السهر والحمى) [215].

إن مفهوم العبادة في الإسلام لا يقتصر على حرفية الشعائر الإسلامية، وإنما يتعدى ذلك ليكون نظاماً شاملاً ومتكاملاً يعالج جميع شؤون الحياة، ويتدخل في المجالات كافة التي هي ضرورية للحياة، ويضع الحلول المناسبة التي تعين الإنسان في تحقيق قيم العدل والمساواة، التي هي من أساسيات البناء الحضاري لأي مجتمع يستثمر هذه القيم من أجل

فاعلية حركة الإنسان الحضارية.

ويشترك علم الاقتصاد مع العلوم الأخرى من وجهة النظر الإسلامية بحركته بين مجالين اثنين، الأول: هو المبادئ الأساسية والقواعد الرئيسة التي أصلها الشارع الحكيم في الكتاب المبين، وبينتها السنة الشريفة.

والثاني: هو ما تضمنه عموم قول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمور ديناكم» كما مرّ معنا سابقاً. وتقع في هذا الإطار العلوم الاقتصادية الدنيوية، والمقصود بها تلك الناحية الفنية في الاقتصاد، والتي تنمو وتتطور مع العلم والتقنية الحديثة، وفي هذا الإطار تتحقق الحكمة، التي هي ضالة المؤمن، وحيث وجدها فهو أولى بها.

هذا التوضيح يطرح بوضوح الفارق الرئيسي بين مجالي الاقتصاد، إذ إن جوهر الأسس والمبادئ الاقتصادية في الإسلام ثابت لا يتغير، ويطرأ التبديل والتغيير على الشكل والعرض، بما يناسب أساليب واحتياجات الناس باختلاف الأزمنة والأمكنة.

إن الاقتصاد الإسلامي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بدين الإسلام عقيدة وشريعة، حيث لا يستطيع الدارس للمفهوم الإسلامي الخاص بالجوانب الاقتصادية أن يدرسه مستقلاً عن عقيدة الإسلام وشريعته، ذلك لأن النظام الاقتصادي الإسلامي جزء من الشريعة، ويرتبط معاً بالعقيدة الإسلامية ارتباطاً بيناً، ويبدو ذلك أكثر ما يبدو كمثال في خاصية الحلال والحرام التي تميز الشخصية المسلمة في حركتها الحياتية، عند إقدام المسلم على التعامل في محيط الحياة اليومية.

إن ربط الفكر الاقتصادي الإسلامي بالعقيدة يعطيه تابعاً تعبدياً، ذلك أن أي عمل يقوم به المسلم ـــ اقتصادياً أو غير اقتصادي ـــ يتحول إلى عبادة يثاب عليها، شرط توفر النية والتوجه بهذا العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى، وهذا ما يؤكده الحديث النبوي في قول الرسول ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: « إنّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللّه إلا أُجِرت عليها حتى ما تجعلُ في فيّ امرأتك»[216].

يرتبط الفكر الاقتصادي الإسلامي بالأخلاق أيضاً، فلا يوجد في الإسلام نظـام عملي وحده ونظام أخلاقي وحده، وإنما هما يؤلفـان نشـاط الإنسـان، والاقتصـاد الإسلامي لا يقوم بغير أخلاقه، فلا يجوز مثلاً لصاحب المال أن يستعمل ماله على نحـو يلحق الضرر بمال الغير أو يلحق الضرر بمصلحة الجماعة، والرسول ﷺ يقول: «لا ضرر ولا ضرار»(217).

ويرتبط الاقتصاد الإسلامي بالواقعية، فالإسلام يستشرف في قوانينه ونظمه غايات وأهدافاً تتسق مع واقع الإنسان اتساقاً كاملاً بلا شذوذ ولا انحـراف، فهـي تطـابق طبيعته، وتوافق نوازعه وخصائصه العامة، وكمثال على ذلك حد السرقة في الإسـلام، فعندما يتوفر للفرد العمل ولقمة العيش والسكن وغير ذلك من الضروريات، ويكـون المجتمع مسؤولاً عقائدياً وتنظيماً عن ذلك، ثم ترتكب جريمة السرقة، فإنها عندئذ تمثـل مرضاً اجتماعياً خطيراً ينبغي أن يؤخذ بالشدة حزماً وأمناً، وأما إن حدث طـارئ أو خلل فالأمر سيختلف، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أدرك أن حكـم الله هـو إيقاف حد السرقة في عام الرمادة .

وفي نظام التملك، لا يتفق المنهج الإسلامي مع الرأسمالية، ولا الاشتراكية، بل إنه يقرر الأشكال المختلفة للملكية في وقت واحد، فيضع بذلك مبدأ الملكية المزدوجة بدلاً من مبدأ الملكية ذات الشكل الواحد، إذ يؤمن بالملكية الخاصة والملكية العامة وملكيـة الدولة.

وبالإجمال، فإن أهم ميزات نظام التملك في الإسلام هي الآتي:

ـــ لا يسمح الاقتصاد الإسلامي لرأس المال أن يستغل البشر، بحيث يبقى دائمـاً رابحاً دون استعداد لتحمل الخسارة، ويظهر ذلك من تحريم الربا.

ـــ لا يسمح بالتلاعب في الحياة الاقتصادية بواسطة الاحتكارات والاتفاقات التي تضر بالعامة.

ـــ يفتت الثروات الضخمة عن طريق تحديده طرق التملك المشـــروع، وتقييـــده طرق التملك غير المشروع، وجعل الملك يؤول إلى أيد كثيرة بواسطة نظام الإرث ومـــا رافقه.

ـــ يوجه طاقات الأفراد جميعاً نحو الإنتاج لأنه لا يسمح لأحد أن يكسب عـــن طريق لا يعطي إنتاجاً حقيقياً كالقمار واليانصيب.

ـــ يجعل المال كثيراً بيد كل فئات الأمة، بحيث تبقى الحركة الاقتصادية نشـــيطة بشكل دائم بواسطة نظام الزكاة وتوزيع الفائض في بيت مال الأمة [218] .

5ــ حضارة العدل والأخوة الإنسانية:

كان الحكم العربي الإسلامي يشجع التعاون مع السكان المحليين، فانتشرت ظاهرة التحول إلى الدين الإسلامي في مناطق عديدة، وكان يعني ذلك ـــ بالنسبة لكثير مـــن الناس ـــ تدخلاً أقل في حياتهم اليومية عما اعتادوا عليه كمواطنين غـــير مســـلمين أو كمواطنين تحت الحكم البيزنطي أو الساساني. وكان القانون الإسلامي مـــأخوذاً مـــن التعاليم الأساسية في القرآن، وعليه فإنه كان يشجع على إقامة النظام والعدالـــة في إدارة علاقات الحياة اليومية للمدينة والقرية. وتتناول ثلث الآيات القرآنية تقريبـــاً، والبـــالغ عددها ستة آلاف، أمور التشريع العملية، ففي إطار نظام الأخوة العالمية والمساواة بـــين جميع الأفراد يضع الكتاب المقدس التعاون المتبادل كواجب مقنن، ويعد التبـــذير مـــن الخطايا، والاعتدال في كل الأمور هو الطريق القويم. أما الوفاء بالعهود وممارسة حقوق الأفراد والجماعات ومحاولة الصلح والوفاق وعدم الانتقام فهي من الأمور الواجبة. ومنذ البداية جاء القانون الإسلامي ـــ مثله مثل العقيدة ـــ ليزود كل مسلم بالمعرفة الكافيـــة عن واجباته وحقوقه ليحافظ بذلك على الطريق القويم في الدنيا ويتزود لحياته الأخرى، وبذلك يخضع لإرادة ومشيئة الله.

وقد نعِم المسيحيون واليهود ـــ الذين اختاروا الحفاظ على ديانتهم مع دفع الجزية

داخل الدولة الإسلامية منذ البداية ـــ بمكان خاصة كأهل كتاب، وقد عدهم المسلمون بوصفهم مشاركين في أجزاء من الرسالة الروحية نفسها التي تلقاها المسلمون في القرآن.

اعتقد بعض المسلمين على مر العصور أن المجتمع العالمي منقسم إلى معسكرين متضادين: المؤمنين والكفار. وقد ازدهرت بالطبع مثل هذه المفاهيم ضيقة الأفق في كل العصور وداخل معظم الجماعات سواءً الدينية أو العرقية أو الإثنية، فلم يصرف هذا التعصب بناة الحضارة الإسلامية عن التوصل إلى مستويات حضارية متقدمة بشكل أخّاذ أينما حلوا لفترات كافية سواء في إسبانيا أو الهند أو ما بينهما. والأكثر من ذلك أن الحضارة الإسلامية في أوج عظمتها كانت تضم مجموعات سكانية أكثر تنوعاً وأكثر استقراراً اجتماعياً عن شعوب الإمبراطوريات التي سبقت أو لحقت بها مثل الإمبراطورية الرومانية أو الروسية [219].

ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب، ونشير إلى ما ترجمه مسيو دوزي من قصة أحد علماء الكلام العرب الذي كان يحضر ببغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشترك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى، فيستمع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم، ولا يطلب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل، لا إلى الأدلة المأخوذة من أي كتاب ديني كان، فتسامح مثل هذا هو ما لم تصل إليه أوربة بعدما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة وما عانته من الأحقاد المتأصلة وما منيت به من المذابح الدامية [220].

وأثناء القرون الأولى للحضارة الإسلامية كان المجتمع الديني والسياسي يعد مركز الوجود من وجهة نظر المسلمين الذين امتلكوا الحقيقة الإلهية والشريعة: القانون الإلهي.

لعدة قرون كان الرحالة المرموقون وبعض العلماء العالميين هم المسلمون الوحيدون العارفون بما يدور في مؤسسات العالم غير الإسلامي وطريقة حياته. غير أنه بانتشار التجارة واتساع المواجهات مع العالم خارج حدود الدولة الإسلامية، أصبح الحكام

المسلمون على معرفة بأنواع أخرى من التنظيمات السياسية والاجتماعيــة. وبزيــادة الاتصال بالمجتمعات الأوروبية بعد إعادة تشكيلها في عصر النهضة والإصلاح والتنوير، أعاد المسلمون دراسة نظم الحكم الدستورية والبرلمانية التي كان قادتهم يعدونها محل شك ومصدر خطورة لمرحلة طويلة. وقد تم تنقيح وتطوير بعض تلك النظم لتلائم التطبيـــق المحلي. وقد حفّزت الخبرة النامية بالحكم الإمبراطوري أكثر من أي شيء أخر الحكــام المسلمين ليطوروا وسائلهم الخاصة في تطبيق القوانين لتتواءم مــع الحاجــات العلميــة المتطورة للمجتمعات في كل أنحاء الممالك الإسلامية. وغالباً ما كانت حلول المشــاكل القانونية اليومية تتطور بشكل يختلف عما حدده فقهاء الدين المقيدون بالقانون الإلهــي (الشريعة).

وتبعاً لمعظم المعتقدات الإسلامية، فإنه لا يوجد فاصل بــين الــدين والدولــة أو الحكومة، ناهيك عن الفصل بين المجتمع والحكومة، كما لا يمكن فصل الأخلاقيات عن السياسة. ولا توجد أي قوة على الأرض تستطيع أن تخطئ أو حــتى تعــدل القــوانين القرآنية أو تمنع تطبيقها. وتتركز مهمة الحكام في الحفاظ على هذه القــوانين ودعمهــا فقط. والمسموح لهم بالتفسير الشرعي لهذه القوانين هم أساتذة القــانون والمفكــرون المؤهلون فقط. وتلتزم النظرة التقليدية في الإسلام بأنه ليس هناك من هدف دنيوي لكل الحكومات سوى العدل والحفاظ على تجانس المجتمع بكل أقسامه ومكوناتــه في نظــام سماوي تام. وقد سادت مثل هذه النظرة لعدة قرون في أيام الأصولية الأولى للإســلام. لكن بمرور الزمن ولد التطاحن بين رجال الدولة وفقهاء الدين مرونة معقولة تضــمنت التوفيق والتحول المؤقت صعوداً وهبوطاً بين مجموعة رجال الدولة ومجموعــة الفقهــاء [221].

6ــ حضارة دولية:

إن مبادئ التعامل الدولي في الإسلام تمثل أساساً هاماً من أساسيات المفهوم الإسلامي للحضارة، ويكاد يتفق علماء التشريع في الغرب على أن مبادئ القانون الدولي العام، مبادئ حديثة العهد، ابتدعتها أوربا في العصر الأخير، حيث إن النظام الدولي لم يكن معروفاً لا في العصر القديم اليوناني والروماني ولا في العصور الدينية الأولى في اليهودية والمسيحية.

ولكن هؤلاء نسوا أو تناسوا محيط تاريخ الحضارة الإسلامية، والتي عرفت القانون الدولي منذ أيام الرسول ﷺ وتصورت مفاهيمه والمبادئ القائم عليها وقواعده في السلم وفي الحرب.

فلأن الإسلام هو دين الله الخاتم، ولأن التصور الإسلامي تصور يتسم بالشمول والتكامل، فكان من حق البشرية أن تبلغ هذه الدعوة الجديدة الخاتمة التي تحمل كل المقومات والعناصر التي تضمن لها البقاء، وكان لابد من الوقوف أمام أية سلطة تحول دون تبليغ هذه الدعوة.

وكان من أساسيات الدعوة الإسلامية، أن يترك الناس أحراراً في اعتناق هذه العقيدة بعد أن يتعرفوا على حقيقتها، فإذا أبى فريق منهم، فليس من حقه أن يقف حيال هذه الدعوة لكي تمضي في طريقها المنبثق عن التصور الإسلامي كدعوة عالمية، معنى ذلك أن الدعوة الإسلامية لم تعن أكثر من وصول دعوة الإسلام إلى مسامع الناس وأبصارهم وقلوبهم ، قال تعالى: {فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } [222].

ومن الأسس الدولية التي واكبت نشر الدعوة الإسلامية أن الإسلام أثناء انتشاره وفتوحاته، قد اقتلع من قلوب المسلمين والدعاة إليه جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات الأخرى، وأقر بتعايش الأديان جنباً إلى جنب في روح من التسامح والمحبة ،

قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (223).

فليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه فرضاً على العالمين، فالحق سبحانه وتعالى يقول: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } (224)، وقال أيضاً: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } (225)، ولهذا برزت حرية العقيدة في الإسلام ، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (226).

ضرب توماس أرنولد في كتاب (الدعوة إلى الإسلام) أمثلة كثيرة على ظهور التسامح الإسلامي في الفتوحات وفي المعاهدات، ولمس اطمئنان المسيحيين على حياتهم وممتلكاتهم وحقوقهم السياسية أثناء عيشهم في ظل الحكم الإسلامي وتمتعهم بالحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية، وإقامة كنائسهم في مصر والشام والعراق وغيرها، هذا التسامح أساسه في القرآن بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } (227)، ومن ناحية أخرى، أعطى الإسلام التمثيل الدبلوماسي السياسي أهمية كبرى باعتباره يقوم على مبدأ السلام العالمي ومبدأ الحرية الدينية واعتبار التمثيل الدبلوماسي وسيلة من الوسائل التي تساعد الشعوب على الاحتفاظ بأواصر المودة والتعاون وخدمة الأغراض السلمية، والأهم أن هذه الدعوة الدبلوماسية تمد الشعوب الأخرى بكل ما تحتاجه لمعرفة حقيقة الإسلام، وذلك عن طريقه الدعوة الإسلامية .

نلمس البدايات الأولى الحقيقة للدبلوماسية الإسلامية في إطار التعامل الدولي من خلال مبادرة الرسول ﷺ في السنة السادسة للهجرة بإرساله الرسل والسفراء إلى الملوك والأمراء يحملون كتباً ورسائل يدعوهم فيها للدخول في الإسلام ويعرفهم مبادئ الدين الجديد، والأهم من ذلك ما انطوت عليه هذه الرسائل من مبادئ وقيم تبين حقيقة الدعوة الإسلامية، وإيثارها للسلام والرحمة، ونبذها لقانون القوة إلا الدفاع عن كيان الأمة العقائدي والحضاري.

و حدد الدين الإسلامي أهم القواعد والمبادئ التي من خلالها يتم التعامل مع الرسل والسفراء، ومن أهمها توفير الحماية لهم وصيانتهم وكفالة الحصانة السياسية الكاملة لهم، ومن أهم الأمثلة التي تؤكد على ذلك؛ عندما جاء رسولان إلى النبي ﷺ، قال لهما: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما[228].

أما المستأمن، وهو الشخص الذي يدخل الديار الإسلامية طلباً للأمان، فإن الإسلام قد أمّن المستأمنين على أنفسهم وأموالهم، ولو كانوا منتمين لدولة نشبت الحرب بينها وبين المسلمين، ولهم أن يباشروا كل نشاطهم من غير قيد إلا في دائرة ما أُخذ عليهم من شروط، قال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ } [229].

أخيراً نشير إلى أن الحضارة الإسلامية كانت النموذج الوحيد في تاريخ الحضارات الذي أبى إلا أن يجعل قواعد التعامل مع غير المسلم تخضع لنفس القواعد التي يخضع لها تعامله مع المسلم، وكان محور التعامل هو كرامة الإنسان واحترام إنسانية وفرديته، فالوظيفة الحضارية الإسلامية تجاه الآخرين هي {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [230] [231].

فإن اعتقد بعض المسلمين على مر العصور — كما بيّنا أعلاه – أن المجتمع العالمي منقسم إلى معسكرين متضادين: المؤمنين والكفار – وقد ازدهرت بالطبع مثل هذه

المفاهيم ضيقة الأفق في كل العصور وداخل معظم الجماعات سواءً الدينية أو العرقية أو الإثنية – فلم يصرف هذا التعصب بناة الحضارة الإسلامية عن التوصل إلى مســـتويات حضارية متقدمة بشكل أخّاذ أينما حلوا لفترات كافية سواء في إسبانيا أو الهند أو مـــا بينهما. والأكثر من ذلك أن الحضارة الإسلامية في أوج عظمتها كانت تضم مجموعات سكانية أكثر تنوعاً وأكثر استقراراً اجتماعياً عن شعوب الإمبراطوريات التي سبقت أو لحقت بها مثل الإمبراطورية الرومانية أو الروسية.



الفصل الثاني

أماكن التعليم في العالم العربي الإسلامي عبر العصور

– تمهيد:

لو أردنا دليلاً على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغـــرب في الماضي، لكفانا أن نعرف أن نسبة 95 % على الأقل من سكان الغـــرب في القـــرون: التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادية، كـــانوا لا يســـتطيعون القـــراءة والكتابة.

فلقد اهتمت الدولة العربية الإسلامية بتعليم الرعية، ولم تلبث أن جعلـــت مـــن التربية واجباً ترعاه، فالأطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأولي مقابل مبـــالغ ضئيلة يقدر على دفعها الناس دون مشقة. ومنذ أن بدأت الدولة تعيّن المعلمين للمدارس أمكن للفقراء أن يعلّموا أولادهم مجاناً، بل إنّ بعض البلدان العربية مثل إســـبانية قـــد جعلت التعليم للجميع مجانياً. وقد افتتح الحكم الثاني حوالي عام 355هـــ في قرطبـــة سبعاً وعشرين مدرسة لأبناء الفقراء، بالإضافة إلى المدارس الثماني التي كانت فيها حقاً. وفي القاهرة، أنشأ المنصور قلاوون مدرسة لليتامى ملحقة بالمستشفى المنصوري، ومنح كل طفل فيها، يومياً، رطلاً من الخبز وثوباً للشتاء، وآخر للصيف[232].

1– المؤسسات العلمية العربية الإسلامية [233]:

وهذه أهم مراحل تطور العلم والتعليم ومؤسساته في حضارة العرب والمسلمين:

أـــ عصر الخلفاء الراشدين: دام أربعين عاماً، كان عهد دعوة وتبشـــير وفـــتح واتصال مع بيئات عالية الحضارة العلمية في الشام ومصر والجزيرة وفارس. كان المسجد

المدرسة الأولى في هذا الزمن ثم ألحق به مكاتب يمكث فيه الطـلاب حـتى السادسـة عشرة. يقول ابن سحنون في هذا الصدد: أقبل القرشيون وأشراف العرب على العلـم فانتشرت المكاتب في مدن الحجاز، بل بين البدو، حتى أن ابن حزم قال: لم يبق بلد إلا وبُنيت فيه المساجد ونسخت المصاحف وعلم القرآن للولدان شرقاً وغرباً. وقد عني كل من أبي بكر وعمر بهذه المكاتب حتى أنهم كانوا يعلّمون فيها أبناء الأسرى أيضاً.

ب ـــ عصر الأمويين: استمر اثنتين وتسعين عاماً، امتد فيها ملكهم ما بين سمرقند وأقاصي الأندلس، وكانت دمشق مناراً يشع نوره على أرجاء واسعة، لا بل العالم كله المعروف حينها، حيث احتلت الثقافة العربية الإسلامية مركزاً لا مثيل له في التـاريخ. فتح الأمويون فتوحات عظيمة، ورتّبوا البريد وأنشئوا القصور والأقنية، وتركوا من جملة ما تركوا أثرين من أروع الآثار العمرانية في الشرق العربي وأفخمها، وهمـا المسـجد الأقصى وقبة الصخرة في القدس والمسجد الأموي في دمشق. كان المسـجد الأقصـى مركزاً علمياً وُجدت حوله المدارس والبيمارستانات والمكاتب، وكذلك الحال في الجامع الأموي بدمشق.

اقتبس الأمويون من علوم اليونانيين والبيزنطيين ونقلوا التدريس من الإسـكندرية إلى أنطاكية وحران، فانتشر العلم في البلاد. اشتهر في زمن الأمويين الضحاك بن مزاحم معلماً يشرف على تعليم ثلاثة آلاف صبي. ومهّد الخلفاء الأمويـون بالمعاهـد الـتي أوجدوها، وحركة النقل التي باشروها، إلى العصور الذهبية في الآفاق العربية الإسلامية، فأخذ نور علمها يسطع في الدولة العباسية [234].

يرجع الفضل للأمويين في ربط العناصر التي تألفت منها الحضارة تحت تأثير عربي، وفي إعطاء هذه الحضارة المركبة شكلاً عربياً. [235]

حكم الوليد بن عبد الملك مع أبيه إمبراطورية عربية امتدت من جبال البرانس إلى الصين، تجلى فيها الحكم بفتوحات واسعة وعمران عظيم، وبإشادة معاهد علميـة أدت

إلى نهضة علمية واجتماعية كبيرة الأثر. لقد تجلت النهضة العلمية في زمن الوليد بإشادة المدارس وتعميم العلم وتيسير سبله لكل طالب في كل قطر من الأقطار التابعة لملكــه، وباحترامه للعلماء وإعلاء مكانتهم وتشجيعهم على البحث والحرية في إبــداء الــرأي، وكانت له عناية خاصة بالطب والنظم الاجتماعية الطبية، فأوجد عدداً كبيراً من المشافي التي تُعلم الطب، كما أمر بمعالجة المرضى في المشافي على نفقة بيــت المــال، وجعــل الدخول إليها مباحاً لكل مريض فقيراً كان أم غنياً، مواطناً أم غريباً، وعنى عناية خاصة بالمقعدين والزمنين ولا سيما المذمومين منهم.

لقد خصص الوليد لكل مقعد فقير معيناً يساعده على تأمين مصــالحه الحيويــة، واقتطع له من المال ما يكفي لعيشه، وكذلك عامل العميان، فعيّن لكل منــهم دلــيلاً يرشده إلى سلوك الطرق. ووجه عناية خاصة للمجذومين، فأمر بإنشاء دور لهم يعالجون فيها، وفرز لهم نفقات من بيت المال، وقطع لهم من الأرزاق ما يكفي حاجتهم، وجعل لكل مجذوم يبدي مرضه بعض الخبث خادماً يقوم على خدمته[236].

وقد وُقفت على المجذومين قرية كاملة من أعمال حوران هي قرية جلين. ومــن الطريف أن حجج الوقف حينما تذكر المجذومين تنعتهم بالسادة المجذومين احتراماً لهــم بوصفهم مرضى في أجسامهم وأنفسهم، في حين كل ينظر إلى المجذوم في كثير من أنحاء العلم نظرة من أصابه رجس من الشيطان لا يطهر منه إلا بحرقه، وكم مــن مجــذومين أُحرقوا بنتيجة ذلك الاعتقاد الخاطئ.

لقد جعل الوليد من دمشق مدينة الفتنة والجمال، مدينة العلم العالي والفن الرفيع، إليها يفد الشعراء، وعلى منابرها يتبارى الخطباء، وفي مساجدها ودور علمهــا تعقــد حلقات العلماء، استجلب إليها الصنّاع والمهندسين، فبنوا أعمدة الجامع الأمــوي مــن الرخام وجملوا جدران صحنه بالفسيفساء، فرُسمت بها المدن ولونت الأشجار بالخضــرة والصفرة والذهب، وأنشأ في دمشق بيت الحكمة، ووُضعت بيوت للكتــاب يعلّمــون

كلام العرب، وفُتحت مساجد وجوامع يتعلم فيها الناس ويتدارسون، فسارت الثقافة والعبادة جنباً إلى جنب في بيوت الله، وقد قارن كثير من الغربيين في ذلك الحين بين دمشق وروما، وقارنوا بين حضارتها وحضارة غيرها من عواصم ذاك العصر في سائر الميادين، فاعترفوا بأنها في طليعة الحضارة والتقدم، ففيها العمارة والبناء والموسيقا والغناء، والصناعة والهندسة، والعلم والفقه والفلسفة، وكان فيها قصور رائعة منها قصر الخضراء الذي بناه معاوية، كما كان فيها دور بديعة، متعة للنظر وتحفة للسكان، وقد وصف حماد الراوية إحداها، فقال: إنها دار قوراء مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك.

وتروي دور دمشق المياه، ويشرف على توزيعها المهندس، وهو الذي يقدر مجاري القنى حيث تحفر، ولقد تخيل بعض المستشرقين أن الخليفة كان يقف في الصالحية عند سفح قاسيون، ويرقب من علٍ توزيع المياه في مدينة دمشق، ليطمئن إلى إرواء العطشى.

لقد شهدت دمشق في زمن الأمويين عصراً ذهبياً في السياسة والكياسة والعلم والثقافة والتسامح واللين والأدب واللياقة.

لم يكن عمل الوليد خاصاً بدمشق، بل عممه قواده شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في مملكته الواسعة الأطراف، وبذلك يكون الوليد ذا فضل كبير على توجيه العالم نحو نظم اجتماعية طبية لم يستطع تطبيقها حتى الآن بالصورة التي طبقها الوليد بن عبد الملك في ذلك الماضي البعيد.(237)

ج ــ عصر العباسيين: وهو أطول العهود العربية، وأغناها استمر من سنة 132هــ إلى سنة 656هــ، ركز العرب فيها نتاج ثلاث مدنيات؛ هي المدنيات الإغريقية والفارسية والسريانية، وبنى فيها المنصور سنة 754م بغداد، وطلب من إمبراطور الروم أن يبعث إليه بكتب الإغريق، ولما تولى الخلافة هارون الرشيد رغب ورغّب في العلم، وكان يحيط نفسه بسياج من العلماء، وأقام مكتباً بجانب كل جامع،

وأسس بعده المأمون دار الحكمة في بغداد، وأخذت تتكون المكتبات وتزخر بمختلف العلوم والفنون. ومما يجدر ذكره أن المكاتب كانت شائعة في هذا العهد، ويذكر لنا ابن النديم اصطلاحاً جديداً هو مكتب العامة، وربما كان هو المكتب الذي يؤمه عامة الطلاب. ولقد ظهرت كلمة المدرسة في النصوص العربية في منتصف القرن الثالث الهجري، وكانت أول مدرسة أُنشئت في الشام، وسُميت بالمدرسة الصادرية سنة 350هـ، وقد استمر تأسيس المدارس في هذا القرن وأنشأ العباسيون في منتصف القرن الخامس الهجري سلسلة من المدارس وفي مقدمتها المدرسة النظامية في بغداد سنة 459هـ، ثم بوشر بتأسيس المدارس على نطاق واسع بحيث تكاد لا تخلو مدينة من مدن الدولة العباسية من مدرسة نظامية يغدق فيها على طلبة العلم إغداقاً، ويؤمن لهم معاشهم، وقد جذبت المدرسة النظامية في بغداد إليها الطلاب من جميع الأقطار، كما قصدها أكابر أساتذة العالم العربي، فخرّجت الفقهاء والقضاة والعمال وكتاب الدواوين. ولقد استمر تأسيس المدارس في القرن السادس الهجري وبعده، فأقام الخليفة المستنصر بالله سنة 630هـ في بغداد مدرسة المستنصرية لتدريس علوم اللغة العربية والطب والصيدلة وعلوم الرياضة، وألحق بها فرعاً للأيتام وآخر للمكفوفين، ومكتبة كبرى ومختبرات وآلات وأدوات، وأُسست فيها دائرة الفلك لرصد الكواكب، وزينت أبوابها بالساعات المبتكرة.

بُنيت في أحد حيطانها دائرة، وصور فيها صورة الفلك، وجعل فيها طاقات لها أبواب وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ووراءهما بندقتان، فعند مضي كل ساعة ينفتح فم البازين، وتقع منهما البندقتان، وكلما سقطت بندقية انفتح باب من أبواب تلك الطاقات وهو من ذهب، فيصير حينئذ مفضضاً وإذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان إلى موضعهما ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيابها، فإذا جاء الليل

فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائـــرة القمر، ثم يبتدئ في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس، فـــتعلم بـــذلك أوقات الصلاة.

شُيّدت عدا المدارس: الربط والزوايا والبيمارستان. ويحدثنا ابن جبير الـــذي زار العراق وسوريا والحجاز ومصر في أواخر القرن السادس الهجري عن وجود هذه المعاهد في كل مدينة من المدن العربية التي مر بها، وأطنب في وصفها، كما وصف لنا حلقـــات التدريس، و الربط والبيمارستانات [238].

د ـــ عصر الأندلسيين: كانت الأندلس تضم في أواخر القـــرن الحـــادي عشـــر الهجري سبعين مكتبة عامة، وكان في بعض المدن الرئيسية مدارس كبرى يصح تسميتها بالجامعات، وفي طليعة هذه المدن قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة ومجريط (مدريـــد)، وكان في بعض هذه الجامعات بيوت للطلبة على النحو المعروف في يومنا هـــذا باســـم المدن الجامعية، وقد شُيدت في كثير من أنحاء البلاد الأندلسية وعلى مقربة مـــن المـــدن الكبرى ضواحي خاصة بدور العلم منها سلمنكة.

كان بين دوائر التدريس في جامعة قرطبة دوائر للطـــب والفلـــك والرياضـــيات والعلوم الدينية والشرعية، وبلغ عدد الطلاب المنتسبين إليها بضـــعة آلاف، وأصـــبحت شهادتها سبيلاً للوصول إلى أسمى المراتب وأرفع المناصب.

كان النساء شقائق الرجال في اقتحام الحصون العلمية، فاشتهر منـــهن في الأدب والطب حتى في الفروسية عدد كبير. وقد بلغ عدد المدارس في قرطبة وحدها في خلافة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر ثمانون مدرسة، وأصبحت الأنـــدلس في ختـــام القرن الحادي عشر الهجري ذات سبعين مكتبة ومدرسة كبرى جامعة في كل مدينـــة، ومدارس متعددة في كل كورة.

و في غرناطة جامعة أسسها يوسف أبو الحجاج (734 ــ 755هـــــ) ســـابع

سلاطين بني نصر، وقد وُضعت أمام المدخل في بناية هذه الجامعة تماثيل من الحجر كأنها تحرسها، وكان للجامعة معاهد وفروع تدرس فيها علوم الطب والكيمياء والفلك والفلسفة والفقه والدين، وكان يفد للتحصيل في معاهد كلٍ من الجامعات الأندلسية طلاب من جميع الملل والنحل من كل قطر عربي أو غير عربي، وقد جرت العادة أن تقام في الجامعة حفلات عامة وأخرى تذكارية تُتلى فيها الخطب والأشعار المبتكرة، ويلقيها في الغالب أساتذة من الجامعة نفسها، وهناك قول مألوف كان ينقش غالباً فوق أبواب أكثر هذه المعاهد، وهو: إن العالم يقوم على أربعة أمور: علم الحكماء، وعدل العظماء، ودعاء الصلحاء، وشجاعة الشجعان.

كان لكل جامعة خزائن عديدة من الكتب، وكان لكثير من مشاهير الرجال والنساء مكتبات جامعة، وقد تفردت قرطبة بأنها كانت في مقدمة أسواق الكتب في الأندلس، وكان اقتناء الكتب سبيل المنافسة بين الناس يتنقلون من مدينة إلى مدينة لانتقائها أو يتهادونها كما تتهادى الجواهر النفيسة.

واشتهر بين ملوك الطوائف أصحاب إشبيلية بنو عباد بتشجيعهم العلوم والآداب والفنون، فنبغ في إشبيلية عدد كبير من رجال العلم والفن.

تعد ولاية المنصور حافلة بالأبحاث العلمية والعمرانية، ومن آثارها الرائعة في الفن المعماري البرج المعروف بالجيرالدا، وكان منارة ومرصداً بناه المنصور عقب انتقاله إلى إشبيلية واتخاذها عاصمة ملكه سنة 566هـ.

اشتهر في دولة بني نصر: محمد بن يوسف بن نصر 222هـ، وكان يعرف بابن الأحمر، فجعل غرناطة عاصمة ملكه، وكان عدد سكانها يزيد عن نصف مليون.

أشاد ابن الأحمر الحمراء، كما أوجد إضافة إلى الأعمال العمرانية الاجتماعية التي حققها مشافي وأقنية وحمامات وسوقاً عامة ما زالت قائمة حتى اليوم وتدعى القيصرية، كما أوجد فيها عبد الله الوليد إسماعيل جنة الخليفة التي تعرف اليوم تحريفاً بجنراليف،

وهي تحاكي أورع حدائق النبات اليوم.

ارتكبت في غرناطة سنة 905هـ جريمة كبرى نحو العالم تحاكي جريمة التتر في بغداد، فقد صادر (كسيمه نه س) الكتب العربية وجمعها أكواماً في ساحات غرناطة وأشعل النار تحتها. وهكذا أفل نجم العرب عن أسبانية فبهت نور العلم وما لبث أن زال وعم الظلام وفشا الجهل، لقد رحل العرب عن الأندلس بعد أن بصموها ببصمات الفن العربي الخالد.[239]

هـ ـ عصر الفاطميين: 296ـ 576هـ ، نشأت دولتهم في شمال افريقية في أواخر القرن الثالث الهجري، واستولت على مصر وسورية بُعيد منتصف القرن الرابع الهجري، وكانت أول أعمال الفاطميين العلمية إقامة الجامع الأزهر سنة 361هـ، وجعله مركزاً علمياً دينياً، وقد بلغ عدد مدارس القاهرة وحدها في زمن الفاطميين عشرين مدرسة، ولم يهتم الفاطميون بالناحية المادية من الحياة الاجتماعية فحسب، بل وجهوا عناية كبيرة إلى رفع مستوى الناحية العلمية فنافسوا العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس، فأسس الخليفة الحاكم بأمر الله داراً للعلم عام 396هـ للميلاد بمدينة القاهرة أفاض المقريزي في وصفها قائلاً: إنها جُهزت بأجمل الأثاث وأفخر الرياش، وشحنت بألوف الكتب، ورُتب لها النساخ والحبر والكاغد، وقُدّر لها المدرسون والمعيدون، وكانت تُدرس فيها علوم الكلام والعروض والقانون والطب والفلك، وأُلحق بها مكتبة واسعة جداً غنية بالمؤلفات النادرة، وكانت هذه المدرسة كعبة لطلاب العلم في بلاد مصر وفي سائر الأقطار العربية الإسلامية، وكثيراً ما اعتاد الخليفة الحاكم بأمر الله دعوة المدرسين في المدرسة لقصره للمباحثة وللمناقشة بمحضر منه، ولا يصرفهم إلا بعد أن يغدق عليهم العطايا والهبات.

وكانت دار العلم مكتبة عامة للباحثين والعلماء وجامعة علمية للبحث والمناظرة، وقد خُصص للعلماء الرواتب الشهرية حتى يتفرغوا لأبحاثهم. وكانت هذه المؤسسات

تؤلف جزءاً أساسياً من معاهد الدولة العلمية، تنفق عليها وتشرف عليها إشرافاً مباشراً، واشتهر أيضاً من بين هذه المعاهد معهد أُحدث في طرابلس أحرقه الصليبيون في أوائل القرن السادس للهجرة، ومعهد آخر أُحدث في بيت المقدس أصبح فيما بعد المدرسة الصلاحية التي أسسها صلاح الدين.

اتخذ الخلفاء قصورهم قاعات للمحاضرات، كما جعلوا من دار العلم والجامع الأزهر قاعات لإلقاء مجالس الحكمة التأويلية، وكانت تعقد أيضاً في جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص ومساجد الإسكندرية ودمياط حتى في أسوان حلقات للتدريس والمناظرة.

ز- عصر النوريين والأيوبيين: زال الحكم الفاطمي عن الشام بغزو الصليبيين سورية في أواخر القرن الخامس الهجري واحتلالهم السواحل وبيت المقدس سنة 492هـ، وبقي الفاطميون في مصر، وكان العباسيون في العراق وإيران، فتقدم في هذه الغمرة عماد الدين ومن بعده ولده نور الدين زنكي أمير الموصل في أوائل القرن السادس الهجري نحو الشام، واحتل حلب فدمشق فمصر، وقضى على الدولة الفاطمية بواسطة صلاح الدين أحد قواده وخلفائه. وكانت تدين الدولتان النورية والأيوبية بالولاء إلى الخليفة العباسي في بغداد، وقد تميز عصرهما بثلاث مؤسسات عامة تشرف الدولة عليها إشرافاً مباشراً، وهي المدرسة الفقهية والبيمارستان الطبي والخانقاه للمحاربين، وبإحداث مئات المنشئات من المدارس ودور القرآن والحديث، وقد اشترك في تأسيسها رؤساء الدولة والأمراء والأميرات والفرق الصوفية والطوائف اشتراكاً فعلياً، كما ساهم في التبرع لها الجمهور، ووُقف عليها الأوقاف وحبست عليها الحبوس وأغدقت عليها الصدقات، واهتم صلاح الدين بالعمران والمدارس فأدخل نموذج المدرسة إلى مصر، فاشتهرت مدارس القاهرة كما اشتهرت في القدس المدرسة المعروفة بالصلاحية نسبة إليه، وكذلك وُجدت عدة مدارس في الإسكندرية، وكانت أكثر هذه

المدارس تجمع بين المسجد والمدرسة، وأسس صلاح الدين مستشفى في القاهرة، وقد أشاده على أسلوب المارستان النوري في دمشق، وكان ابن طولون وكذلك كافور قد أسسا مثل هذه المستشفيات العامة. وكان في دمشق ثلاث مدارس للطب إحداها الداخورية والثانية الدنيسرية والثالثة اللبودية، وقد بنى الملك العادل أخو صلاح الدين المدرسة العادلية بدمشق وأكملها ابنه الملك المعظم.

أُسست في بغداد مدرسة طبية هي المستنصرية، ومثلها في البصرة عُرفت بالناصرية، كما أسست في القاهرة مدرسة طبية أخرى عرفت بالمهذبية.[240]

و ـ عصر المماليك: يمتد من منتصف القرن السابع إلى أوائل القرن العاشر الهجري أي السادس عشر الميلادي. انتقلت فيه الخلافة العباسية إلى القاهرة، فكثرت المدارس والمعاهد والبيمارستانات ومكاتب الأيتام وحلقات التدريس حتى بلغت المئات في مصر والشام.

كان من بين هذه المعاهد بيمارستان قلاوون في القاهرة، وكان قلاوون قد عُولج في بيمارستان نور الدين في دمشق فبرأ وأُعجب به وبإدرته، ونذر أن يبني بيمارستاناً إن صار سلطاناً، فلما صار سلطاناً أخذ في عمل ذلك سنة 683هـ، وبنى بالقرب من المارستان مدرسة وقبة ومكتباً للأيتام[241].

ز ـ معاهد العرب العلمية في صقلية: نشر العرب في صقلية لواء العدل والحرية والعلم والتسامح، فازدهرت هذه الجزيرة في عهدهم ازدهاراً كبيراً، وكثرت فيها المساجد وحلقات التدريس والمدارس. ملؤوا عاصمتها باليرمو بالمكتبات العامة والمعاهد العلمية وبالقصور الشامخة البديعة والمباني الرائعة، منها الدائرة العلمية التي كان يسميها العرب قصر العزيز، وقد حرف اسمها فصارت عزيزة ـ زيزة ـ، كان عدد سكان بالرمو قبل فتح العرب لها لا يزيد عن (3000) نسمة، وما إن جعلها أمراء المسلمين عاصمتهم وفتحوا فيها المدارس وشيدوا العمران ووطدوا أركان الأمان، حتى أصبحت

من أشهر المدن وأكثرها سكاناً، وقد تيسر لابن حوقل أن يزورها سنة 972هـ فقال عنها أنها أجمل بلدان العالم العربي الإسلامي وأكثرها رخاء، وما لبث أن زاد عدد سكانها فأصبح (300.000)، وكان فيها من الجوامع (300) جامع تُدرس فيها العلوم، بعضها رائع البناء فيه الأقواس الجميلة والفسيفساء العجيبة والنقش الدقيق وغير ذلك من آثار المدنية والفنون وتقدم العلوم وازدياد العمران. حكم صقلية ثماني عشرة دولة معظمة فكانت دولة العرب أكثرهم عمراناً تركت آثاراً رائعة لاتبيدها عاديات الزمن ولا تمحوها تتابع المحن، تشاهد تلك الآثار في أمكنتها التاريخية العديدة كالقصر الملكي وكان مقراً لأمراء المسلمين، وفي كنائسها العديدة وكان أكثرها جوامع [242].

2- البيمارستان المنصوري أنموذجاً [243]:

البيمارستان المنصوري أفضل نموذج للمدرسة و المشفى، بنى هذا البيمارستان السلطان المنصور قلاوون الألفي، وذلك في القاهرة بين القصرين [244]، فابتدأ بتشييده في ربيع الأول عام 682هـ - 1283م، وقد قال ابن بطوطة فيه: «وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أُعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يُحصر، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم» [245]. وقال عنه ابن أبي حجلة: «هو من حسنات الزمان، وتحتاج إليه الملوك، ويفتقر إليه الغني والصعلوك، فهو عون الفقير وجبر الكسير» [246].

جُعل البيمارستان المنصوري لتقديم الرعاية الصحية لمختلف فئات الشعب، فلم تُقيد خدماته بفئات معينة، بل أفاد منه الرجال والنساء والأغنياء والفقراء، والكبير والصغير، والجندي والأمير والوزير، وأهل القاهرة ومصر وضواحيها، والمقيمون والوافدون، واستُقبل فيه المرضى أياً كانت أمراضهم [247].

وتؤكد هذه الرعاية وثيقة أصدرها الملك المنصور قلاوون عام 684هـ بتقليد مدرس

في هذا البيمارستان، فذكر فيها: «وأبحنا التداوي فيه لكل شريف ومشروف، ومأمور وأمـــير، وساوينا في الانتفاع به بين كل صغير وكبير، وعلمنا أن لا نظير لنا في ملكنا، ولا نظير لـــه في إبقائه، فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير»[248].

لم تحدد مدة الإقامة في هذا البيمارستان، ولم تقتصر الرعاية الصحية فيه على المتـــرددين والمقيمين، وإنما شملت أيضاً الفقراء في بيوتهم، فقدمت لهم الرعاية المناسبة، وصُرف لهم ولغيرهم ما يحتاجونه من الأدوية والأغذية والأشربة[249].

وانقسم أطباء البيمارستان إلى ثلاث فئات:

ـــ الطبائعيون: وهم أطباء الأمراض الباطنية.

ـــ الجرائحيون: وهم من يقومون بالعمليات الجراحية.

ـــ الكحالون: وهم المختصون بمعالجة أمراض العيون[250].

كانت مهمة هؤلاء الأطباء الإشراف على المرضى مجتمعين أو متناوبين، فتُحدد مواعيد دوامهم بدقة، يداوم الأطباء الكحالون صباح كل يوم كي لا يأتي مريض للعلاج ويُرد، ونجد تعاوناً بين هؤلاء الأطباء في مختلف فروع الطب، فمن الضروري مـــثلاً أن يراجـــع الطبيـــب الكحال الطبيب الطبائعي للنظر في علاج المريض الذي قد يعود مرض عينه إلى أسباب باطنية، وكان على الأطباء الدوام في البيمارستان ليلاً مجتمعين أو متناوبين[251].

فيما يتعلق بالأمراض المعالجة، فإن البيمارستان مستشفى عام لعلاج جميـــع الأمـــراض، وكان مقسماً إلى قسمين؛ أحدهما للذكور، والآخر للإناث، وقد قُسِّم كل قسم من هـــذين القسمين إلى القاعات التالية: قاعة الأمراض الباطنية، وقاعة الجراحة، وقاعة أمـــراض العيـــون، وقاعة التجبير، وقُسمت قاعة الأمراض الباطنية إلى عدة أقسام صغيرة، فمنها قسم للمصـــابين بالحمى (المحمومين)، وقسم للممرورين (وهم مرضـــى الجنـــون)، وقســـم للمـــبرودين (أي المتخومين)، وقسم لمن به إسهال[252].

ووُجد في البيمارستان ما يشبه الصيدلية وتحضير الأدوية، فأُفرد فيه مكان لطبخ الأدوية

والأشربة، ومكان لتركيب المعاجين والأكحال والمراهم، ومكان تُفرق فيه الأدوية والأشربة[253].

كان أيضاً ما يماثل وظيفة الصيدلاني والممرض، فقد رُتّب فيه رجلان اشترط فيهما الأمانة والديانة، مهمة الأول منهما حفظ الأدوية والعقاقير وصرفها بحسب أوامر الأطباء، ويسلمها للرجل الثاني المسؤول عن توزيعها على المرضى، والتحقق من أن كل مريض قد تناول الدواء الموصوف له، ومن مهماته توصيل الطعام للمرضى كلٌ حسب ما وصف له[254].

أما أهم صفة لهذا البيمارستان فهي أنه كان جامعة لتدريس الطب، فأشبه بذلك كبار المستشفيات في عصرنا من حيث إلحاق كليات الطب بها، فتوافرت فيه الدراسة العملية للطب، وممارسته على يد الأساتذة، فجعل فيه شيخٌ للاشتغال بالطب[255]، وخُصص فيه مكانٌ يجلس عليه رئيس الأطباء لإلقاء محاضراته في الطب[256]، وكان السلطان المملوكي يصدر بنفسه مراسيم تعيين المدرسين في البيمارستان[257]، ومن هذه المراسيم الدالة على تعليم الطب فيه مرسوم ذكر فيه: «وليجمع عنده شمل الطلبة، وليعط كل طالب ما طلبه ... وليشرح لهم صدره، وليبذل لهم من عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره ... وليجعل منهم جماعة طبائعية وطائفة كحالين وجرائحية وقوماً مجبرين ... وآخرين بأسماء الحشائش وقوى الأدوية وأوصافها عالمين ... وليفرد لكل علم من علوم الطب طائفة، ولكل فن من فنونه جماعة لمحاسنه عارفة»[258]. وورد في بعض المراسيم: «ونصبنا لذلك من العلماء والحكماء من اخترناه ورضيناه لما اختبرناه ... وكانت قد سبقت له في هذا المنصب أحسن مباشرة»[259].

يُفهم من هذه المراسيم أنَّ البيمارستان كان جامعة كبرى لتخريج الأطباء في مختلف فروع الطب، وكذلك لتخريج الصيادلة.

إن صدور مرسوم تعيين مدرِّس البيمارستان من السلطان مباشرة تفرضه أهمية مهنة الطب، ولهذا كانت تصدر للأطباء وصايا يُلزمون بالتقيد بها والعمل بمقتضاها، فمما يُذكر في

وصية الطبيب الطبائعي: «وليتجنب الدواء ما أمكنه المعالجة بالغذاء ... وإذا اضطر إلى وصف دواء صالح للعلة نظر إلى ما فيه من المنافاة وإن قلت، وتحيل لإصلاحه بوصف مصلح مع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات في الاستعمال والأوقات، وما يتقدم ذلك الدواء وما يتأخر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء ولا ما يستغرب من غذاء».

ويُذكر في وصية الطبيب الكحال:

«وها أنت قد أفردت بتسليم أشرف الحواس الخمس والجوارح التي لولاها لم تعرف حقيقة ما يدرك بالسمع والذوق والشم واللمس، وهي العين التي تغري بالعين ... وارفق بها فإنها من طبقات منها الزجاجية ومنها شبيه بالزجاجية، ولا يقدم عليها بمداواة حتى يعرف حقيقة المرض»[260].

ويُذكر في وصية الطبيب الجراح:

«واجبر كل كسر وشد كل أسر ... ودارِ باللطف ... واعمل على حفظ الأعصاب وشد الأعضاء حتى يمكن معالجة المصاب ... وليحذر قطع الشريان»[261].

ووُجهت الوصايا للصيدلانيين أيضاً، كي يحفظوا الأدوية ويراقبوها، فيذكر فيها:

«ولينعم النظر في أمور الأشربة والعقاقير والأدوية، فلينظر في مجموعاتها ومفرداتها وبسائطها ومركباتها مما جرت العادة باختباره، وليتقدم بالاحتراز فيها، وأن لا يُباع منها إلا مالا شك في جودته واختياره»[262].

تعكس هذه الوصايا المبالغة المطلوبة بالاهتمام بالرعاية الصحية في مهن تتطلب الانتباه الشديد لتعلقها بأرواح البشر وأجسادهم، وتعكس عمل الدولة الدؤوب على توجيه هذه المهن التوجيه الصحيح والسليم بما يضمن التقليل من الأخطاء فيها.

ولم تقتصر دراسة الطب على البيمارستانات، بل جاوزتها إلى المدارس والمساجد والخوانق، فدُرِّس هذا العلم في المدرسة المهذبية[263]، والمدرسة المنصورية[264]، ومسجد أحمد ابن طولون[265]، وخانقاه سرياقوس التي ذُكر أن فيها:

«خزانة بها السكر والأدوية والأشربة، وبها الطبائعي والجرائحي والكحال»[266].

إن هذا التطور الطبي، والذي وازاه تطورات أخرى في مختلف علوم العرب المســـلمين، جعل توبي هف يقول: «لقد كان العلم العربي عند النظر إليه بمجموعه: في الرياضيات و الفلك و البصريات والفيزياء والطب، أرقى علم في العالم».



الفصل الثالث

النظم السياسية في الحضارة العربية الإسلامية [267]

1ـ الخلافة الإسلامية:

وضع الإسلام قواعد نظام سياسي عام للدولة الإسلامية يتضمن نظرية سياسية متكاملة يظهر من خلالها الشكل الذي يرتضيه الإسلام للبناء السياسي الذي تنتظم خلاله أحوال الأمة وشؤونها في كافة المجالات.

ظهرت النظرية السياسية الإسلامية منذ عصر النبوة، فقد كان رسول الله ﷺ مؤسساً لدولة الإسلام الأولى في المدينة، تلك الدولة التي وضع لها القواعد الأساسية والتي نجحت في أن تصهر كل الخلافات بين العناصر البشرية المختلفة المكونة للمجتمع المدني، وأن تذيب كل الفوارق بين تلك العناصر حيث سادت الأخوة وعمّ التراحم، وانبثق مجتمع جديد دفعه الإيمان بالإسلام إلى حماية المفاهيم والقيم الجديدة التي نزل بها الروح الأمين على رسول الله ﷺ.

وانطلاقاً من أن الإسلام دين ودولة، أقام المسلمون دولتهم في إطاره وتحركوا وفق قواعده وأصوله، وهذا لا يعني بأية حال من الأحوال جمود الفكر السياسي الإسلامي، وإنما يعني أن هناك ضوابط تحكم النظام السياسي الإسلامي أشار إليها القرآن الكريم، وعمل بها السلف عند وضعه لدعامات البناء السياسي للدولة الإسلامية، فقد نص القرآن الكريم على الشورى والالتزام برأي الجماعة، ومن ثم كانت الشورى أصلاً من الأصول الأولى للنظام السياسي في الإسلام[268].

اهتم الفقهاء بالحديث عن موضوع النظام السياسي في الإسلام، وأسهبوا وأفاضوا

في توضيحه وشرح أسسه وقواعده، وأفردوا له كثيراً من الدراسات وخاصة عن الإمامة وأصولها وتداورها، والإمام واختياره وواجباته والشروط الواجب أن تتوفر فيـــه، ممـــا يؤكد مرونة الإسلام وسماحته، ويبين دور المفكرين المسلمين في تأصيل النظرية السياسية الإسلامية وشرحها وتبيانها.

كما شهدت العصور الإسلامية مدى اختلاف الفقهاء حول موضوع الإمامـــة، ودور المتكلمين فيها، حتى أن خلافهم هذا كان أعظم خلاف فكري في الإســـلام، وفي هذا يقول الشهرستاني: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلّ ســـيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان».

والنظرية السياسية الإسلامية وضعها المسلمون في حدود الإطار العام الذي رسمـــه القرآن الكريم، وهي تمثل اجتهاد الأمة الإسلامية في وضع القواعد العامة التي جاء بهـــا الإسلام موضع التنفيذ.

وقد عرّف الماوردي الخلافة بأنها خلافة عن النبوة، في حراسة الدين، وسياســـة الدنيا، والواقع أن الخليفة يجمع الصفتين الدينية والسياسية ـــ أو الزمنية ـــ فهو إمـــام المسلمين في صلاتهم وأميرهم في جهادهم، ورئيسهم في إدارتهم وقضائهم، وبالجملـــة صاحب الولاية العامة عليهم، يجمع في شخصه كل السلطات، ويفوض ما يشاء إلى من يشاء .كما يجمع في شخصه أيضاً صفات الحاكم المسلم العادل الذي يحكم بالشورى ويستظل بأحكام القرآن وسنة النبي ﷺ ويرعى إدارة تلك النفوس التي بايعته وسلمت له مصالحها العامة.

والخلافة أو الإمامة إنما عُرف وجوبها بالشرع لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر، وتسليم النظر في أمورهم إليه، وكذا في كل عصر بعـــد ذلك، و لم يُتْرك الناس فوضى في عصر من العصور، واستقر ذلك إجماعـــاً دالاً علـــى وجوب تنصيب الإمام، وقد ورد في القرآن والحديث كثير من النصوص التي تدعو إلى

طاعة أولي الأمر، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [269].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني) [270]. وقوله: (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) [271]، وغير ذلك من الأحاديث التي وردت في هذا الصدد.

2ــ الوزارة:

الوزارة واحدة من النظم السياسية الهامة في الإسلام، بل يمكن القول إنها أهم النظم السياسية التنفيذية على الإطلاق، ذلك أنها ولاية عامة، وقد عرفها ابن خلدون فقال: هي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة.

واسم الوزارة مختلف في اشتقاقه على ثلاثة أوجه كما يقول الإمام أبو الحسن الماوردي، الأول مأخوذ من الوزير وهو الثقل لأن الوزير يحمل عن الملك أعباءه وأثقاله، والثاني أنها مشتقة من الوزر أي الملجأ ومنها قوله تعالى { كَلَّا لَا وَزَرْ } [272] فسُمي الوزير بذلك لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعرفته، والوجه الثالث أنها مشتقة من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر.

تعددت الآراء حول نشأة الوزارة، منها ما يذهب إلى القول بأنها نشأت في عهد النبوة، ومنها ما ينادي بأن نشأتها ارتبطت بنشأة الخلافة الإسلامية، ومنها ما يتجه إلى القول بأن الوزارة لم تظهر إلا في العصر العباسي تقليداً من العرب للفرس.

ظهر الوزراء في الدولة الإسلامية منذ نشأتها، فقد اتخذ النبي ﷺ الوزراء من رجاله وصحابته، وعنه ﷺ أنه قال: وزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر، كما اتخذ أبو بكر رضي الله عنه عمر بن الخطاب وزيراً له، وثنى الفاروق الوزراء فكان وزيراه عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله

عنهما.

وذهب فريق من المؤرخين إلى القول بأن الوزير هو نائب الخليفة في حكم البلاد، بينما يرى فريق آخر أن الوزير هو أكبر الولاة وأهمهم في الإشراف على سياسة الدولـــة والقائم مقامه للسهر على مصالح الأمة، فهو رئيس الدواوين وصاحب الرأي والقـــائم على المشورة وأقرب الناس وأشدهم اتصالاً بالخليفة وأعلمهم بأمور السياسة ودروبها.

يقول الفقهاء إن الوزارة ظهرت في الإسلام انطلاقاً مـــن المشـــاركة في تحمـــل المسؤولية وعدم الاستبداد، ذلك أن الإمام لا يستطيع وحده مباشرة كل أمور الأمة إلا باستنابة وزير أو وزراء، لأن ذلك أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل.

والوزارة في الإسلام على ضربين:

أولاً: وزارة التفويض:

وهي أن يستوزر الإمام من يفوض إليه الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده.

ثانياً: وزارة التنفيذ:

وتأتي في مرتبة تالية لوزارة التفويض، كما تقل وتحدد فيها سلطات الوزير ذلـــك أن الوزير واسطة بين الإمام وبين الرعية والولاة، ويؤدي عنه ما أمر، وينفذ عنـــه مـــا ذكر، ويمضي ما حكم.

ـــ تطور الوزارة:

ظهر الوزراء في الدولة الإسلامية منذ عهد النبوة، تطبيقاً لمضمون الآية الكريمـــة: {وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْـــرِي } [273] وإذا جاز ذلك بالنسبة للنبوة، فإنه يكون قابلاً للتطبيق بالنسبة للإمامة. ومـــارس أعمال الوزراء كل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم تأكيداً لأهمية هذه المؤسسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين.

في عهد بني أمية لم تكن الوزارة كما يقول ابن طباطبا مقتنة القواعد ولا مقـــررة القوانين، ولكن ذوي الآراء من مستشاري الملك يقومون مقام الوزراء، وكان الواحـــد منهم يسمى كاتباً أو وزيراً أو مشيراً.

أما الوزارة في عهد بني العباس فقد حُددت معالمها وأُرسيت قواعدها ووُضـــعت أسسها، وشُرحت وظيفتها، واستقرت مكانتها في الدولة الإسلامية، كما بينتها الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يقوم عليها سواء كان ذلك بالنسبة لوزارة التفويض أو لوزارة التنفيذ.

و اتخذ الخلفاء العباسيون الأوائل وزراء من شدوا أزرهم وســاندوهم في ســبيل استقرار الحكم العباسي.

ويذكر القلقشندي أن أول من لُقب بالوزارة في الإسلام هو أبو سلمة الخلال، ثم جرى الأمر على ذلك في اتخاذ الخلفاء الوزراء إلى انقراض الخلافة ببغداد بقتـــل التتـــار المستعصم سنة ست وخمسون وستمائة ووزيره يومئذ مؤيد الدولة بن العلقمي.

3ـ الإمارة على البلاد:

حرص خلفاء رسول الله ﷺ أن تكون العلاقة قوية متينة بين الأقـــاليم المفتوحـــة وبين المدينة المنورة أو العاصمة المركزية انطلاقاً من أن إمام المسلمين واحد وهو مسؤول عن رعيته في أنحاء الدولة الإسلامية.

كان الخلفاء الراشدون يقلدون إمارة البلدان لقوادهم الفـــاتحين، والـــوالي علـــى الإقليم أو أمير الإقليم هو نائب عن الخليفة، ومن ثم كانت صـــلاحياته واختصاصـــاته واسعة تحددها علاقته بالخليفة.

والإمارة وظيفة هامة وأساسية في النظام السياسي الإسلامي، إذ يناط بـــالولاة أو الأمراء على الأقاليم وحدة الدولة الإسلامية واستقرار الأمور بها ضماناً لصالح الرعيـــة الإسلامية.

والإمارة من ولاية أمور المسلمين، فهي إذن ولاية عامة تتفق مع الوزارة في كون الأمير نائب عن الخليفة وتختلف عنها في أن الأمير تتحدد سلطاته في نطـــاق إقليمــــه أو إمارته.

والإمارة في الإسلام كما حددها الفقهاء نوعان: إمارة عامة وإمارة خاصة، وأمير الإقليم يجمع بين النوعين من الإمارة إذ إن إمارته للإقليم عامة وخاصة في الوقت نفسه، وذلك لأنه يتولى شؤون الإقليم كلها نائباً عن الخليفة ومعيناً برضاه واختياره.

4- الدواوين:

نشأت الدواوين الإسلامية في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضـــي الله عنـــه، وكان ذلك نتيجة لاتساع الدولة الإسلامية، واتصال المسلمين الفاتحين على قرب بالنظم الإدارية الفارسية والبيزنطية في الأقاليم المفتوحة. وقد استوعب المسلمون كثيراً من نظم وحضارة الأقاليم، بل أبقوا على ما وجدوه ملائماً وصالحاً لتلك الأقاليم.

تجب الإشارة إلى أن النظم الإدارية في مصر والشام كان لها أثر كـــبير في نشـــأة الدواوين، فقد عاد الفاتحون إلى العاصمة الإسلامية يحملون معهم أخبار البلاد المفتوحة، ومن أهم تلك الأخبار، أخبار النظم الإدارية وبصفة خاصة الدواوين.

والديوان لغة تعني اسم الشياطين، فسمي الكتّاب باسمهم لحذقهم بالأمور، وقوتهم على الجلي والخفي، وجمعهم لما شذّ وتفرق، ثم سُمي مكان جلوسهم بـــاسمهم فقيـــل: ديوان. وقيل أيضاً إنها تعني السجل أو الدفتر، ثم أُطلقت على المكان الذي تحفـــظ فيـــه السجلات الخاصة بالدولة.

الدواوين في العصر الأموي:

انتقل الثقل السياسي والإداري في عهد الأمويين من المدينة المنـــورة إلى دمشـــق، وتحول الاهتمام إلى بلاد الشام التي غدت مقصداً لطلاب العلم وأهل المعرفة.

اهتم خلفاء بني أمية بالنظم الإدارية اهتماماً عظيماً، خاصة وأنهم كانوا يعيشـــون

في بلاد الشام بما لها من تقاليد وتنظيمات إدارية عريقة. واستخدم الأمويون رجالاً من العرب برعوا في الإدارة، وأثبتوا كفاءة عالية، من بينهم زياد بن أبيه، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم، كما استعانوا بأهل الذمة في مصالح الدولة فقد استخدم معاوية سرجون بن منصور ومن بعد ابنه في إدارة الأموال.

زاد عدد الدواوين في الدولة الأموية عما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين، ذلك أن ضروريات إدارية تطلبت زيادة عدد الدواوين فإلى جانب ديوان العطاء وديوان الخراج وديوان الجند استحدث معاوية بن أبي سفيان ديوان الخاتم وديوان البريد وديوان الصدقات وديوان الطراز.

- الدواوين في العصر العباسي:

شهدت النظم الإدارية في العهد العباسي تطوراً ملحوظاً، وإن سارت في بداية الأمر على النمط الذي كانت عليه في عهد الأمويين، وقد سلك العباسيون نهج الأمويين فاستعانوا برجال أكفياء في الإدارة، فاتخذ أبو العباس السفاح من أبي سلمة الخلال وزيراً وجعل بيده مقاليد الأمور، وخلفه خالد بن برمك الوزير الأول في دولة بني العباس، فبدأ ينظم الدواوين ويجعل لها دفاتر خاصة، وهذه دون شك خطوة إدارية غاية في الأهمية، إذ أصبحت الدواوين تسجل كل أحوالها، وسير العمل بها، وما يدخل إليها وما يخرج منها من مكاتبات أو أحوال أو شهادات.

5ــ القضاء:

حدد رجال الفقه والتاريخ مفهوم القضاء ومعناه، وأوضحوا وظيفته في الدولة الإسلامية، وبيّنوا مصادر تشريعاته، فقالوا: القضاء هو الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة، وهو من الوظائف التابعة للخلافة، ومن هنا كان خلفاء الصدر الأول يباشرونه بأنفسهم. ويقول ابن خلدون: إن القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس

في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة، فكان ذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها.

أرسى الإسلام القواعد والأسس التي نظّمت التعامل والعلاقات بين أفراد الأمة الإسلامية، كما وضع لها التشريعات والقوانين التي تستند إليها في حسم المنازعات والخلافات التي تنشأ بين أفرادها أو بينها وبين غيرها من الجماعات والأمم. ذلك أن القرآن الكريم وضع للأمة النظريات العامة التي تتعلق بالقوانين الاجتماعية والتشريعية وغيرها، وعلى هذا يكون القرآن الكريم هو المصدر الذي يأخذ عنه القضاء الإسلامي أصوله وقواعده.

فقد كان رسول الله ﷺ يقضي بين المسلمين بالحق بما أنزل الله. وكان خلفاء رسول الله ﷺ يباشرون القضاء بأنفسهم، فالصدّيق رضي الله عنه كان يجلس للفتيا في المدينة، وعاونه الفاروق عمر على القضاء في عهده، فلما تولى خلافة المسلمين أولى القضاء عناية فائقة فقام بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وأوفد قضاته إلى الأقاليم وضمن لهم استقلالاً كاملاً عن الولاة، وشدد على الولاة في عدم التعرض للقضاة.

حظي القضاء في العصر الأموي باهتمام خلفاء بني أمية الذين عيّنوا القضاة، إلا أنهم امتنعوا عن مباشرة القضاء بأنفسهم، وكان معاوية أول من فعل ذلك وتولى له القضاء فضالة بن عبيد الأنصاري، فلما مات استقضى معاوية أبا إدريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني. ويفسر ابن خلدون امتناع الخلفاء عن مباشرة القضاء بأنفسهم بأنهم آثروا القيام بالسياسة العامة بما لها من مسؤوليات كبيرة تتعلق بالجهاد والفتوحات وسد الثغور، ومن هنا كان يتحتم عليهم أن يستخلفوا في القضاء من يقوم به تخفيفاً لأنفسهم، وكانوا مع ذلك يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء.

أما في العصر العباسي فقد شهد القضاء نشأة المذاهب الأربعة بالإضافة إلى التطورات الكثيرة التي دخلت عليه، منها اتساع سلطة القاضي التي أصبحت تشمل

الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال.

6ـ النظر في المظالم:

يعود النظر في المظالم إلى عهد النبوة، فقد نظر رسول الله ﷺ في الشرب الـذي تنازعه الزبير بن العوام رضي الله عنه ورجل من الأنصار.

كان عبد الملك بن مروان أول من أفرد يوماً يتصفح فيه المظالم، وكـان يتـولى الحكم فيه قاضيه إدريس الأودي، وكان عمر بن عبد العزيز أول من جلس للنظـر في المظالم بنفسه في دولة بني أمية، كذلك جلس عدد من خلفاء بني العباس للنظر في المظالم وباشروها بأنفسهم؛ منهم المهدي والهادي والرشيد والمأمون والمهتدي.

و شهد العصر العباسي نشأة ديوان المظالم الذي يصفه المؤرخون بأنه كان عبارة عن هيئة تحكيم عليا أو محكمة للاستئناف يمكن للمتخاصمين أن يلجؤوا إليهـا إذا مـا أرادوا الطعن في حكم أصدره القاضي. وقد أشرف الخلفاء العباسيون على ديوان المظالم بأنفسهم وحددوا وقتاً خاصاً للنظر فيها. ولما جلس الوزراء والسلاطين صار النظـر في المظالم إليهم[274].



الفصل الرابع

نماذج عن علوم وعلماء الحضارة العربية الإسلامية

أولاً– الطب:

– تمهيد:

أتم العرب والمسلمون كثيراً من الاكتشافات في العلوم الطبية، ووصلوا فيها مرحلة لم تصل إليها أي أمة من الأمم، بل إن الأمم الأخرى ترجمة مؤلفاتهم الطبية، فانتشرت في جميع أصقاع العالم وخاصة في أوربة التي ما فتأت تعتمد على تلك المؤلفات في جميع دراساتها الطبية، وقد برز علماء الطب أكثر ما برزوا بعد عصر الترجمة في صدر العصر العباسي، فأسهم هؤلاء جميعاً في النهضة.

وإننا لو طرقنا باب التاريخ راجين أن يحدثنا عن أساطين الطب العربي الإسلامي، فلن يتردد في أن يذكر العشرات منهم أمثال: الرازي، والزهراوي، وابن سينا، وابن النفيس، هؤلاء الذين كانوا ولا زالوا علامات بارزة في الطب الإسلامي، بل في الطب العالمي، وقد طبقت شهرتهم الآفاق، ووصل طبهم إلى كل الأمم في الشرق والغرب والشمال والجنوب.

1ـ ابن النفيس :

علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي، المعروف بابن النفيس (ت 687هـ = 1288م) الذي بدأ الاشتغال بالطب أولاً في دمشق، ثم انتقل إلى القاهرة واستقرّ فيها، وترأس البيمارستان المنصوري بها، وبات شيخ الطب في الديار المصرية، وقد قال عنه معاصروه ومن بعدهم إنه لم يأت بعد ابن سينا مثله، وقالوا أيضاً: وكان في العلاج

أعظم من ابن سينا، ولقّبوه بابن سينا الثاني، سكن ابن النفيس المدرسة المنصورية بالقاهرة، وفيها صنّف تصانيفه المشهورة في الطب والفقه والعربية، ولشدة ذكائه كان يملي تصانيفه من حفظه لتبحره في العلوم، وفي أواخر أيامه أهدى مكتبته العامرة بشتى أنواع العلوم للبيمارستان المنصوري[275].

وتكمن قيمة معارف ابن النفيس في إبداعاته الطبية، واعتماده التجربة والطب السريري، فلم يقلد غيره أو ينقل دون نقد أو وعي أو تجربة أو تشريح، فاعتمد في دراسة الطب وتدريسه على تجاربه ومعرفة خواص أعضاء الجسم من واقع ما شاهده في أثناء التجربة، و لم يكن يتقبل كلام العلماء السابقين من اليونانيين والمسلمين إلا بعد بحث وتجربة، في وقت كان لا يجرؤ فيه أحد من العلماء على نقد جالينوس أو الرئيس ابن سينا، بل كان الجميع يأخذون آراء هذين العالمين الكبيرين على أنها ثوابت لا يمكن مناقشتها، ولا أن يتسرب الشك إليها، ولذلك توقف الطب عن التقدم بعدهما، إلى أن جاء ابن النفيس ووقف على أخطاء جالينوس بعد تجارب طويلة واستقصاء دقيق، فهاجمه وغض الطرف عن كثير من آرائه، وفضّل عليه أبقراط[276]، فعُني بدراسة مؤلفاته وشرح كثير من كتبه، فأسدى ابن النفيس للإنسانية في علم الطب كثيراً من الجهود الموفقة والإنجازات العلمية العظيمة.

ـــ إبداعات وأوائل ابن النفيس:

ـــ اكتشاف الدورة الدموية الصغرى المعروفة بالدورة الدموية الرئوية، وخالف في ذلك آراء جالينوس ومن تبعه من الأطباء وبخاصة ابن سينا، وقد عني بشرح هذا الاكتشاف العلمي الكبير في كتابه «شرح تشريح ابن سينا».

ـــ كان الأطباء قبل ابن النفيس يرون أن قلب الإنسان له ثلاثة بطون، وأن فيه ـــ كما يقول جالينوس ـــ أقسام دقيقة يخرج الدم بوساطتها من تجويف القلب الأيمن إلى تجويف القلب الأيسر، فنقض ابن النفيس هذه النظرية، وأثبت أن قلب

الإنسان ليس له إلا بطينان، وأنه لا توجد أية أقسام يخرج منها الدم من التجويف الأيمن إلى التجويف الأيسر.

ــ كان ابن النفيس أول من قال أن الدم يُنقى في الرئتين، وقد سبق بذلك (سرفيتس) بثلاثة قرون، وشرح ذلك في كتابه «شرح تشريح القانون».

ــ نقض ابن النفيس النظرية التي تقول إن عضلة القلب تتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن، وقال: إن القلب يتغذى من العروق المارة فيه.

ــ شرح ابن النفيس بطريقة علمية وظيفة أعضاء جسم الإنسان، وكيف يؤدي كل عضو منها وظيفته، وقد شرح من بين ما شرح وظيفة القلب والرئتين، وبيّن كيف تعمل هذه الأجهزة بانتظام دقيق وتعاون مستمر.

ــ قدّم ابن النفيس خدمة جليلة أخرى لتيسير مداواة المرضى وتطوير طرائق العلاج، فقد هدته تجاربه في أثناء ممارسته العلاج إلى أن تنظيم غذاء المرضى أكثر فائدة للإنسان من الاعتماد على الأدوية وحدها، فكان لا يصف لمرضاه دواءً ما استطاع إن وجد الغذاء، وكان يفضل وصف الأدوية المفردة على الأدوية المركبة، وقد عني بشرح ذلك في كتابه «موجز القانون في الطب».

ــ صنّف الأدوية بأسمائها ومصادرها وفعاليتها وكمياتها، ووصف الأمراض بالأعراض التي تصيبها، وحدد الأمراض المختلفة، ووصف الحميات ومضاعفاتها وعلاماتها، ووصف أنواع الجروح والإصابات وأنواع الأورام ووسائل علاجها.

ــ هو أول من وجّه النظر إلى ارتباط المرض بالفصول وتغيرات الجو والبيئة، وكذلك وصف تطور ظواهر المرض وأنواعه باختلاف الأماكن، وارتباط كل ذلك بأسلوب الحياة والنشاط والنوم والراحة والحالة النفسية والغذاء وأنواعه وجودته وخلوه من الغش.

ــ وضع قواعد التداوي بالدواء من اختيار الأضداد لمقاومة المرض وتحديد الكميات المناسبة لحجم المريض وسنه وقوته واحتماله وتحديد وقت العلاج المناسب لمرحلة المرض.

ــ أول من أشار إلى الاعتدال في تناول الملح، وقدّم أدق الأوصاف لأخطار الملح وأثره في ارتفاع الضغط ــ أبدع في تشريح الحنجرة وجهاز التنفس والشرايين ووظائفها[277].

وأضيف إلى إنجازات واكتشافات وأسبقيات ابن النفيس هذه مثيلاتها في أمراض وعلاج العيون، فقد أضاف إلى علم الكحالة سريرياً وجراحياً إضافات مهمة وحاسمة، فاحتوى كتابه «المهذب في الكحل المجرب» على إبداعات وأسبقيات لا تقل أهمية عن إبداعاته الأخرى، وسأسرد بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

ــ ابن النفيس أول من شرح فكرة البعد الثالث (Third Dimension) أي عندما تنظر العينان معاً تريان البعد الثالث.

ــ وأول من عزا الكمنة ــ Hypspion ــ (أن يحس المريض بشيء من الرمل بعينه) إلى التهاب القزحية والجسم الهدبي(و هو المسؤول عن تروية العين و يقع بالقسم الأمامي للمقلة).

ــ ذكر لأول مرة في التاريخ عملية مص المدة الكامنة في البيت الأمامي بالمهت المجوف.

ــ ذكر لأول مرة أن الماء (الساد) يقع خلف العنبية (القزحية) وليس أمامها كما كان سائداً في عصره وعصر من سبقه.

ــ أول من نصح بمص الرطوبة البيضية (الخلط المائي) بواسطة المهت المجوف لرد تفتق القزحية.

ــ أول من وصف الساد الجزئي (أي تكنف جزء من العدسة) ووصف

انخلاع العدسة الجزئي، ووصف ازدواج الرؤية في العين الواحدة.

ــ أول من وصف حسر البصر الناجم عن الساد غير الناضج.

ــ أول من نصح باستعمال الريشة كدليل قبل إدخال المقــدح إلى العــين وذلك تحاشياً لإدخال الأدوات الجراحية مراراً واحتمال حدوث التلوث.

ــ وصف لأول مرة طريقة استخراج الساد بالضغط والشطف، وحذّر من ضياع السائل المائي الذي قد يؤدي إلى انخساف العين.

ــ ذكر لأول مرة انعدام تأثير بعض الأدوية في الالتهابات داخل العين.

ــ كما وصف لأول مرة وذمة القرنية وكثافتها (تسمك بالطبقة المتوسطة أو الظاهرة).

ــ وصف لأول مرة معالجة كسل العين (الغطــش ــ Amblyspia) بتغطية العين السليمة بالتبرير العلمي.

ــ أول من وصف تفاوت التشنج (Anisokonia) ورؤيــة الأشــياء أصغر مما هي عليه في المرضى المتوسعة حدقاتهم.

ــ وصف توسع الحدقة وعدم ارتكاسها للنور في هجمة الزرق الحــادة (أي ارتفاع ضغط العين المفاجئ).

ــ وصف (تسطح القرنية) الناجم عن نقــص الضــغط داخــل العــين (Hypotony)، والذي قد يشاهد في حالات التجفف الشديد الحاد والمزمن، كمــا في حالات الإسهالات والسبات السكري والإقياء المزمن.

ــ نصح بمعالجة الزرق الحاد بالاستفراغ، ولعله كان رائداً في معالجة الزرق قبل استعمال الــ Osmoglyn والــ Glycerin لطرح كمية كبيرة من السوائل وتخفيض ضغط العين.

ــ أصر على ضرورة رؤية العين للشمس أو السراج قبــل القــدح، وإلا

أصبح القدح عديم الفائدة وإن انتقل الماء واستقر.

ــ حذّر من انخفاض ضغط العين المزمن الناجم عن عدم التئام الجرح وما قد يؤدي إلى انكماش العين.

ــ حذّر بشدة من إجراء عملية الساد في العينين في آن واحد خشية التلوث.

ــ نصح بعدم تخريش الأنسجة السرطانية خشية انتقالها الموضّع والبعيد.

ــ ذكر بكل ثقة أن الحَوَل الخلقي لا شفاء له إلا في زمن الطفولة.

ــ ذكر أنه إذا أصابت الرأس ضربة شديدة جحظت العين أولاً ثم غارت[278].

ــ ادعى الطبيب الإسباني ميخائيل سارفيتوس والطبيب الانكليزي وليم هارفي اكتشافهما للدورة الدموية الصغرى، و السبق في تصحيح أخطاء جالينوس في انتقال الدم إلى القلب.

ففي عام 1628م = 1038هـ ظهر كتاب هارفي الموسوم بـ «دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم في الحيوان»، فصفق العالم الغربي لهذا الكتاب على أنه أماط اللثام عن الدورة الدموية، وتجاهلوا ابن النفيس ومؤلفاته مع تأكيد بول غاليونجي على أنهم كانوا يعرفونها، وقد استفاد هارفي كذلك من بحوث سارفيتوس المسماة «إعادة المسيحية».

وفي عام 1924م = 1343هـ تقدم شاب عربي هو الدكتور محيي الدين الططاوي من مصر بأطروحة باللغة الألمانية إلى كلية الطب في جامعة فرايبورغ الألمانية، كشف من خلالها الحقيقة، وهاهي المستشرقة زيغريد هونكه تشرح وتروي ما حدث، تقول عن هذه الأطروحة: «أحدثت دهشاً وعجباً شديدين، وجرت حولها بحوث محمومة ومقارنات عديدة، فكانت النتيجة أن صادق الجميع على ما ورد في

الأطروحة من نتائج علمية، والدهشة لا تزال تملأ النفوس على المختصين أنفسهم، وبادئ ذي بدء كان هناك بضعة أساتذة ألمان استمعوا إلى ما ادعاه الشاب العربي، فأخرجوا من مكتبة الدولة كل المخطوطات القديمة، وأشبعوها بحثاً وتنقيباً ومقارنة حتى وصلوا نهائياً إلى النتيجة الحتمية التي لم يكن منها مفر، وهي نتيجة تؤكد أن الدكتور الططاوي من مصر على حق بما جاء به، فإن أول من نفذ ببصره إلى أخطاء جالينوس ونقدها، ثم جاء بنظرية الدورة الدموية لم يكن سارفيتوس الإسباني، ولا هارفي الإنكليزي، بل كان رجلاً عربياً أصيلاً من القرن الثالث عشر الميلادي = السابع الهجري، وهو ابن النفيس الذي وصل إلى هذا الاكتشاف العظيم في تاريخ الإنسانية وتاريخ الطب، وقبل هارفي بأربعمئة عام وقبل سارفيتوس بثلاثمئة عام»[279].

وقد أخذ المستشرق ماكس مايرهوف أطروحة الططاوي ونشر مقالة عنها في إحدى المجلات، فلفتت نظر جورج سارتون، فكتب ذلك في كتابه: «تاريخ العلم»، وبذلك ثبت الإنجاز لابن النفيس[280].

ثم تتساءل هونكه بتعجب: « فهل كان هذا التشابه يا ترى بين العربي وبين الإسباني محض اتفاق؟ أم أن ميخائيل سارفيتوس الذي عد من بين الخالدين في علم الطب لاكتشافه الدورة الدموية الصغرى قد اطلع على نص ابن النفيس»[281].

ــ مؤلفاته:

خلّف ابن النفيس وراءه ثروة هائلة من المؤلفات الثمينة، وظلّت أوربة تعتمد عليها حتى وقت قريب، ومنها كتابه «الشامل»، وهو كتاب موسوعي في الطب، وتقول المصادر إنه يقع في (300) مجلد، بيّض منها ابن النفيس ثمانين، وذكر ابن فضل الله العمري أن هذه المجلدات الثمانين كانت في البيمارستان المنصوري في القاهرة آنذاك[282].

من مؤلفاته أيضاً «شرح تشريح القانون» و«تعليق كتاب الأدوية لأبقراط»

و«شرح تشريح جالينوس» و«شرح تقديمات المعرفة» وهو تعليق على تكهنات جالينوس، و«شرح مسائل حنين بن اسحق» و«شرح القانون» و«شرح مفردات القانون» و«موجز القانون» و«المختار من الأغذية» و«تفاسير العلل وأسباب الأغذية» و«شرح الإرشادات لابن سينا»[283].

يعد كتابه «شرح تشريح القانون» مفخرة الطب العربي حيث استمر تدريسه في أوربة حتى القرن الثامن عشر الميلادي = الثاني عشر الهجري، وفي هذا الكتاب هاجم ابن النفيس بجرأة القيود التقليدية التي كانت تشل نشاط المشتغلين بالعلم، وتحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا، وأنكر ما لم تره عينه، يقول في مقدمة هذا الكتاب: «بعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله فإن قصدنا الآن إيراد ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ أبي علي الحسين بن علي بن سينا البخاري رحمه الله في التشريح من جملة كتاب القانون، وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتب القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب، وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوماً، وقد صدّنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة، وما في أخلاقنا من الرحمة، فلذلك رأينا أن نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر، خاصة الفاضل جالينوس، إذ كانت كتبه أجود الكتب التي وصلت إلينا في هذا الفن، مع أنه اطلع على كثير من العضلات التي لم يُسبق مشاهدتها، فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله، إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها أغاليط النسّاخ أو إخباره عنها لم يكن من بعد، وأما منافع كل واحد من الأعضاء، فإنا نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق، والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه» [284].

يقول بول غليونجي عن هذا الكتاب: «أهمية هذا الكتاب عائدة إلى أنه يحتوي معلومات جديدة ومهمة قد تُحدث ضجة في عالم مؤرخي الطب قد لا تقل عن الضجة

التي حدثت حينما كشف محيي الدين الططاوي عن الجزء المتعلق منها بتشريح القلب، ووصف الدورة الدموية الصغرى ... والكتاب تعليق ونقد لأفكار جالينوس، وللأفكار التي وردت في قانون ابن سينا»[285].

يبدو من خلال هذا الكتاب أن ابن النفيس قد مارس عملية تشريح جثث البشر، أو بعض الحيوانات سراً، لأن المجتمع في ذلك الوقت لم يكن يقر بممارسة مثل هذه الأعمال لأسباب دينية، وكذلك كان الحال في أوربة، وإن مارسه أحد ففي السر والكتمان والخفاء، والذي يجعلنا نقف موقفاً موضوعياً من ممارسة ابن النفيس للتشريح قوله المتكرر في أماكن كثيرة من كتبه: «والتشريح يكذّب ما قالوه»، وقوله عن تشريح الشريان الرئوي والذي سماه الوريد الشرياني: «إن هذا العرق شبيه بالأوردة وشبيه بالشريان، أما شبههُ بالأوردة فلأنه من طبقة واحدة، وأن جرمه نحيف وأنه على قوام ينفذ فيه الدم لغذاء عضو» وغير هذه الأقوال الدالة على ممارسته العملية للتشريح[286].

في كتابه الآخر «موجز القانون»، أو«الموجز في الطب» جرّب ابن النفيس ما احتواه كتاب «القانون» لابن سينا، فضمن آراءه. وقد كتبه بطريقة علمية دقيقة مبنية على تجاربه وملاحظاته في أثناء ممارسته للطب، وعني بصياغته بأسلوب ييسر على الأطباء الانتفاع بما جاء فيه بطريقة علمية تجمع بين ما اعتقد بصلاحيته من آراء الرئيس ابن سينا، وما صح عنده من آراء، وما وصل إليه في أثناء العمل في مزاولة الطب وتجاربه في علاج المرضى، وعني كذلك بوصف ما رآه صالحاً من الأدوية لكثير من الحالات، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى لغات كثيرة، وتعددت التعليقات عليه[287]، وقال عنه حاجي خليفة: «موجز في الصورة لكنه كامل في الصناعة»[288].

شرح ابن النفيس فصول أبقراط في كتابه «شرح فصول أبقراط» وكتاب «فصول أبقراط» أشهر ما كتبه أبقراط على الإطلاق، وهو حكم طبية موجزة، أودع فيها خلاصة خبراته وملاحظاته الطبية، وصاحب هذه الفصول الأبقراطية أكبر عدد من

الشروح في تاريخ الطب الإنساني، فقد اعتنى بها الأطباء في كل العصور عناية لا مثيل لها، وتتألف فصول أبقراط من سبع مقالات، تحتوي كل مقالة على عدة فصول أو حكم طبية موجزة، وقد وضع ابن النفيس هذا الشرح على الفصول، فلم يُغفل شرح واحد منها، مما يعني أنه كان على دراية واسعة بهذا المؤلف الأبقراطي، ولا يخلو شرح الفصول من وقفات نقدية من ابن النفيس لأبقراط [289].

2ـ أبو القاسم الزهراوي:

هو خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي، ولد في الزهراء قرب قرطبة، وإليها نسبته، وذلك في عام 308 هـ- 920م، وقيل 324 هـ - 936م، نشأ الزهراوي في الزهراء، ودرس الطب على علمائها حتى أصبح طبيب الحكم الثاني الذي اشتهر عصره بالازدهار.

عاصر الزهراوي الطبيب التونسي ابن الجزار، والإمام ابن حزم الأندلسي صاحب كتاب «طوق الحمامة»، وتعلم الطب نظرياً وسريرياً حتى برع فيه، كما تعلم العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية، ويقال إن وزير الدولة آنذاك فتح له أبواب قصره لإعطاء محاضرات طبية و علمية عامة فيه، كما كان منزله مفتوحاً ليلاً نهاراً لإعطاء وصفات طبية للفقراء، ولبراعته في التشخيص الثاقب جعله الخليفة عبد الرحمن بن هشام طبيبه الخاص.

توفي الزهراوي عام 404 هـ - 1013م ، وقد أجمع النسابة على أن الزهراوي ينتمي إلى الأنصار أي إلى المدينة المنورة[290].

- إبداعات وأوائل الزهراوي:

إن الحديث عن مآثر الزهراوي الطبية يحتاج منا إلى مجلدات، ولذا سنثبت هنا أهمها في أبرز فنون الطب:

- هو أول من ألّف كتاباً في الجراحة بوصفها علماً مستقلاً هو « التصريف لمن عجز عن التأليف ».
- أول من أجرى عملية الحصاة.
- أول من نجح في عملية فتح الحنجرة.
- أول من استخدم الفحم في ترويق شراب العسل البسيط.
- أول من أبدع منهجاً علمياً صارماً لممارسة العمل الجراحي، يقوم على دراسة تشريح الجسم البشري ومعرفة كل دقائقه، والاعتماد على التجربة والمشاهدة والممارسة العملية التي تكسب الطبيب الجرّاح مهارة وبراعة في العمل الجراحي.
- وصف أبو القاسم طريقة متقنة لعلاج كسور الجمجمة، وذلك عن طريق إجراء ثقوب صغيرة متعددة ثم وصلها ببعضها، وهذا ما يمكّن الجراح من نزع جزء من قبوة الرأس ثم خياطتها بعد ذلك، وهي الطريقة المتبعة حالياً.
- هو الطبيب الأول الذي وضع طريقة علمية لجراح الكسور بعد ربطها، وكذلك في معالجة حالات الوثي وتمزقات أربطة المفاصل، كما برع في علاج كسور العمود الفقري بشكل خاص.
- أول من استعمل طريقة إخراج المشيمة المحبوسة بعد ولادة الجنين بالضغط على الرحم من خلال جدار البطن.
- كان أول طبيب مسلم تجرأ على المناداة بأن التشريح لا يتنافى مع الدين، ولا يشكل خرقاً لحرمة الموتى، وقد مارس التشريح بنفسه واستخدم فيه الآلات الجراحية المعروفة في زمنه، كما اخترع بعضها، ووضع في كتابه التصريف رسوماً لهذه الآلات جميعاً بلغ عددها 278 رسماً.
- برع الزهراوي في علاج المسالك البولية، وتفتيت حصاة المثانة بواسطة أدوات وآلات من تصميمه.

- كان رائداً في مجال علم التخدير، وقد نصح بإعطاء الأفيون والقنب الهندي إلى المريض قبل إجراء العمل الجراحي عليه.
- أول من استعان بالمساعدات الطبيات والقابلات في عمليات الجراحة النسائية، حيث كان يستعين بنفر من هؤلاء وخاصة عند علاج نساء الملوك والوزراء.
- أبدع في بعض العمليات الجراحية، وكان أول من ابتكرها ومارسها عملياً بيده، منها الجراحة النسائية والجراحة العظمية وجراحة الفم والفك ومعالجة الأسنان، ومنها في الجراحة العامة.
- وضع جهازاً للشد المتواصل الآلي المستخدم في عملية إرجاع العظم المخلوع.
- ابتكر أدوات الجبر ومعالجة الكسور وبتر الأعضاء ونشرها.
- أول من وصف عملية القثطرة، وهو صاحب فكرتها الأولى وابتكار أدواتها.
- أجرى غسيل المثانة عن طريق إدخال بعض السوائل إليها بواسطة أدوات ابتكرها ورسم صوراً لها.
- ابتكر آلة دقيقة لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال الحديثي الولادة لتسهيل مرور البول.
- يعد أول من أجرى عملية لشق القصبة الهوائية، والتي أحجم عن إجرائها أطباء كثيرون قبله كابن سينا والرازي، أجراها على خادمة ونجح فيها.
- ابتكر الزهراوي طرقاً جديدة لعلاج خرّاجات الكبد التي حيّرت الأطباء في عصره، فكان يلجأ إلى شق خرّاجات الكبد وكيها في الوقت نفسه.
- أجرى جراحة صابونة الركبة.
- نجح في علاج الشلل الناشئ عن كسر فقرات الظهر.

- استعمل الحرير على هيئة خيوط للربط في العمليات الجراحية.
- أول من استعمل الآلة الخاصة (السنانير) لاستئصال الزوائد اللحمية (البوليب) من الأنف.
- استعمل آلة ضاغطة للسان، لكبسه أثناء إجراء عملية اللوزتين.
- بحث في تحضير بعض العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية، وأعطاها أسماء بخمس لغات هي : اليونانية، والسريانية، والفارسية، والبربرية، والعربية.
- طور فكرة استعمال الآلات الجراحية المصنوعة من الحديد، أو الذهب، أو النحاس، ففي آلات الكي مثلاً فضّل استعمال الحديد على الذهب لأسباب علمية وصحية.
- أسدى للإنسانية خدمة لا مثيل لها عندما أوجد علاجاً لمرض الناعور، فلقد حيّر هذا المرض الأطباء في الشرق والغرب وأقلقهم، وانكب الزهراوي على دراسته والبحث عن علاج له، ونجح في ذلك، وأوجد تشخيصاً سليماً له، ووصف العقاقير الضرورية للشفاء منه، فعُد عند المؤرخين أول من عرف وأعطى علاجاً للمصاب بالناعور.
- كان الزهراوي يعقم أدواته وآلاته قبل استخدامها بمادة الصفراء، هذه المادة التي أثبت الطب الحديث اليوم أنها مادة تقلل من تواجد البكتيريا.
- درس الزهراوي الطب الجاهلي، وأخذ عنه بعض العلاجات والعمليات، مثل الكي كوسيلة لعلاج آلام الخلوع، والكسور، وتسكين بعض الآلام الباطنية من تورم الكبد، وكذلك لإيقاف النزيف.
- قسم الزهراوي الأدوية بحسب طبيعتها الأصلية إلى ثلاث فئات : من أصل نباتي، أو حيواني، أو معدني.[291]

ـــ كتابه؛ التصريف لمن عجز عن التأليف:

ترك لنا الزهراوي كتاباً واحداً هو « التصريف لمن عجز عن التأليف »، والـــذي يعد موسوعة طبية، وهو أول كتاب يتناول موضوع الجراحة بشكل يقبله العقل، مـــع توضيح بالرسوم والأدوات، أو الحدايد كما يسميها الزهراوي، وهذه الموسوعة الطبيـــة من أروع ما كُتب في تاريخ العلوم الطبية الإسلامية، وأصبح الزهراوي من خلالها أستاذ أطباء أوروبا، وظل هذا الكتاب هو المصدر المعتمد للطب في كـــل أوروبـــا وفي كـــل العالم، لسهولة الأسلوب وكثرة الرسوم للآلات الجراحية.

يتألف هذا الكتاب من ثلاثين جزءاً، وكل جزء يمكن أن يشكل كتاباً مســـتقلاً بحد ذاته، وأهم هذه الأجزاء الجزء الأول والثاني والثامن والعشرون، وهذا الجزء الأخير هو الذي يبحث في الجراحة، أما الأجزاء من ثلاثة حتى الجـــزء الخـــامس والعشـــرين فيتحدث فيها الزهراوي عن الأدوية وتركيبها بمعرفة وإسهاب جعلا البعض يطلق عليه صفة « الجراح الصيدلي» عن جداره واستحقاق، وقد تمت ترجمة الجزء الثامن والعشرين من هذا الكتاب من قبل جيرار الكريموني في مدينة طليطلة خلال القرن الثـــاني عشـــر الميلادي – السادس الهجري، كما تمت ترجمته للغة العربية من قبل الحاخام شيم توف، ثم تمت ترجمة الكتاب كاملاً إلى اللغة اللاتينية تحت عنـــوان « كتـــاب الزهـــراوي » فأصبحت هذه الترجمة المرجع الأساسي للطب والجراحة في الجامعات الأوروبية خـــلال عدة قرون.

وزادت شهرة الزهراوي في أوروبا بعد طبع كتابـــه في مدينـــة البندقيـــة عـــام 1471م- 876هـــ، وكانت آخر طبعة بالإنكليزية له عام 1778م - 1192هـــ ، في مدينة أكسفورد.

لا نملك مع الأسف المخطوطات الأصلية لكتاب التصريف، وإنمـــا توجـــد منـــه كنسخ أصلية مخطوطة في كل من مكتبة البودليانـــا في بريطانيـــا، ومخطوطـــة في ديـــر الاسكوريال في إسبانيا، والأجزاء الأول والثاني والثامن عشر حتى الـــثلاثين في المكتبـــة

الوطنية بباريس[292].

– منزلة الزهراوي في العالم الغربي:

عُقد مؤتمر في برلين عام 1929م – 1348هـ بمناسبة مرور ألف عام على وفاة الزهراوي، وتخصيص مؤتمر بأكمله وفي دولة تعد من أكبر دول أوروبا من أجل إحياء ذكرى الزهراوي، ومتى ؟ بعد ألف عام على وفاته، لهو الدليل الواقعي الواضح على مدى ما أثّر الزهراوي في الأوربيين، وفي هذا المؤتمر خرج أحد الأطباء الغربيين ويدعى (زيجيرست) وألقى كلمة، ومما جاء فيها : « إن كل وصفات الغربيين في علاجهم الأمراض المختلفة ترجع إلى كتاب أبو القاسم الزهراوي»[293].

ويصف الطبيب الفرنسي المعروف لوسيان لوكليرك في كتابه الموسوم «تاريخ الطب العربي» الزهراوي بقوله : «هو أرفع ممثل لمدرسة الجراحة عند العرب»[294].

وتقدم المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه رأيها في هذا المجال فتذكر : « وكما وُفق العرب في الطب كذلك فقد وفقوا في الجراحة كل التوفيق، وأسدوا له خدمات جلى، وبلغوا فيه شأواً بعيداً، فالجراح الأندلسي الكبير أبو القاسم الزهراوي قد أدخل تجديدات كثيرة ليس على علم الجراحة عامة، بل أيضاً في مداواة الجروح، وفي تفتيت الحصاة داخل المثانة، وفي التشريح وإجراء العمليات، واهتم أيضاً بالطب العام فأغناه بوصفه العلمي»[295].

ويصف الطبيب الإسباني الدكتور جارسيا بالستر الأستاذ في جامعة غرناطة الزهراوي بقوله : « إن أبا القاسم كان بلا شك أعظم جرّاح مسلم في القرون الوسطى، وكان نقطة البداية في الجراحة الأصلية للجمجمة في إسبانيا ودول أوروبة الغربية»[296].

ويذكر غوستاف لوبون عنه : « وأبو القاسم هو أشهر جراحي العرب ... ولم يعرف إلا في القرن الخامس عشر، وذاع صيته فيه »، ثم ينقل قولاً للعالم الفيزيولوجي

الكبير هالر : « كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر »[297].

ثانياً– الكيمياء:

ـ تمهيد:

اختلف المؤرخون في أصل كلمة (كيمياء)؛ فمنهم من يرى أنها اشتقت من لفظة (شمى)؛ ومعناها الحرق أو الأرض السوداء، ويرى غيرهم أنها محرفة عن اللغة العبرية للفظة (شامان)؛ وتعني السر أو الغموض[298]، وقيل إنها عبرية وأصلها (كيم به)؛ وتعني آية من الله[299]، وقيل إنها كلمة عربية مشتقة من كمى يكمي إذا ستر وأخفى، وتُسمى الحكمة، كما تُسمى الصنعة[300].

من جانب آخر اتفق المؤرخون في حقل العلوم أن علم الكيمياء علم عربي أصيل، وضعه علماء العرب والمسلمين، وثبّتوا أركانه بتجاربهم ونظرياتهم، إذ أن علماء العرب والمسلمين هم أول من أعطى علم الصنعة اسم علم الكيمياء، التي اسمها باللغة الإنكليزية (Chemistry)، وباللغة الفرنسية (Chemie)، وانتقلت هذه الكلمة إلى أوروبا خاصة عندما استعملها أحد علماؤها، وهو روبرت بويل (ت 1694م) مع تفريقه بين الكيمياء التي كان يعمل بها الدجالون والسحرة، والكيمياء ذات الطابع العلمي الأصيل، فقال :(**Alcemie**) للنوع الأول، واقترح كلمة (**Chemist**) للنوع الثاني، وبقيت في اللغتين الإنكليزية والفرنسية إلى اليوم.

أما في اللغة الألمانية فلا يزال الاسم على ما هو عليه بالصيغة العربية، عدا (أل) التعريف، و في إسبانيا لا تزال (أل) التعريف مضافة إلى الكلمة الأصلية.

إنجازات المسلمين ومفاخرهم والروائع التي قدموها للإنسانية في حقل الكيمياء كثيرة وجليلة، ولا تزال تبنى عليها الدراسات العلمية الحديثة حتى يومنا هذا، ومنها

توصلهم لاستحضار حامض النطرون، وحامض الكبريتيك، وحامض النتريك، والماء الملكي (حامض النتروهيد وكلوريك)، وبدلوا الطرق البدائية في صهر المعادن، كما تمكنوا من استحضار عدد كبير من المركبات الكيميائية، كماء الذهب، والصودا الكاوية، وكربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم، والزرنيخ، والقلويات، والنشادر، ونترات الفضة، والراسب الأحمر، وفرقوا بين الحوامض والقلويات، وراقبوا ازدياد وزن المعادن في عمليات التأكسد، وطوروا العمليات الأساسية في الكيمياء كالتصعيد والتقطير بواسطة الحمّام المائي، أو بواسطة الحمّام الرملي.

للمسلمين أثر كبير في صناعات كيماوية كثيرة، كصناعة المعادن ومواد التجميل والورق والبارود والدباغة والأصباغ والشموع والعطور والزيوت النباتية، والزجاج[301].

1- الطبيب الكيميائي أبو بكر الرازي:

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، المعروف عند الغربيين باسم رازيس، ولد في مدينة الري جنوب غرب طهران عام 250 هـ، أو 251 هـ = 864 أو 865م، وتوفي عام 313هـ = 925م، وقيل 311 هـ = 923م، وقيل 320هـ = 932م، أمضى الرازي شطراً من حياته في بلاد فارس، ثم انتقل إلى بغداد لطلب العلم وقضى حياته فيها، فأقبل على دراسة كتب الفلسفة والطب وكتب جالينوس وأبقراط وحكماء الهنود، حتى بات عالماً موسوعياً، وموسوعة في العلوم.

ينقل لنا ابن خلكان أن الرازي كان في صباه يضرب على العود ويغني، فلما كبر والتحى وجهه قال : « كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف »، فترك ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة[302].

الغريب ـــ مع إبداع الرازي بالطب ـــ أنه لم يُقبل على دراسة العلوم الطبية إلا

بعد سن الأربعين ، وعوض ذلك بقراءة أمهات الكتب الطبية المعروفة، وخاصة مؤلفات أبقراط وجالينوس، ويفيدنا ابن أبي أصيبعة بسبب توجه الرازي بكليتــه نحــو دراســة الطب، فيقول: « وسبب تعلم أبي بكر محمد بن زكريا الرازي صناعة الطب ، أنه عند دخوله مدينة السلام بغداد، دخل إلى البيمارستان العضدي ليشاهده، فاتفق له أن ظفــر برجل شيخ هو صيدلاني البيمارستان، فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها في البدء، فأجابه : إن أول ما عُرف منها كان حي العالم (جنس لنبات عشبي)، وكــان ســببه أفلولن سلسلة أسقلبيوس، وذلك أن أفلولن كان به ورم حار في ذراعه يؤلمه ألماً شديداً، فلما أُشفي منه ارتاحت نفسه إلى الخروج لشاطئ نهر كان عليه هــذا النبــات، وأنــه وضعه عليه تبرداً به فخف ألمه، فاستطال وضع يده عليه وأصبح من غد فعل مثل ذلــك فبرأ، فلما رأى الناس سرعة برئه، وعلموا أنه كان بهذا الدواء سموه حياة العالم، وتداولته الألسن وخفّفته فسمي حي العالم، فلما سمع الرازي ذلك أُعجب به، ودخل تارة أخرى إلى هذا البيمارستان فرأى ذلك فأخبر به، ويقال له وهو يعلق بقلبه، حتى تصدى لتعلم الصناعة »[303].

استشاره عضد الدولة في الموضع الذي يجب أن يبنى فيه المارستان، فأمر الــرازي بعض الغلمان أن يعلقوا في كل ناحية من جانبي بغداد قطعة لحم، ثم قرر أن الجهة الــتي لم يتغير ولم ينتن فيها اللحم بسرعة هي الجهة التي يبنى فيها البيمارســتان، وتم ذلــك [304].

وبعد إتقانه الطب تسلم الرازي رئاسة البيمارستان العضدي في بغداد، وقد عمي الرازي في أواخر حياته بعد أن ضحى بطبه في سبيل الإنسانية، حيث ذُكــر في ســبب فقده لبصره عكوفه على تجاربه الكيميائية في معمله، كما كان يكثر من القــراءة لــيلاً وخاصة عند النوم، ولهذا كان يفضل النوم على ظهره، حتى إذا أخذته سنة من النــوم وهو يقرأ سقط الكتاب على وجهه واستيقظ ليواصل القراءة [305].

فلا عجب بعد ذلك أن يوصف بصفات عظيمة تدل على حجم مكانته الحقيقية، فالقفطي جمال الدين استفتح ترجمته للرازي بقوله : « طبيب المسلمين غير مدافع »[306] ،وأشار ابن النديم عنه أن « موضعه من علم الفلسفة والطب معروف مشهور»[307]، أما ابن أبي أصيبعة الطبيب المختص بالتأريخ للأطباء فيستطرد في الحديث عن براعة الرازي ، فيقول من ذلك : « كان الرازي ذكياً فطناً رؤوفاً بالمرضى ، مجتهداً في علاجهم وفي برئهم بكل وجه يقدر عليه، مواظباً النظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن حقائقها وأسرارها »، ويقول : « وللرازي أخبار كثيرة وفوائد متفرقة فيما حصل له من التمهر في صناعة الطب، وفيما تفرد به في مداواة المرضى، وفي الاستدلال على أحوالهم من تقدمة المعرفة، وفيما خبره من الصفات والأدوية التي لم يصل إلى علمها كثير من الأطباء»[308].

وعدّه بعض المؤرخين أعظم أطباء العصور الوسطى، وفي نظر بعضهم أنه أبو الطب العربي، وقد ظل حجة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي[309].

ـ الرازي والعقاقير الكيميائية:

إن الأثر والفضل العظيمين في تقدم الكيمياء الطبية عند المسلمين و في مسار تاريخ البشرية يعود للطبيب الرازي الذي أولى علم الكيمياء عناية عظيمة، فهو أول طبيب استخدم الكيمياء في الطب، وذكر أن شفاء المريض بفعل الأدوية التي يصفها الطبيب إنما هو نتيجة لإثارة تفاعل كيميائي في جسم المريض.

وهو أول علماء العرب والمسلمين الذين حاولوا وبكل جدية القضاء على الشوائب والخرافات التي كانت مسيطرة على علم الكيمياء، حتى عده مؤرخي العلوم أنه مؤسس الكيمياء الحديثة، وهو من أوائل العلماء الذين طبقوا الكيمياء على الطب[310].

فقد ذكر الرازي في كتابه ((سر الأسرار)) العقاقير الكيميائية والطبية، ويشتمل

هذا الكتاب الطبي الكيميائي على حد تعبيره: ((على معان ثلاثة: معرفة العقاقير و معرفة الآلات و معرفة التدابير)). وأذكر هنا بعض خطوط الكتاب بالسير وراء تقسيم الرازي له.

أ ـ معرفة العقاقير:

إن معرفة العقاقير تنصب على معرفة أنواعها الثلاث: وهـي الترابيـة والنباتيـة والحيوانية،، ونلخص في الجدول الآتي هذه الأقسام :

1 ـ العقاقيـر الترابيـة.

2 ـ العقاقيـر النباتيـة.

يقول الرازي عنها وعن العقاقير الحيوانية ((وقد قل خوض العلماء فيهـا وقـل استعمالهم لها)).

وأجّل ما استعمل منها : الأشنان السبنجي التي كانت تحرق ويستعمل رمادها.

3 ـ العقاقيـر الحيوانيـة:

1- الشعر. 2- القحف. 3- الدماغ. 4- المرارة. 5- الدم. 6- اللـبن. 7- البول. 8- البيض. 9-الصدف. 10- القرون.

وبين العقاقير الترابية يذكر أيضاً :

العقاقيـر المولدة وهي نوعان :

1- أجساد :

أ- الشبه. ب- الإسفيدروبه . ج- الطاليقون. د- التبرويه . هـ- المفرغ.

2- غير الأجساد :

أ- الزنجار . ب- زعفران الحديد . ج- الإقليميا. د- خبث الفضة. هـ- المرتك. و- الأسرُنج. ز- الإسفيداج. ح- الروسنحتج. ط- المسحقونيا .

ب ـ معرفة الآلات :

أما الآلات التي تستعمل لتحضير العقاقير فهي نوعان:

1ـ آلات لتذويب الأجساد :

1- كور. 2- منفاخ أو زق. 3- بوطقة. 4- بوط بربوط. 5- مغرفة أو ملعقة. 6- ماسك أو كلبتان. 7- مقطع . 8- مكسر . 9- مبرد. 10- راط أو مسبكة .

2 ـ آلات لتدبير العقاقير :

1- قرع وأمبيق ذو خطم. 2- قابلة. 3- الأنبيق الأعمى . 4- أثال. 5- قدح. 6- قنينة . 7- قارورة. 8- ماء وردية. 9- مرجل أو طنجير . 10- قدور ومكبات. 11- قدر . 12- تنور . 13- مستوقد أو موقد. 14- أتون . 15- كانون أو طابشدان. 16- نافخ نفسه. 17- مهراس ونسابه. 18- صلاية وفهر. 19- دُرج. 20- كرة . 21- مقلاة. 22- قمع . 23- منخل. 24- راووق من خيش. 25- سُكرجه. 26- سلة أو قفص 27- قنديل للحصول على حرارة لطيفة.

ج ـ معرفة التدابير:

أما التدابير في العمليات الكيميائية التي كانت تستعمل لتحضير العقاقير فكانت تنحصر في الأنواع الآتية :

1- التنضيف وله وسائل مختلفة منها :

1- التقطير بوساطة القرعة والأنبيق وجمع ما يقطر في القابلة.

2- الاستترال باستعمال ((البوط بربوط)) وكانت توضع المادة في البوطقة العليا التي كان في أسفلها ثقبان وعندما تسخن تأخذ المادة في الذوبان وتقطر عبر الثقبين إلى البوطقة السفلى مخلفة الوسائخ ورائها.

3- التشوية : كانت المادة تبل بالماء في صلاية ثم تنقل إلى قارورة تعلق بقارورة أخرى وهذه الأخيرة توضع على نار وتسخن، وعندما تزول الرطوبة،

يسد فم القارورة الداخلية التي تحوي المادة ويواصل التسخين، وهذا دليل على أن قدماء العرب كانوا يستعملون الهواء الساخن للتسخين.

4- الطبخ : وهو تعبير آخر للتشوية ، غير أن الطبخ كان يجـــري في جو مشبع بالرطوبة.

5- التلغيم أو الإلغام : وهي عملية مزج المعادن بالزئبق تمهيداً لعمليتي التكليس والتصعيد.

6- الغسل.

7- التصعيد بوساطة الأثال: كان الكيميائيون القدماء يعدون الأثال أهم آلاتهم، وهناك طريقة أبسط للتصعيد تسمى ((تخنيق)) أو ((تـــرخيم)) توضـــع المادة كما هي أو مصحوبة بزيت في قارورة وتسخن على نار خفيفة لإزالة الرطوبة أو الزيوتة وأخيراً تسد القارورة وتسخن بشدة حتى تصعد المادة وتتجمع في عنق القارورة.

8- التكليس : تشبه هذه العملية التشوية غير أنها هناك كانت تسخن القارورة مباشرة على النار إلى أن تصير المادة مسحوقاً دقيقاً للغاية.

9- التصدية .[311]

ـــ إبداعات وأوائل الرازي:

● اهتم الرازي بالتجربة، وقام بنفسه ببعض التجارب على الحيوانات، والقرود، فكان يعطي الحيوان الدواء ويلاحظ تأثيره فيه، فإن نجح طبق تجربته على الإنسان، وقد أدرك الأطباء اليوم هذه الأهمية في إجراء التجارب العملية على الحيوان.

● أول طبيب فرّق بين مرض الجدري ومرض الحصبة، والحمى العادية، وكانـــت نظريته في ذلك أول دراسة في هذا المجال.

● عُدّ من خلال كتابه (الجدري والحصبة) أول من وصف هذين المرضين وصفاً دقيقاً واضحاً مميزاً ومنطبقاً على المعلومات الحديثة.

- اشتهر بالطب السريري ، والكيمياء الطبية، والمداواة النفسية والفلسفة الاجتماعية.
- اخترع الرازي الفتيلة في العمليات الجراحية وأكثر من استعمالها.
- اعتنى الرازي بالتشريح، فكان أول من ميّز العصب الحنجري من الأصل الذي هو مضاعف في الجهة اليمنى.
- وصف الطاعون، وما يُسمى اليوم «حمى الدرس».
- أشار إلى استعمال أمعاء الحيوانات ــ التي كانت تستخدم كأوتار للآلات الموسيقية حتى ذلك الوقت ــ في خياطة الجروح.
- أسهم في طب العيون، فدرس أمراضها، وكان مجدداً في هذا النوع من الطب، حيث وصف جراحة معينة لاستخراج الماء الأزرق من العين، كما تطرق إلى فيزيولوجيا النظر، وصنف أمراض القرنية بشكل يختلف عن سابقيه، وتعرض لأخطار استعمال المخدرات في طب العين دونما أصول.
- كان الرازي سباقاً إلى استخدام الزئبق في مداواة الأمراض الجلدية والتهاب الجفون.
- عدّ ارتفاع الحرارة (الحمى) عرضاً لا مرضاً مستقلاً، وأشار باستخدام كمادات الماء البارد لعلاج ذلك.
- استخدم الحجامة والفصد (شق العرق لاستخراج الدم) في علاج داء السكتة، وفي هذا نظر صائب لأن هذين العملين يخففان الضغط عن الدماء وعن القلب.
- هو من الأطباء الأوائل الذين درسوا ظاهرة انتقال بعض الأمراض عن طريق الوراثة.
- يعد أول من كشف مرض البول السكري، وذلك أنه كان يطلب من المريض الذي يشك بأنه يشكو من هذا المرض أن يبول فوق أرض مغطاة بالرمل، ثم ينتظر بعض

الوقت ويكشف على هذه الأرض، فإذا وجد النمل قد تجمع فيها يعــرف أن مريضــه يشكو من البول السكري.

• أول من أوصى باستجواب المريض واستقصاء سوابق المرض البعيدة والمباشرة، ثم تسجيل نتائج هذا الاستجواب والملاحظات الخاصة بكل حالة مرضية على حــدة، وهو ما يسمى اليوم « نظام البطاقة الطبية » أو « الملف الطبي».

• أول من أوصى باستخدام ما يسمى اليوم « التشخيص بالعلاج » كمــا هــو موضح في كتابه « القولنج».

• اعتمد طريقة الاستعانة بإجراء بعض التحاليل المخبرية في ســبيل تشــخيص المرض، ومن ذلك تحليل البول، وهو ما كان يسميه (فحص القارورة) ، ولكنّه حــذر من المبالغة في الاعتماد على ذلك.

• استعمل حقنة الخل لتنظيف المثانة وتطهيرها، كما استخدم حقنــة الأفيــون المذاب بماء الورد في تسكين الألم.

• ومن جهوده أن نظريات الطب كانت متفرقة في مكتبات العــالم، فجمعهــا ورتبها وعلّق عليها حتى صارت في متناول أطباء عصره.

• أشار على الأطباء بدعوته المستمرة والمقنعة بأن الصيدلة هو العلم الوحيد الذي سيكون العامل المشترك بين الطب والكيمياء، وبالتالي هو أول مــن أدخــل الملينــات والمركبات الكيماوية على الطب بشهادة المستشرق العلامة سيديو الــذي قــال : «إن الرازي أدخل إلى الصيدلة استعمال الملينات وتطبيق المركبات الكيماوية على الطب».

• انفرد من بين علماء عصره بالدعوة إلى فصل علم الصيدلة عن علــم الطــب، وتحقق ذلك بعد عصره، وبالتالي يجب أن يُنسب له هذا الفضل لأنــه هــو صــاحب الفكرة.

• كان مجدداً في علم الطب، فقد اعتمد على التجربــة لاســتخلاص النتــائج

وتطبيقها في معالجة المرضى.

- نصح باستخدام الحمية بالأدوية النباتية قبل المعدنية، والمفردة قبل المركبة.
- اهتم بالطب الوقائي ودعا إلى زيارة البيوت وتنقية هوائها، ونصح بالاستحمام والنظافة وممارسة الرياضة، وكتب عن طرق تحضير الأغذية، وعن الحمية وكيفية الاستطباب بالأغذية.
- رسخ فكرة تعاون المريض مع الطبيب وأن الاستجواب الواسع والدقيق يوصل إلى التشخيص الصحيح وبالتالي المعالجة الناجعة.
- اعتنى بمرضى الأمراض العقلية الذين كانوا يسمون الأبرياء.
- نقّى الطب من الشعوذة والسحر.
- تفرد بأسلوب خاص في تعليم الطب وساعده على ذلك دقة ملاحظته، فكان يجلس في مجلس ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ أخر، فيجيء بالمريض فيذكر مرضه لأول من يلقاه، فإن كان عندهم علم و إلا تعداهم إلى غيرهم، فإن أصابوا و إلا تكلم الرازي.
- اهتم الرازي بالكيمياء كثيراً، وله الفضل العظيم في دفع هذا العلم إلى الأمام، وله في ذلك إضافات عظيمة، والأهم أنه استخدم الكيمياء في الطب لاعتقاده الجازم وقناعته الوثيقة بعلاقة الكيمياء بالطب، وكان على قناعة كافية أن شفاء المريض يرجع إلى إثارة التفاعلات الكيماوية داخل جسم الإنسان.
- حضر الرازي حامض الكبريتيك، وسماه (زيت الزاج) أو (الزاج الأخضر)، كما حضر الكحول بتقطير المواد النشوية والسكرية المتخمرة، وكان يستعمله في الصيدليات وفي الأدوية.
- حضر الجبس من حرق كبريتات الكالسيوم المائية، و استخدمه في تجبير العظام بعد مزجه بالبيض.

• اهتم بدراسة المراهم اهتماماً بالغاً، وهو أول من أدخل إليها الزئبق، وقام بتجربته المشهورة عندما خلط الزئبق بالمراهم وجرب ذلك على القردة أولاً.

• قدّر الكثافة النوعية لعدد من السوائل مستعملاً ميزاناً سماه (الميزان الطبيعي).

• أول من استخدم الفحم الحيواني في قصر الألوان، ولا يزال هذا النوع من الفحم مستعملاً في إزالة الألوان والروائح من المواد العضوية.

• أول من ميّز بين الصوديوم وكربونات البوتاسيوم على الرغم من تشابههما الكبير في الخواص الطبيعية والكيماوية.

• يشير ول ديورانت إلى أن الرازي قد أفرد في أحد كتبه فصلاً لموانع الحمل، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيماوية[312].

– أشهر كتب الرازي:

ــ سر الأسرار :

وهو كتاب في علم الكيمياء، شرح فيه الرازي منهاجه في إجراء التجارب، فكان يصف المواد التي يجري عليها التجارب، ثم يصف الأدوات والآلات التي يستعملها في طريقة العمل، وكذلك وصف الأجهزة العلمية التي كانت معروفة في عصره، فوصف أكثر من عشرين جهازاً من الأجهزة المعدنية والزجاجية، وكان وصفه لها دقيقاً واضحاً، ويذكر جورج لوكمان أن كتاب الرازي هذا ظل مرجعاً أساسياً في أوروبة لعدة قرون، بل كان أساس علم الكيمياء[313].

ــ المنصوري في التشريح :

يقع في عشرين مجلداً، وقد سمي بهذا الاسم لأن الرازي أهداه إلى المنصور ابن اسحق بن إسماعيل أمير خراسان، ويضم هذا الكتاب عشر مقالات يشكل كل منها كتاباً مستقلاً في حجمه وموضوعه، وهي كما يلي:

المدخل إلى الطب في شكل الأعضاء وخلقها، في تعريف مزاج الأبدان وهيئتها،

في قوى الأغذية والأدوية، في حفظ الصحة العامة، في الزينة، في تدبير المسافرين، جوامع في صناعة الجبر والجراحات والقروح، في السموم والهوام، في الأمراض الحادثة من القمة إلى القدم، في الحميات ومداواتها.

ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية جيرار الكريموني، ثم طبع عدة مرات وبعدة لغات.

ــ الجدري والحصبة :

يعد من أجمل الدراسات العلمية في الطب السريري، وذكر فيه الأعراض التي يمكن بواسطتها التفريق بين هذين المرضين، وقد اتفق المؤرخون على أن هذا الكتاب درة ساطعة في جيد الطب، ونُشر الأصل العربي له مع الترجمة اللاتينية في لندن عام 1766م = 1180هـ، وتُرجم أيضاً إلى اليونانية والفرنسية وغيرها من لغات أوروبا.

ــ كتاب الفاخر:

يمتاز هذا الكتاب عن غيره بأنه على شكل موسوعة طبية تحتوي على معظم آراء الذين اشتغلوا في الطب من علماء العرب والمسلمين وغيرهم.

ــ كتاب في محنة الطبيب:

المقصود بالمحنة هنا هو (الامتحان) وهو من أوائل البحوث العلمية التي تمت كتابتها في أحكام مزاولة مهنة الطب والأخلاقيات التي يجب أن يتمتع بها الطبيب، وخاصة واجبه في كتمان أسرار المريض وطبيعة مرضه، وهذا ما يسمى اليوم (السر الطبي).

ــ في طب العيون :

ترك لنا الرازي في طب العيون مخطوطتان، تدعى الأولى « المشجرة »، وتدعى الثانية « رسالة في كيفية تدبير الأدوية المستعملة في العين » .

ــ شهادات غربية:

شهد للرازي بهذه الإنجازات كبار علماء الغرب، و منهم جورج لوكمان الـــذي يقول في حقه: « إن الطبيب المعروف بـــالرازي والـــذي اشـــتهر في أوروبـــا باســـم (**Rasis**) كتب كتاب (سر الأسرار) في الكيمياء، والذي بقي مرجعـــاً في أوروبـــا لعدة قرون، بل كان هذا الكتاب أساس علم الكيمياء في أوروبا».

يقول هوليمارد: « إن أبا بكر الرازي جرد مصنفاته الكيميائية عـــن الغمـــوض والإبهام والطلاسم والمعميات، فكان اتجاهه العلمي وأسلوبه في الكيمياء يعتمدان علـــى إجراء التجارب، فكان يصف المواد التي يجري عليها تجاربه، ثم يصنف الأدوية والآلات التي يستعملها في كل تجربة، ويشرح بعد ذلك طريقة العمل، وقد حضر زيت الـــزاج (حامض الكبريتيك) والكحول، وكان يستخدمه في العلاج واستخراج الأدوية» [314].

و يقول سيديو عن الكيمياء والتشريح عند الرازي : « والرازي أدخـــل إلى الصيدلة استعمال الملينات، وتطبيق المركبات الكيميائية في الطب ... وكان الرازي يُعنى بالتشريح فكان أول من ميّز العصب الحنجري من الأصل الذي هو مضاعف في الجهـــة اليمنى ». [315]

ثالثاً– الرياضيات والفلك:

ــ تمهيـــــد:

علم الرياضيات علم يبحث عن أمور مادية يمكن تجريدها عن المـــادة بالبحـــث، سُمي كذلك لأن من عادة الحكماء أن يرتاضوا به في مبدأ تعليمهم لصـــبيانهم، ولـــذا يسمى علماً تعليمياً أيضاً، ويُسمى بالعلم الأوسط لتوسطه بين ما لا يحتاج إلى المـــادة، وبين ما يحتاج إليها مطلقاً لافتقاره من وجه واستغنائه من وجه آخر [316].

وعلم الحساب: علم يعرف منه كيفية مزاولة الأعـــداد لاســـتخراج المجهـــولات الحسابية من الجمع والتفريق والتناسب والضرب والقسمة [317].

أما علم الجبر والمقابلة: فعلمٌ يُعرف به كيفية استخراج المجهـولات العدديـة بمعادلتها لمعلومات تخصها، ومعنى الجبر زيادة قدر ما نقص في الجملة المعادلة بالاستثناء في الجملة الأخرى لتتعادلا، ومعنى المقابلة إسقاط الزائد من إحدى الجملتين للتعادل، وبمعنى آخر إن الجبر والمقابلة صناعة يُستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك(318).

و علم المثلثات من أهم علوم الرياضيات، ويشكل صلة الوصل بين الرياضيات وعلم الفلك، وقد اقتبسه العرب والمسلمون عن الهنود والإغريق والبابليين، وطوروه فاستعملوا على سبيل المثال الجيب بدلاً من وتر ضعف القوس الذي كان يستعمله اليونان، ولفظة جيب هذه مشتقة من اصطلاح هندي سنسكريتي هو جيفا، وأخذ علماء المسلمين بهذا اللفظ، فسّهل هذا الاستخدام في حل المسائل الرياضية(319).

أثبتت التحريات الحديثة أن العلوم الرياضية ميدان اشتركت فيه القرائح المختلفة، وأن النتاج فيها لا ينحصر في أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، فللبابليين نصيب في ميدان الابتكار والإنتاج، وكذلك للمصريين والإغريق والهنود والعرب وغيرهم.

وثبت بين الباحثين أن أقدم الآثار الرياضية التي وصلتنا تعود إلى بابل ومصر، وهناك دلائل كثيرة لا يعتريها الشك تشير إلى انتقال هذه الآثار إلى الإغريق، حيث أخذوها وزادوا عليها، وأن هناك نظريات وبحوثاً تُنسب لعلماء اليونان ثبت أنها من وضع علماء بابل ومصر(320).

كان لنشوء الحساب والجبر والهندسة عند الأمم القديمة دوافع كثيرة، منها ما هو رغبة خالصة في الوقوف على أسرار العلوم، ومنها ما هو متصل بالحياة أوجدته الضرورة وأحدثته الحاجة، وحاول الإنسان أن يعرف العدد والشكل والمكان والزمان، وأن يوجد العلاقة بينهما، فنتج من ذلك تقدم العلوم الرياضية والتوسع في بعض نواحيها، ولا يرجع نشوء الرياضيات إلى عوامل مادية فقط، بل إن هناك عوامل أخرى

تتعلق برغبة الإنسان في الوقوف على الحقيقة وكشف أسرار الأنظمة الكونيــة، وبهــذا وذاك خطت هذه بالعلوم الرياضية خطوات واسعة[321].

هناك أمور كثيرة ساعدت في تطور الرياضيات، فقد طورتها التجارة والحســابات المعقدة، وتأمين حل المسائل المتعلقة بالبناء وقياس الأرض، ومســائل تقســيم المــيراث وحسابات التقويم وعلم الفلك[322].

وإذا تحرينا الدقة نجد أن أصل التطور العلمي للرياضيات عند المسلمين يبدأ مــع القرآن الكريم، وذلك فيما ورد فيه من أحكام معقدة في تقسيم الميراث[323].

يُعرّف علم الفلك في زماننا بأنه: علمٌ يبحث عن ظــواهر الأجــرام الســماوية ونواميس حركاتها المرئية، ومقاديرها وأبعادها وخاصيّاتها الطبيعية[324].

وكان يُعرف بأنه علمٌ ينظــر في حركات الكواكــب الثابتــة والمتحركــة والمتحيّزة، ويُستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها لهــذه الحركات المحسوسة بطرائق هندسية[325]. أو هو علمٌ يُعرف منه أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية، وأشكالها وأوضاعها ومقاديرها وأبعادها[326].

سُمّي علم الفلك في الماضي بعدة أسماء، فكان يقال له: علم الهيئة، وعلــم هيئــة العالم، وعلم النجوم، وعلم التنجيم، وعلم الأفلاك، وعلم هيئة الأفلاك[327].

من فروع علم الفلك علم الأزياج، وهو صناعة حسابية تقوم على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته، وما أدى إليه برهان الهيئة في وضــعه مــن سرعة وبطء واستقامة ورجوع، ويُعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقــت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة، ولهــذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضــية، وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركــات، واســتخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين[328].

من آلات علم الفلك الإسطرلاب، والإسطرلاب كلمةٌ يونانية مؤلفة من قسمين: إسطر: وهو النجم، ولا بون: وهو المرآة، وأطلقت كلمة إسطرلاب على عـدة آلات فلكية تنحصر في ثلاثة أنواع رئيسة تمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو، أو مسقطها على خط مستقيم، أو الكرة بذاتها من دون مسقط(329). وسُمي الإسطرلاب أيضاً بميزان الشمس(330)، ويُعرف بوساطته كثير من الأمور النجومية كارتفاع الشمس ومعرفة الطالع(331).

يتألف الإسطرلاب من قرص معدني مقسم إلى درجات، ويدور على هذا القرص عدّاد ذو ثقبين في طرفيه، ويعلق من حلقة تعليقاً عمودياً، ثم يوجه العداد نحو الشمس، وحين تمر أشعة الشمس من ذينك الثقبين يُقرأ ارتفاع الكوكب من الحد الذي وقف العداد عليه(332).

كان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيراً، ويتخذون له الآلات التي توضع لرصد الكواكب، وكانت تُسمى عندهم ذات الحلق(333)، ولم يعرف العرب قبل العصر العباسي كثيراً عن علم الفلك، باستثناء ما يتعلق برصد الكواكب والنجوم وحركاتها وأحكامها وعلاقتها بحوادث العالم من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم والمطر والظواهر الطبيعية، ولما جاء العصر العباسي تقدم هذا العلم كثيراً كغيره من فروع المعرفة، وكانت بعض مسائله مما يُطالب المسلم بمعرفتها؛ كأوقات الصلاة والاتجاه نحو القبلة وصلاة الكسوف والخسوف ومعرفة هلال رمضان من أجل الصوم، أضف إلى ذلك شغف الناس بالتنجيم، وقد ساعدت كل هذه الأمور على الاهتمام بالفلك والتعمق فيه تعمقاً أدى إلى الجمع بين مذاهب اليونان والهنود والسريان والفرس والكلدان، وإلى إضافات مهمة لولاها لما أصبح علم الفلك على ما هو عليه الآن(334).

وكانت بغداد من أهم المدن التي اعتنت بهذا العلم وكانت مركزاً مهماً من مراكزه، غير أنها لم تكن المركز الوحيد، فالمراصد كانت كثيرة في دمشق والقاهرة

وسمرقند وطليطلة وفاس وقرطبة، علماً أن أهم مدارس الفلك كانت مدارس بغداد والقاهرة والأندلس[335].

أبدع العرب والمسلمون إنجازات واكتشافات رائعة وهامة جداً في تاريخ هـذين العلمين الرياضيات والفلك، وكان لإبداعاتهم هذه تأثير على المستوى العالمي، ولا زالت هذه الإنجازات تستخدم إلى اليوم ويعتمد عليها في كثير من الدراسات.

1 ـ الخوارزمـي :

محمد بن موسى الخوارزمي، عاش في بغداد فيما بين عامي 164 و 235 هـ- 780 - 850م، وذلك في عهد المأمون بن هارون الرشيد، وكان ذا مقام كبير عنده، وأحاطه بضروب الرعاية والعناية، وولّاه إدارة بيت الحكمة، وجعله على رأس بعثة إلى الأفغان بقصد البحث والتنقيب.

يعود أصل الخوارزمي إلى خوارزم، ولكن إقامته كانت في بغداد عاصمة الدولة العباسية حيث اشتهر هناك[336].

ويذكر الدكتور علي عبد الله دفاع: «في بداية الأمر ابتكر الخوارزمي علم حساب اللوغاريتمات وعمل لها جداول تعرف باسمه محولاً عند الغربيين إلى اللوغاريتمات»[337].

ـ إبداعات الخوارزمي:

يقول جورج سارتون: «إذا أخذنا جميع الحالات بعين الاعتبار فإن الخوارزمي أحد أعظم الرياضيين في كل العصور».

وأكد كل من ديفيد سميث ولويس كاربينسكي: «بأن الخوارزمي هو الأستاذ الكبير في عصر بغداد الذهبي، إذ أنه أحد الكتاب المسلمين الأوائل الذين جمعوا الرياضيات الكلاسيكية من الشرق والغرب، محتفظين بها حتى استفادت منها أوروبا المتيقظة آنذاك، إن لهذا الرجل معرفة كبيرة، ويدين له العالم بمعرفتنا الحالية لعلمي الجبر

والحساب» .

فمن أهم إبداعات الخوارزمي:

- أول من استعمل كلمة «الجبر» للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، حيث إن الرياضيات التي ورثها المسلمون عن اليونان تجعل التقسيم الشرعي للممتلكات بين الأبناء معقداً للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، وهذا ما قاد الخوارزمي للبحث عن طرق أدق وأشمل وأكثر قابلية للتكيف، فابتدع علم الجبر.
- أول من ألّف كتاباً في الجبر وهو «الجبر والمقابلة» في علم يعد من أعظم ما وضع العقل البشري، وعليه اعتمد العلماء العرب في دراساتهم عن الجبر، ومنه عرف الغربيون هذا العلم، وقد نشر هذا الكتاب فريدريك روزن، كما نشر ترجمته في لندن عام 1831م - 1247هـ ، ونشر في سنة 1915م - 1334هـ كاربنيسكي ترجمة للكتاب المذكور من ترجمة ألمانية.
- قال رام لاندو في حق الخوارزمي وكتابه : «الخوارزمي ابتكر علم الجبر ونقل العدد من صفة البدائية الحسابية لكمية محدودة إلى عنصر ذي علاقة، وحد لا نهاية لها من الاحتمالات، ويمكننا القول بأن الخطوة من الحساب إلى الجبر هي في جوهرها الخطوة من الكينونة إلى الملائمة، ومن العلم الإغريقي الساكن إلى العلم الإسلامي المتحرك الأبدي الرباني ».
- يعود الفضل في تناول الأرقام للخوارزمي عن طريق مؤلفاته وكتبه في الحساب، وقد أوضح وبيّن فوائدها ومزاياها، ولا يغيب عن الجميع أن من أكبر المآثر والنعم التي جاء بها العرب والمسلمون إلى العالم الحساب الهندي، وتهذيبهم الأرقام الهندية المنتشرة بين الناس والمعروفة عند الغربيين بالأرقام العربية لأنها وصلت إليهم عن طريق العرب في الأندلس، ويمتاز الخوارزمي عن غيره أنه وضع كتاباً في الحساب كان الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة، وقد نقله (إدلار باث) إلى اللاتيينة تحت

عنوان «الغورتمي»، وبقي هذا الكتاب مرجعاً لعلماء أوروبا وتجارها ومحاسبيها، والمصدر الذي يعتمدون عليه في بحوثهم الحسابية، وقد يعجب القارئ إذا علم أن الحساب بقي عدة قرون معروفاً باسم الغورتمي نسبة للخوارزمي.

- استخدم الخوارزمي اصطلاحات فنية خاصة: فسمى المجهول جذراً ومربعه قوة.
- هو أول من طور المحدودة، وهذا السبق سنتحدث عنه فيما بعد.
- استعمل بنجاح الطريقة البيانية لإيجاد الجذر الحقيقي لصورة تقريبية.
- عرف الوحدات المستعملة في المساحات، كما تطرق إلى إيجاد مساحات بعض السطوح المستقيمة الأضلاع والأجسام الدائرة والقطعة والهرم الثلاثي والرباعي والمخروط والكرة، كما استعمل النسبة التقريبية وقيمتها

ط - $\frac{22}{7}$ ، أو 10 أو $\frac{23826}{20000}$

- عرف الخوارزمي أن هناك حالات يستحيل فيها إيجاد قيمة للمجهول (الكميات التخيلية) وسمّاها الحالة المستحيلة، وبقيت معروفة بين علماء الرياضيات حتى بدأ العالم السويسري المعروف (ليونارد أويلر 1707 -1783م – 1119ــ1198هــ) ، وعرّف الكيمياء التخيلية بأنها : الكمية إذا ضربت بنفسها كان الناتج مقداراً، وأعطى الكثير من الأمثلة على هذا، ثم جاء العالم الألماني المعروف (كارل قاوس 1777 - 1855م - 1191ــ1272هــ) ، ومن ثم العالم الفرنسي (جان روبرت أرجان 1768 - 1822م - 1182ــ1238هــ) ، والعالم الألماني (كومر 1810 - 1893م - 1225ــ1311هــ)وطوروا ما جاء به الخوارزمي، أي أن الجميع اعتمدوا عليه، ولا يخفى على القارئ المختص أن نظريات التحليل المركب لا تزال قابلة للتطور[338].

اهتم الخوارزمي في بداية الأمر بالاكتشافات في علمي الرياضيات والفلـــك، ثم بعدها بدأ بالتأليف، فصنف كثيراً من الكتب، ونورد أهمها على سبيل المثال .

يأتي في مقدمتها كتاب «الجبر والمقابلة» وهو المصدر الذي اعتمد عليه العلماء في مشارق الأرض ومغاربها، ومعظم ما أُلف بعده في علم الجبر كان مستنداً عليه.

من كتبه الهامة أيضاً كتاب «الحساب» وبسّط فيه معارفه جداً ، واستخدم فيــه الأرقام العربية، والنظام العشري، فساعد بذلك على تعرف الناس بها.

من كتبه الأخرى «كتاب في الجغرافيا» وكتاب «جداول النجوم وحركتـــها»، وكتاب «العمل بالإســطرلاب» و «صــورة الأرض وجغرافيتــها» و «المعرفــة» و «الوصايا» و «زيج الخوارزمي الأول» و «رسالة عن النسبة التقريبية وقيمتها الرياضية » و « كتاب رسم الربع المعمور» و كتاب « الجمع والتفريــق» و كتــاب «هيئــة الأرض» وكتاب «الرخامة» والمقصود به رخامة مخططة تساعد على معرفة الوقت عن طريق الشمس(339).

2 ــ الكرخـــــــي:

أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي، ولد في الكرخ من ضواحي بغداد، لا نعــرف تاريخ ولادته ولا نعرف عن حياته سوى القليل، وما يعنينا نحن أنه عاش ووضع أهــم إبداعاته في بغداد في نهاية القرن الرابع و بداية القرن الخامس الهجريين = العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلاديين.

توفي الكرخي في بغداد، وهناك خلاف في تاريخ وفاتــه نحــو 410 هـــ = 1019م، و 407 هــ = 1016م، و 419 هـــ = 1028م، و 421 هـــ = 1030م، على كل حال توفي في بداية القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي، وقد قضى جزءاً كبيراً من حياته في المناطق الجبلية حيث اشتغل بأعمال الهندسة، وهــذا يظهر في كتابه المسمى « حول حفر الآبار »(340).

اهتم الكرخي اهتماماً كبيراً بعلمي الحساب والجبر، فكان نتاجه عظيماً في هذين الحقلين، وبقيت أوروبا تستخدم نتاجه العلمي مدة طويلة من الـزمن بشـهادة كبـار مؤرخيها، فمثلاً يقول جورج سارتون : « إن أوروبا مدينة للكرخـي الـذي قـدّم للرياضيات أهم وأكمل نظرية في علم الجبر عرفتها، كما بقيت حتى القرن التاسع عشر الميلادي تستعمل مؤلفاته في علمي الحساب والجبر ». ويقول سميث : « إن الكرخـي من أعظم الرياضيين الذين كان لهم أثر حقيقي في تقدم العلوم الرياضية ».

ترجم العالم (موسهيلم) كتب الكرخي « الكافي في الحساب » من اللغة العربيـة إلى اللغة الألمانية عام 1878م = 1295هـ، فكان أن أصبح مرجعاً مهماً في جميـع أنحاء العالم حتى عهد قريب.

قدم الكرخي خدمة هامة إلى تاريخ تطور الرياضيات حيث يشـير المستشـرق (وييك) أن الكرخي قدم النظرية الأكثر اكتمالاً، أو بالأصـح النظريـة الوحيـدة في الحساب الجبري عند العرب، والتي نعرفها حتى الآن، وذلك بعرضه لنظريـة الحسـاب الجبري، وكانت غاية ذلك البحث تحقيق استقلالية وخصوصية لعلم الجبر كي يصـبح بمقدوره بشكل خاص الاستغناء عن التمثيل الهندسي للعمليات الجبرية.

يُعد أول من أبدع في أبحاثه بالجذور الصم، وبمربعات الأعداد الطبيعية ومكعباتها، وهو أول من أبدع في المتواليات الطبيعية[341].

من أهم كتب الكرخي كتابان « الفخري » و « الكـافي »، وعـرف فضـل الكرخي على الرياضيات بكتابه « الفخري »، وقد أهداه إلى الوزير أبي غالب محمـد ابن خلف، والذي اشتهر بلقب (فخر الملك)، ويقال إن تسمية الكتـاب بـالفخري يعود إلى نسبة الوزير المذكور، وقد ألّفه بين عـامي 401 هـ= 1010م، و 407 هـ = 1016م.

يشهد على أهمية هذا الكتاب الأستاذ (هورد إيفز) بقوله : « إن كتاب الفخري

في الحساب أحسن كتاب كُتب في علم الجبر في العصور الوسطى ... لما فيه من الابتكارات الجديدة والمسائل التي لا يزال لها دور في الرياضيات الحديثة ». وأضاف موريس كلاين : « إن الكرخي البغدادي العالم المشهور ... يعد مفكراً من الدرجة الأولى، وهذا يظهر من كتابه الفخري في الحساب، فطوّر هذا الحقل إلى درجة يمكن التعرف على عقليته الجبارة خلالها ».

من أهم الأفكار الرياضية التي ابتكرها الكرخي في هذا الكتاب وفي غيره، نظريته التي تقول إن العدد الذي لو أضيف إليه مربعه لكان الناتج مربعاً، ولو طرح منه لكان الناتج مربعاً.

وابتداعه النظريات التي تتعلق بإيجاد مجموع مربعات ومكعبات الأعداد التي عددها (ن).

ونظريته: عددان مجموع مكعبيهما يساوي مربع العدد الثالث، أي:

$س^3 + ص^3 = ع^2$ ، فحل الكرخي هذه المسألة مستعملاً الأعداد الجذرية.

ودرس الكرخي منظمة للمقادير الجبرية المرفوعة لأسس مختلفة، مستخدماً العمليات الحسابية على هذه المقادير، وكذلك دراسته للمتتاليات.

حسّن في القانون المعروف لإيجاد الجذر التقريبي للأعداد التي لا يمكن إيجاد جذورها مثل:

$م = ب^2 + جـ$.

استنبط قانوناً جديداً لإيجاد الجذر التربيعي. وابتكر طريقة لجمع وطرح الأعداد الصم. وقد ترجم هذا الكتاب المستشرق الفرنسي الشهير (وبيك) وظهرت ترجمته عام 1270هـ = 1853م [342].

أما كتابه « الكافي في الحساب » فقد تخبط المستشرقون في كيفية تشويهه، فمنهم من قال إنه مأخوذ عن المصادر الهندية، ومنهم من قال أنه مأخوذ عن المصادر اليونانية،

وقد نفى ذلك الأستاذ صالح زكي بقوله : « إن القول بأن فريقاً من رياضي العرب حبّذ الطريقة اليونانية هو من خيالات المستشرقين، والحقيقة أنه لم يخطر ببال الكرخي أو غيره أن يسلك مسلكاً مغايراً لعلماء عصره ».

يحتوي هذا الكتاب على مبادئ الحساب المعروفة في ذلك الوقت، وكذلك بعض القوانين والطرق الحسابية المبتكرة لتسهيل بعض المعاملات كالضرب.

يحتوي أيضاً على كيفية إيجاد الجذر التربيعي للأعداد التي لا يمكن استخراج جذرها التربيعي، وقد استخرج ذلك الكرخي بطرق جبرية تدل على سعة عقله، وتمكنه من الجبر.

ونجد في هذا الكتاب أيضاً حساب مساحات بعض السطوح، ولا سيما المساحات التي تحتوي على جذور.

ترجم هذا الكتاب العالم (هوشايم) إلى الألمانية بين سنتي 1878 و 1880م= 1295ــ1298هـ[343].

ومن كتب الكرخي الأخرى: « كتاب البديع » و « رسالة في بعض النظريات في الحساب والجبر » و « رسالة في النسبة » و « رسالة في استخراج الجذور الصماء وضربها وقسمتها» و « رسالة في برهان النظريات » و « إنباط المياه الخفية »و « العقود والأبنية » و « المدخل في علم النجوم » و «نوادر الأشكال »[344].

3 ــ الكاشي :

غياث الدين جمشيد بن مسعود بن محمود الكاشي أو الكاشاني، ولد في مدينة كاشان بين طهران وأصفهان، وكان يقيم بها مدة ثم ينتقل إلى مكان آخر، وتوجه فيما بعد إلى سمرقند، وفيها ألّف أكثر مؤلفاته التي كانت السبب في شهرته.

اشتهر الكاشي بقراءة القرآن الكريم، فكان يقرؤه مرة كل يوم، وظهر ذلك في أسلوبه السهل الرزين في الكتابة، درس النحو والصرف والفقه على المذاهب الأربعة

فأجادها حتى أصبح حجة في الفقه، وله سمعة مرموقة في علم المنطق والمعـــاني والبيـــان، استفاد من معرفته للمنطق بأن درس وكتب في حقل الرياضيات، فاندهش منه كثير من علماء الرياضيات في العالم لقدرته القوية على حسن التعبير، وكان والده مـــن أكـــابر علماء الرياضيات والفلك، وبهذا ترعرع ابنه في بيئة علمية أصيلة، وتوفي الكاشي عـــام 832 هـــ = 1429م.

بنى الكاشي مرصداً امتاز بدقة أرصاده وسماه : « مرصد سمرقند» فكان علمـــاء الفلك يأتون إليه من كل فج لانتهال العلم ونقله إلى بلادهم.

كثرت إبداعات الكاشي، ونذكر هنا أهمها، إذ استطاع أن يقـــدر بكـــل دقـــة الكسوفات التي حصلت في السنوات الثلاث بين عامي 809 و 811 هـــ = 1407 و 1409م.

مع إيلاء الكثير من علماء المسلمين في الرياضيات عناية خاصة لدراسة الأعـــداد الطبيعية ووصولهم إلى قوانين متعددة في مجموع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الأولى والثانية والثالثة، زاد الكاشي على أساتذته بدراسة نظرية الأعداد فبرهن قانوناً لمجمـــوع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الرابعة، وأيد ذلك المؤلف الغربي (كارادي) واعترف بأسبقية الكاشي في هذه النظرية، كما أكد الدكتور (ديفيد يوجين سميـــث) أن هـــذا القانون لعب دوراً جوهرياً في تطور علم الأعداد .

درس الكاشي بحوث سابقيه من علماء المسلمين في علم حساب المثلثات، فشرح وعلق على معظم نتاجهم، وقد حسب جداول لجيب الدرجة الأولى، واستخدم في ذلك معادلة ذات الدرجة الثالثة في معادلاته المثلثية.

دقق جداول النجوم ولم يقف عند حد التدقيق، بل زاد على ذلك من الـــبراهين الرياضية والأدلة الفلكية.

ابتكر قانوناً لإيجاد مجموع الأعداد الطبيعية المرفوعة إلى القوة الرابعة، وهو:

مجـ ب^{4} = (مجـ ب – 1 + مجـ ب) مجـ ب^{2} 5.

أبدع آلة جديدة (طبق المناطق) للحصول على تقاويم الكواكب وعروضها وأبعادها عن الأرض والكسوف وما يتعلق بهما[345].

درس الكاشي مدارات القمر وعطارد حتى وصل إلى نتيجة مرضية للغاية، فكان أول من اكتشف أن مدارات القمر وعطار إهيليلجية (أي قطع ناقص أو شكل بيضي)[346].

وابتكر الكاشي الكسور العشرية أو الحساب العشري بعد الفاصلة، وكان لهذا الابتكار أثر كبير في تقدم الحساب وفي اختراع الآلة الحاسبة[347].

4ــ البوزجانـــي:

محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، أبو الوفاء البوزجاني الحاسب، ولد في بوزجان وهي بلدة صغيرة واقعة بين هراة ونيسابور، وذلك عام 328 هـ – 940م، قرأ البوزجاني على عدد من العلماء، ولما بلغ من العمر العشرين انتقل إلى بغداد حيث فاضت قريحته ولمع اسمه، وظهر للناس إنتاجه في كتبه ورسائله وشروحه لمؤلفات إقليدس والخوارزمي وغيرهم.

كان أبو الوفاء من الأئمة المعدودين في علمي الرياضيات والفلك، واعترف بهذا الفضل العلماء القدماء وكثير من علماء الغرب، يقول ابن خلكان : « وله فيه ــ يعني الهندسة ــ استخراجات غريبة لم يسبق إليها، وكذلك في استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع »، ويقول الصفدي : « أبو الوفاء أحد الأئمة المشهورين في علم الهندسة والحساب، وله فيهما استخراجات غريبة لم يُسبق إليها».

اختُلف في وفاة البوزجاني، فقيل إنه توفي سنة 376 هـ – 986م، في بوزجان، و قيل إنه توفي في بغداد سنة 388 هـ – 998م[348].

من أهم إبداعات البوزجاني كشفه التغير بحركة القمر[349]، ولهـذا الاكتشـاف أهمية كبرى تاريخية وعلمية لأنه أدى إلى اتساع نطاق علم الفلك والميكانيكا.

يقول العلامة المنصف سيديو: « استوقف نقض نظرية بطليموس القمرية نظر أبي الوفاء فصحح الأرصاد القديمة، فوجد عدا معادلة المركز ومعادلة الاختلاف، اختلافـاً قمرياً ثالثاً »[350].

قدم البوزجاني إبداعات رائعة في علم المثلثات، حيث كان له السبق بوضع النسبة المثلثية (ظل)، وأدخل القاطع، والقاطع تمام، ووضع الجـداول الرياضـية للممـاس، وأوجد طريقة جديدة لحساب جداول الجيب، وكانت جداوله دقيقة، ووضـع بعـض المعادلات التي تتعلق بجيب زاويتين، وكشف بعض العلاقات بـين الجيـب والممـاس والقاطع ونظائرهما، و استعاض عن المثلث القائم من الرباعي التام مستعيناً بمـا يسـمى قاعدة المقادير الأربعة.

كان لجميع هذه المعادلات أثر كبير في تقدم المثلثات، بل كانت فتحاً جديـداً في عالم الرياضيات، ولذلك استوقفت نظر كوبرنيكوس وسحرته وغيره مـن الغـربيين[351].

من أقوال علماء الغرب التي تنسب الفضل للبوزجاني في تطوير علم الرياضـيات وخاصة المثلثات ما قاله البروفسور جورج سارتون : « إن أبا الوفا أول مـن وضـع النسب المثلثية (ظا)، وأول من استعملها في حلول المسائل المثلثية، كما أوجـد طريقـة لحساب جداول الجيب، وكانت جداوله رائعة بدقتها، فحسب زاوية 30° ، وكـذلك $15'$ ، وكانت مقاديره صحيحة إلى ثمانية أرقام عشرية ».

ويقول (جوزيف هافمن): « إن أبا الوفا قد نجح في حساب جداول علم حساب المثلثات إلى ثمانية أرقام عشرية، وكتب في علم النجوم واستمر في تطوير علم حسـاب المثلثات كعلم مستقل بذاته عن علم الفلك ».

و ظهرت عبقريته في نواح كثيرة كان لها الأثر الكبير في فن الرسم، فوضع كتاباً عنوانه « كتاب في عمل المسطرة والبركار والكونيا »، وفي هذا الكتاب طرق خاصة ومبتكرة لكيفية الرسم واستعمال الآلات لذلك والتي دفعت بأصول الرسم خطوات إلى الأمام، واعترف بذلك أكابر علماء تاريخ العلوم، ولذلك ترجمه الغربيون إلى لغاتهم.

من أهم إبداعاته أيضاً مؤلفه: « كتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب »، وقد اشتهر هذا الكتاب باسم « منازل الحساب »، وهو سبعة منازل، وكل منزلة سبعة أبواب، الأولى في النسبة، والثانية في الضرب والقسمة، والثالثة في أعمال المساحات، والرابعة في أعمال الخراج، والخامسة في أعمال المقاسات، والسادسة في الصروف، والمنزلة السابعة في معاملات التجار[352].

كان هذا الكتاب أساساً لمعاملات كثير من الماليين في عصر البوزجاني وفي العصور التالية.

من كتبه: « كتاب الكامل »، وهو ثلاث مقالات، المقالة الأولى في الأمور التي ينبغي أن تعلم من قبل حركات الكواكب، والمقالة الثانية في حركات الكواكب، والمقالة الثالثة في الأمور التي تعرض لحركات الكواكب.

وله كتاب: « استخراج ضلع المربع بمال مال » ومن هنا عرف العلماء أنه حل المعادلات :

$س^4 - جـ$ ، $س^4 + جـ س^2 - ب$ [353].

5ـ ابن الشاطر:

علي بن إبراهيم بن محمد الدمشقي (ت 777 هـ - 1375م) عالم الفلك والرياضيات والهندسة، مات أبوه وله ستة أعوام، فكفله جده وأسلمه لزوج خالته وابن عم أبيه، فعلّمه صنعة تطعيم العاج، ولكن ابن الشاطر رحل بعد ذلك إلى مصر والإسكندرية لطلب العلم، فتعلم هناك علوم الفلك والحساب والهندسة، وبرع بها كثيراً

حتى لُقب بألقاب تدل على ذلك، فعُرف بأوحد زمانه، وفريد الزمان، والمطعم الفلكي، وأعجوبة الدهر[354].

كان من وراء هذه الألقاب إبداعات وإنجازات كثيرة، فقد أبدع ابن الشاطر آلـة لضبط أوقات الصلاة وسمّاها «البسيط»، و كانت موضوعة في إحدى مـآذن الجـامع الأموي بدمشق، حيث كان يعمل مؤقتاً فيه[355]. وأبدع إسطرلاباً قدّمه لأحد المشايخ، وهو محفوظ في مكتبة باريس الوطنية، ودرس ابن الشاطر حركة الأجرام السماوية بكل دقة، وأثبت أن زاوية انحراف دائرة البروج تساوي (23 درجة و31 دقيقة)، علماً بأن القيمة المضبوطة التي توصل إليها علماء القرن العشرين بوساطة الآلات الحاسـبة هـي (23 درجة و31 دقيقة و19,8 ثانية).

أتقن ابن الشاطر علمي الفلك والرياضيات أتقن الهندسة، وكان مبدعاً في علـم الساعات، وذكر النعيمي (ت 927 هـ - 1250 م) نقلاً عن صلاح الدين الصفدي في ترجمته لابن الشاطر ما يلي: «هو الإمام فريد الزمان المحقق المتقن، دخلت منزلـه في شهر رمضان عام 743 هـ - 1342م لرؤية الإسطرلاب الـذي أبـدع وضـعه، فوجدته قد وضعه في قائم حائط في منزله ... وصورة الإسطرلاب المـذكور قنطـرة مقدار نصف أو ثلث ذراع تقريباً، يدور أبداً على الدوام في اليوم والليلة من غير رحى ولا ماء على حركات الفلك، لكنه قد رتبها على أوضاع مخصوصة تعلم منه الساعات المستوية والساعات الزمانية»[356]، ويرى المختصون أن ما يقصـده الصـفدي لـيس الإسطرلاب الذي هو ميزان الشمس، لأن اختراعه كان قبل زمنه بمئات السنين، ولكنه يقصد الآلة المسماة في زماننا بالساعة[357].

على كل حال فإن ابن الشاطر هو أول من أبدع ساعة ميكانيكية، فأخرجها من دائرة الماء إلى دائرة الميكانيك، ومن دائرة الخشب إلى دائرة المعدن، وجعلها صغيرة بعد أن كانت تبلغ عدة أمتار، فصارت بمقدار ثلاثين سنتيمتراً، وأدخل فيها الآلات المعدنية،

مستغنياً عن الماء وآلاته الخشبية الطويلة العريضة[358].

تدل كثرة مؤلفاته على تفوقه في هذا العلم، وجلّها ما يزال مخطوطاً، وتنتظر من يخرجها إلى النور، وأحصيت منها ما يأتي: «كشف المغيب في العمل بالربع المجيب» و«نزهة السامع في العمل بالربع الجامع» و«الربع التام لمواقيت الإسلام» و«رسالة في الربع التام» و«رسالة في الربع الهلالي» و«االروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات» و«رسالة في الإسطرلاب» و«مختصر العمل بالإسطرلاب» و«تحفة الأحباب في الضروري والأصل في علم الإسطرلاب» و«أرجوزة في الكواكب» و«رسالة تعليق الأرصاد» و«الزيج الجديد» و«زيج ابن الشاطر» و«الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة» و«الربع الكامل» و«الزند الموري في العمل بالربع المجيب» و«جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيارة» و«جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها» و«ربع الأوتار» و«رسالة في العمل بالربع المجيب» و«نهاية السؤل بتصحيح الأصول»[359].

لو حاولنا تصنيف مؤلفات ابن الشاطر هذه لوجدناها تندرج تحت عدة علوم فلكية، فمنها ما يندرج تحت علم الفلك الوصفي، كمؤلفَيه «جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيّارة»[360]، و«زيج ابن الشاطر» الذي قال في مقدمته: «قال الشيخ: الحمد لله مقدر حركات الأفلاك ... أما بعد فاعلم أن فوائد علم الفلك عديدة. سألت الله العظيم أن يلهمني ابتكار أصول تفي بالمقصود»[361].

من مؤلفاته ما يندرج تحت علم الميقات، و منها: «نزهة السامع في العمل بالربع الجامع»[362]، و«الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة» وقال في مقدمتها: «هذه رسالة في تلخيص العمل المُسمّاة بالجامعة في علم المواقيت، ورتبتها على مقدمة وستين باباً»[363].

و«الربع التام لمواقيت الإسلام»، وجاء فيه: «أما بعد فإني أمعنت النظر في الآلات الفلكية فوجدتها ليس فيها ما يعنى بجميع الأعمال الفلكية، فوفق الله تعالى لاستنباط هذه

الآلة التي سميتها بالربع التام»[364].

وقدّم ابن الشاطر «رسالة في الإسطرلاب» وقال في مقدمتها: «إني رأيت أن أختصر رسالة في الإسطرلاب، وجعلتها تحوي مقدمة واثني عشر باباً»[365]، وصنّف كتاباً عن هيئة أفلاك الكواكب سمّاه «نهاية السؤل في تصحيح الأصول» وبدأه بقوله: «غرضنا أن نورد في هذه المقالة هيئة أفلاك الكواكب، وجعلتها تشتمل على مقدمة وخاتمة»[366]. وقدّم كتاباً عن ميل الشمس وكوكب الأرض، و سمّاه «جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها»[367].

من مؤلفاته في فن أدوات علم الفلك: «ربع الأوتار»، وبدأه بقوله: «وبعد فهذه أبواب مختارة من كلام المولى في العمل بالربع العالي»[368]، وله كذلك في هذا العلم «الربع الكامل» وقدّم له بقوله: «الحمد لله حق حمده، أما بعد فصورة هذا الربع دائرة مقسوم قوسها أقساماً متساوية مكتوب على تلك الأقسام أعدادها»[369]، وله «الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات» وذكر في بدايته: «وبعد فإنه لما كان علم الوقت مندوباً إليه وجب شرح التوصل إليه بأسهل الآلات وهو ربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات»[370]، وله من المؤلفات في هذا العلم «رسالة في العمل بالربع المجيب»[371].

6 ـ ابن الزرقالة :

أبو إسحق إبراهيم بن يحى التجيبي النقاش المعروف بابن الزرقالة، فلكي بارع برصد الكواكب، نشأ في طليطلة الأندلس، وانتقل منها إلى قرطبة فاستوطنها وتوفي بها، وقد قيل عنه إن الأندلس لم تأت بمثله من حين فتحها المسلمون، وقال عنه القفطي : « أبصر أهل زمانه بإرصاد الكواكب وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ».

ـ ومن إبداعاته :

- برهن على أن تغير بعد الأرض والشمس التي عدها علماء اليونان ثابتة

تلائم تقدم نقاط تعادل الليل والنهار، قال بذلك بعد أن أجرى ما لا يقل عـــن 402 مشاهدة.

- أبدع طريقة جديدة تبين استخدام الإسطرلاب مع دليل لمعرفة ما يـــدرك بالرصد، وسميت باسمه (الصحيفة الزرقالية) وذلك عندما أضاف للإسطرلاب دائـــرة القمر التي تؤذن بتتبع حركات هذا الجرم التابع للأرض في مجراه، كما أضاف إليه مربعاً لحساب المثلثات يبين للباحث على الفور الأظلال المبسوطة والمنكوسة للزوايا المقيســة منسوبة إلى نصف قطر مقسم إلى (12) جزءاً، وقد ذاع صيت الصحيفة الزرقالية هذه في أوروبا، واشتهرت هناك باسم (Saphsea) أي الصفيحة.
- استعمل رموزاً مثلثية مثل (جا جب) (جبا جيب التمام) (قتا قــاطع التمام)
- هو أول من قال بدوران الكواكب في مدارات بيضية.
- أول من أثبت حركة أوج الشمس بالنسبة إلى النجوم، وكان له شـــرف الوصول إلى أدق نتيجة عرفت في ذلك العصر في مقدار هذه الحركة التي بلغت بحسب قياساته : 12,04 دقيقة في حين أن مقدارها الحقيقي هو 12,08 دقيقة [(372)].

رابعاً– الفيزياء:

ـــ تمهيد:

تناول العرب والمسلمون دراسة ما نعرفه اليوم بالطبيعيات أو بعلم الفيزياء ضـــمن ما أسموه بالعلم الطبيعي، وضمن ما أسموه بعلوم التعاليم.

ويعرّف الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505 هــ=1111م) الطبيعيات بقولــه : «ولكل علم موضوع ... وموضوع العلم الملقب بالطبيعي : جسم العالم من جهة مــا يتحرك ويسكن » [(373)].

أما ابن خلدون فيقول عن علم الطبيعيات : «هو علمٌ يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق، وغير ذلك، وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات»[374].

قام العرب والمسلمون بدور أساسي وطليعي في تطوير العلوم الطبيعية بعد أن استوعبوا ما نقلوه من نظريات ومعارف عن الحضارات التي سبقتهم، ولا سيما حضارة الإغريق، وإن العالم ليدين للمسلمين بحفظ تراث الإغريق وهذه حقيقة لا ينكرها أحد، وإنما يغفل البعض عن قصد أو تجاهل أو جهل ذكر ما استحدثه علماء المسلمين من إضافات أصيلة وقيّمة في العلوم الطبيعية[375].

إن الدراسات الجادة في التراث العلمي تكشف لنا كل يوم سبقاً جديداً وفضلاً أكيداً للمسلمين في شتى نواحي المعرفة الإنسانية، ومن تلك المعرفة : العلوم الطبيعية أو الفيزياء، والتي كان لها أثر كبير في التطور العلمي، وبخاصة إبداعات ابن الهيثم البصري الذي سنبدأ به.

1ـ ابن الهيثم :

أبو علي الحسن بن الهيثم البصري (ت430 هـ - 1038م) نسبةً لمسقط رأسه البصرة في العراق، المبدع في علوم الفيزياء وبخاصة البصريات، فلُقب لذلك ببطليموس الثاني.

نبغ ابن الهيثم إلى جانب البصريات بالفلك والهندسة والفلسفة والمنطق والموسيقى، وأتقن الطب وصنّف فيه وإن لم يمارسه، كان كثير الترحال في طلب العلم، فزار فارس والأهواز والشام، وبعد أن بلغت شهرته وبراعته الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر،

طلبه للقدوم إلى القاهرة، وخاصة بعد أن نُقل إليه قوله : «لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص».

بالغ الحاكم في إكرامه، ثم طالبه بما وعد من أمر النيل، فذهب ابن الهيثم حتى بلغ الموضع المعروف بالجنادل جنوب مدينة أسوان، فعاين ماء النيل واختبره من جانبيه، وضعف في الإتيان بشيء جديد في هندسته، فاعتذر بما لم يقنع الحاكم، فولاه بعض الدواوين، فتولاها خائفاً، ثم تظاهر بالجنون، فضبط ما عنده من مال ومتاع، وأقام له من يخدمه وقيّد وتُرك في منزله، فلم يزل على ذلك إلى أن مات الحاكم، فأظهر العقل وخرج من داره، فأعيد إليه ماله، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر، منقطعاً إلى التأليف والإفادة، وتحققت فكرته عن الاستفادة من النيل بعد ثمانية قرون ببناء السد العالي.

لقد دأب ابن الهيثم منذ نعومة أظفاره على طلب العلم من مصادره المختلفة، فعكف على قراءة كل ما وقع في يده من مؤلفات الهنود والفرس واليونان وقدماء المصريين وغيرهم، حتى أصبح ذا ثقافة موسوعية شاملة، يدل على ذلك أنه عاش في أواسط القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي، هذا القرن الذي يعد من أزهى العصور العباسية في الآداب والعلوم، فحركة العلم كانت ناشطة في جميع حواضر المملكة الإسلامية، بما فيها بغداد والكوفة والبصرة والقاهرة.

كانت هندسة البناء إحدى علامات نبوغه المبكر، فذُكر أن سكان البصرة كانوا يلجئون إليه ليضع لهم رسوم وتصحيحات بيوتهم الهندسية، وعند حصولهم على مبتغاهم كانوا يعهدون إلى البنّائين والعمال بأمر تنفيذها وإنجازها.

كان للحسن مجلس علم يزدحم بالتلامذة الوافدين من سائر البلدان، وبينهم أمير من أمراء الشام ومعه تلميذ آخر كان يتعلم على يديه اسمه مبشر بن فاتك القائد، ودرّس طلابه تبعاً للمنهج العلمي [376].

ـــ من إبداعات ابن الهيثم :

ـــ الأظلال والخزانة المظلمة (الكاميرا): اهتم الحسن بن الهيـــثم اهتمامـــاً بالغـــاً بالأظلال و جعلها في مقالة خاصة أسماها «مقالة في الأظـــلال»، وذلـــك لأن ظـــاهرة الأظلال لها شأن عظيم في علم الفلك، وهي كما يوضح هو في مقدمة مقالتـــه أحـــد الأصول المعول عليها في علم الهيئة، فالخسوفات بأنواعها سببها الأظلال، وتحقيق مقادير الخسوفات وأزمانها لا يتأتى إلا بدراسة أشكالها، ومن قراءة مقالته في هذه الظاهرة يفهم أن الذين درسوا هذه الظاهرة من قبل لم يوفوا البحث حقه، و لم يبينوا أشكال الأظلال المختلفة، و لم يفرقوا بين ما ندعوه الظل، وما نسميه شبه الظل، فاقتصرت أقوالهم علـــى ناحية واحدة فقط.

ولأجل هذا قام ابن الهيثم ببعض التجارب إذ استخدم سراجاً ذا فتيلـــة غليظـــة وجعله على مسرجة مرتفعه عن الأرض في بيت لا يدخل الضوء إليـــه، وجعـــل بُعـــد السراج عن الحائط قرابة ذراعين أو أقل، واعتمد عوداً دقيقاً قابل به السراج، ومدّ العود فيما بين السراج والحائط، فإذا تأمل المعتبر ما يظهر على الحائط في مثل هذه الحالة وجد ظلاً عريضاً أكثر عرضاً من العود، وإذا قدّم العود إلى السراج اتسع عرض الظـــل، وإذا أبعده عنه وقربه نحو الحائط ضاق عرض الظل، واختبر ابن الهيثم من جراء ذلك الظواهر العديدة في الخزانة ذات الثقب (بيت الشاهد في بحثنا)، وقام بالعديـــد مـــن التجـــارب والأبحاث حتى توصل إلى دراسة كسوف الشمس والمقارنة بين صورة الشمس وصورة هلال القمر.

وخلص أيضاً من جراء ذلك ـــ بعد البراهين الهندســـية ـــ إلى أن نســـبة بعـــد الشمس عن مركز الأرض إلى قطر الشمس كنسبة 1,115، وهي نســـبة قريبـــة إلى النسبة المعروفة اليوم [377].

ـــ انعكاس الضوء: شرح ابن الهيثم نظرية انعكاس الضوء بطريقة حديثة جـــداً،

وافترض أن الضوء شيء مادي، وينعكس من الأجسام المصقولة كما ترتد الكرة من الجسم الصلب عند اصطدامها به، وبالتالي يكون قد علل انعكاس الضوء نحو الوجهة الميكانيكية، هذه النظرية التي لعبت دوراً عبر التاريخ، ويمكن توضيح هذه النظرية كما شرحها ابن الهيثم بما يلي:

- افرض أن أ ، ب مانع ذا مقاومة قوية.
- إذا رميت الكرة من نقطة جـ في الاتجاه الأفقي (الزاوية 90) فإن الكرة لا تمر من نقطة ن، بل ترتد بعد الاصطدام إلى نقطة جـ .
- أما إذا قذفت الكرة من نقطة هـ فإنها لا ترتد إلى نقطة هـ، أو إلى نقطة جـ بل ترتد إلى نقطة و.

ـ وذكر ابن الهيثم أن الشعاع الساقط والمنعكس السقوط يسمى العمود، والزاوية المحصورة بين الشعاع الساقط والعمود تسمى زاوية السقوط، والزاوية المحصورة بين الشعاع المنعكس والعمود تسمى زاوية الانعكاس.

ـ وانعكاس الضوء الذي يحدث بهذه الكيفية عند سطح الماء أو الزجاج، أو المعادن المصقولة ينقاد لقانونين يعرفان بقانوني الانعكاس:

ينص الأول منهما على أن الشعاع الساقط والعمود والشعاع المنعكس تقع جميعها في مستوى واحد.

وينص الثاني على أن زاوية السقوط هي لزاوية الانعكاس[(378)].

ـ النظارات الطبية: طوّر ابن الهيثم علم البصريات بشكل جذري، وخاصة في كتابه «المناظر» الذي سنتحدث عنه بشكل مستقل فيما بعد لأهميته القصوى، وكتب ابن الهيثم في تشريح العين، وفي وظيفة كل قسم، وبيّن كيف تنظر إلى الأشياء بالعينين في آنٍ واحد، وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئي إلى العين، ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في محلين متماثلين.

درس عدسة العين وأقسامها وتشريحها ورسمها وأطلق عليها أسماء أخذها الغـــرب أو ترجمها إلى مختلف لغاته، منها القرنية (Cornea) والسائل الزجاجي (Vitreous Houmour) والشبكية (Retina) والسائل المائي (Aqueous Houmour).

هذه الأبحاث والتجارب الكثيفة هدت ابن الهيثم إلى البحث في قـــوة التكـــبير في العدسات لأول مرة في التاريخ، مما جعله أول مبدع لفكرة أول نظارة في العالم، والممهد الأول الذي ساعدته بحوثه البصرية في إصلاح وتعديل عيوب الإبصار في العين[379].

– القمر: وقد صنّف ابن الهيثم عدة كتب تتحدث عن قضايا مثيرة عن القمـــر، منها كتابه «ماهية الأثر الذي يبدو على وجه القمر»، وقد بدأه بقوله : « قد اختلـــف أهل النظر في ماهية الأثر الذي يظهر على وجه القمر، وهذا الأثر إذا تؤمـــل واعتـــبر، وجد دائماً على صفة واحدة لا يتغير لا في شكله ولا في وضعه، ولا في مقداره، ولا في كيفية سواده، وقد تصرفت ظنون الناس فيه وتشتت آرائهم».

ثم يعرض لآراء كثيرة في الموضوع نفسه ويستطرد في شرحها ثم يقول مبيناً بطلان هذه الآراء : «وجميع هذه الآراء تبطل وتضمحل عند تحقيق النظر، ونحن نـــبين فســـاد هذه الآراء، ثم نبين بعد ذلك ماهية هذا الأثر».

وبالفعل فإن ابن الهيثم يرد رداً علمياً على هذه الآراء ويثبت فسادها، ثم ينتقل إلى وجه الصواب في القضية قائلاً : «فقد بقي أن نبين ماهية هذا الأثر، فنقول : إن جوهر القمر مخالف لجوهر جميع الكواكب الباقية، والدليل على ذلك أن جميـــع الكواكـــب (النجوم) مضيئة من ذواتها لا من إشراق الشمس عليها، وقد بينا هذا المعنى بياناً واضحاً في كتابنا في أضواء الكواكب[380]، وإذا كانت الكواكب مضيئة من ذواتها مـــن غـــير حاجة إلى إشراق الشمس عليها، وكان القمر غير مضيء من ذاته إلا بعـــد أن تشـــرق عليه الشمس، فجوهر القمر إذن مخالف لجوهر جميع الكواكب»، ويستطرد كـــثيراً في

شرح هذه الظاهرة الممتعة والشائقة[381].

وفي كتابه ماهية الأثر يصل ابن الهيثم إلى نتائج على درجة كبيرة من الدقة العلمية، ومن تلك قوله : «فموضع الأثر إذن إنما ليس يقبل الضوء قبولاً تاماً، لأن فيه كثافة تعوقه عن القبول التام، وجميع القمر كثيف، وإذا كان ذلك كذلك، فموضع الأثر من القمر فيه كثافة زائدة على الكثافة التي في جميع جرم القمر، وهذه الزيادة هي التي تعوقه عن القبول التام».

ويقول : «وقد تبين أن كل جسم متلون إذا أرق عليه ضوء قوي ظهر لونه رقيقاً أو فيه بعض الرقة، وظهر الضوء الذي فيه قوياً، وإذا أشرق عليه ضوء ضعيف ظهر لونه قوياً، أعني أشبع وأظلم من لونه إذا أشرق عليه ضوء قوي، ويظهر الضوء فيه ضعيفاً»[382].

– من أوائل ابن الهيثم:

- أول من فكر بإقامة سد على نيل مصر في موضع الجنادل، تحقق بعد ثمانية قرون من وفاته ببناء السد العالي.
- أول من شرح تركيب العين ورسمها بوضوح.
- وأول من اكتشف أن العدسة المحدبة ترى الأشياء أكبر مما هي عليه.
- أول من استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف.
- أول من قال أن العين ترى الأشياء بسبب النور الذي يصدر من تلك الأشياء، وليست بسبب نور يصدر من العين كما قال أهل اليونان.
- أول من فسر ظاهرتي الخسوف والكسوف.
- أول من ألف رسالة في الأخلاق.
- أبدع مسألة لا تزال تسمى مسألة الهازن (لأنه كان يسمى في أوروبا Hazen) أي مسألة ابن الهيثم، وهي: إذا فرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح

عاكس فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها إلى إحدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط، والواصل إلى الأخرى بمثابة شعاع منعكس، وكان لهذه المسألة أثرها الكبير في تطور علمي الضوء والهندسة وعلاقتهما بعضهما مع بعض، والجمع بين الرياضيات والفيزياء، وأثر كل ذلك في التقدم العلمي الحديث.

- طوّر علم البصريات بشكل جذري.
- وضع قوانين الانعكاس والانعطاف.
- عثر على تعليل لانكسار الضوء الذي يحدث عن طريق وسائط كالهواء أو الماء أو الزجاج.
- وضع قانون الارتداد الذي كان له أثر ميكانيكي رائع في تقدم هذا العلم في أوروبا حديثاً.
- وضع طريقة لاستخراج ارتفاع نجم القطب على غاية التحقيق ولا تزال إلى الآن تستعمل بالآلات الحديثة، ووصل بواسطتها إلى حسابات وأرصاد تكاد تخلو من الأخطاء وتتطابق مع الحسابات الحديثة.
- أبدع بعض آلات الرصد وأصلح بعضها مثل ذات الحلق.
- حسب ارتفاع الغلاف الجوي وقدّره بدقة عالية (15كم2).
- توصل إلى أن القمر من دون الأجرام السماوية الأخرى يستمد نوره من ضوء الشمس ولا يضيء بذاته، وبذلك توصل إلى ظاهرة التظليل وكتب عن تطبيقها.
- نفى الخرافة التي كانت سائدة في الشرق والغرب أن (الغول) هو الذي يبتلع القمر.

– آراء علماء الغرب فيه:

– يقول (كيلي): «هو بدون شك أول من شرح ظواهر قوس قزح والكسوف والخسوف، وكتب في علم الظل والعدسات المقعرة والمحدبة، كما قام باكتشافات

عديدة مثل اكتشافه لطريقة التوسط والتي تعرف في بعض الأحيان باسم طريقة التناسب».

– ويقول (ديفيد سميث): « إن ابن الهيثم لم يترك علماً من العلوم إلا وكتب فيه، وأشهرها علم الهندسة وعلم الفلك وعلم الجبر وفي المزاول (أي الساعات الشمسية) ولقد نال الشهرة العظيمة في علم البصريات».

– ويقول (روزبول): «إن ابن الهيثم قد برهن على نظريات كثيرة في علم الفيزياء الحديث كانكسار الأشعة، مما أدى إلى تقدم هذا العلم ووصوله إلى ما هو عليه الآن».

– ويقول (هوارد ايفزفانه): «ولاشك أنه أعظم رياضي مسلم في ذلك العصر، وأعظم فيزيائي مسلم في جميع العصور، وفضله لا ينسى بحكم مؤلفاته المشهورة بالبصريات»(383).

ـ كتاب المناظـر:

هو أروع كتب ابن الهيثم، ومن أروع كتب الحضارة الإسلامية، وأكثرها انتشاراً في العالم، وأكثرها تأثيراً في العالم الغربي، وتكثر امتيازات هذا الكتاب، فهو أيضاً من أكثر الكتب القديمة استيفاءً لبحوث الضوء، وأرفعها قدراً ولا يقل مادةً وتبويباً عن الكتب الحديثة العالمية، إن لم يفقها في موضوعات انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكة العين لدرسها.

يعد من أروع ما كتب في القرون الوسطى، وأبدع ما أخرجته القريحة الخصبة، فلقد أحدث انقلاباً في علم البصريات جاعلاً منه علماً مستقلاً له أصوله وأسسه وقوانينه، والأهم من هذا وذاك، أن ابن الهيثم كان يسير فيه على نظام علمي يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنباط.

نستطيع أن نقول جازمين: إن علماء أوروبة كانوا عالة على هذا الكتاب عدة قرون، وقد استقوا منه جميع معلوماتهم في الضوء كما تقدم في هذا المبحث، وعلى

بحوث هذا الكتاب المبتكرة وما يحويه من نظريات استطاع علماء القرن التاسع عشر والعشرين أن يخطو بعلم الضوء خطوات فسيحة أدت إلى تقدمه تقدماً ساعد على فهم كثير من الحقائق التي تتعلق بالفلك والكهرباء والبصريات، ولا أدل على عظمة هذا الكتاب ما ذكرناه من أن الأمريكيين اعتمدوا عليه وعلى دراسات أخرى لابن الهيثم في بحوثهم التمهيدية للصعود إلى سطح القمر.

و في مقدمته لهذا الكتاب يؤكد ابن الهيثم أنه لم يضف الجديد إلى ما أُثر عن اليونان في هذا الباب وحسب، بل صحح الكثير من النظريات التي كانت خاطئة بوضع نظريات مستمدة من الواقع والتجربة.

ويقع الكتاب في سبع مقالات:

الأولى : في كيفية الإبصار، وتتناول مميزات البصر وخواصه ، والكلام عن الضوء وآلة الإبصار.

الثانية : تدور حول المعاني التي يدركها البصر، وكيفية هذا الإدراك وعلله.

الثالثة : خصّها بـ «أغلاط البصر» وعلل هذه الأغلاط، وهذه المقالة تمهيد للمقالة السادسة.

الرابعة : حول كيفية الإبصار بالانعكاس من الأجسام الصلبة الصقيلة.

الخامسة : تتناول الكلام على «الخيالات»، أي الصور التي تُرى في الأجسام الصقيلة.

السادسة : وتشتمل على أغلاط البصر التي تعرض في أنواع المرايا من مسطحة ومحدبة وأسطوانية ومخروطية ومقعرة وأسطوانية مقعرة ... الخ.

السابعة : وتتناول كيفية الإبصار في الانعطاف، وكيفية الانعطاف الضوئي في الأجسام المشعة.

ولأهمية هذا الكتاب وضرورته الكبرى للغرب، فقد تُرجم إلى الإيطالية في بادئ

الأمر في القرن الرابع عشر الميلادي، ثم نقله إلى اللاتينية شيخ مترجمي الغرب (جـيرار الكريموني) من العربية مباشرة، ونقله إلى اللاتينية أيضاً البولوني فيتلو، وظلت الترجمة إلى اللاتينية حتى أيام يوهان كبلر، وترجمه إلى اللاتينية فريدرك رزنـر عـام 1572م = 980هـ، تحت عنوان «كتر البصريات» وذلك في مدينة بال بسويسرا.

ويبدو أن هذه الشهرة للمناظر دفعت سنجر للقول : «إن كتاب ابـن الهيـثم يستبعد جداً أن يكون له مثيل بين مصنفات اليونان، أو أن يكون له نظـير في تـراث الحضارات السابقة»(384).

2ـ ابـن سيـنا:

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري، ولد عام 370هـ - 980م في أفشنة، وهي قرية مشهورة من قرى بخـارى، وتـوفي في همذان عام 428 هـ - 1037م، ولا يزال قبره فيها حتى اليوم.

وأصل أبيه من مدينة بلخ، ثم أتى منها إلى أفشنة، وبعدها انتقلت العائلة بكاملـها إلى مدينة بخارى في زمن ملكها نوح بن منصور الساماني، وهناك عاش ابن سينا وتعلم، حيث درس العلوم العامة من فلسفة وكيمياء ولغة عربية وموسيقى.

كان لوالده الأثر الكبير في حياته، حيث كان محباً للعلم فساهم في تعلـيم ابنـه، وكان يدعو له العلماء المشهورين ليدرسوه القرآن الكريم والأدب وقواعـد اللغـة، ثم درس كتب اليونان واستطاع أن يعلق على كتب إقليدس وغيره من كتـب الهندسـة والطبيعيات، وتوفي والده وهو في عمر الثانية والعشرين.

ومما يدل على عبقرية ابن سينا النقاط التالية:

- حفظه للقرآن وإجادته للغة العربية في سن العاشرة.
- نبوغه وإتقانه للطب والفلسفة والكيمياء والموسيقى في سـن السادسـة عشرة.

- تفوقه على أستاذه في الطب (أبي سهل المصيي) و لم يكن قد بلـغ سـن العشرين.
- بدؤه التأليف في الواحدة والعشرين من العمر.

ثم أتيحت له فرصة ذهبية عندما استُدعي لمعالجة سلطان بخارى، حيـث وضـع السلطان مكتبته تحت تصرفه لكي ينهل من علومها ما يشاء.

نال ابن سينا في حياته وبعد موته شهرة لم ينلها طبيب غيره، ولذلك كثرة ألقابه التي لُقب بها، فعرف بالشيخ الرئيس، والمعلم الثالث بعد أرسطو والفـارابي، ومصـدر التأسيس، وشرف الملك، وحجة الحق، والدستور، وأرسطو الإسلام وأبقراطه، والحكيم الوزير، وفيلسوف الدهر.

أهميته في الفكر الإنساني جعلت الجنسيات المختلفة تتجاذب شخصيته، فـالفرس عدوه فارسياً، والأتراك عدوه تركياً، والعرب عدوه عربياً، ومهما يكن فإن ابن سينا هو محصلة ثقافة إسلامية وعلم إسلامي نهل من معينه وأبدع.

عاصر ابن سينا البيروني وابن الهيثم، وبنبوغه اختفى بريق أعمال جالينوس وخاصة عندما ظهر كتابه « القانون» على المسرح، كما أنه وبعد وفاته بأعوام قليلة زال تعـبير «الطب الأبقراطي» وحل محله تعبير «الطب السينوي»، بعد أن عارض ابن سينا نظرية أبقراط المتعلقة بمداواة الجروح الملتهبة من القيح، وثبت أن نظريته هي الأصح.

كما كشف ابن سينا أخطاء أرسطو في التشريح، وبرهن على ذلك بعقلية علمية واعية ومدققة، وتميز بذاكرته العظيمة وسرعة فهمه وغزارة إنتاجه العلمي، وكـان إذا عزم السفر حمل أوراقه قبل زاده، وإذا دخل السـجن طلـب الأوراق قبـل الطعـام والشراب.

عده كثير من مؤرخي العلوم من كبار شعراء القرون الوسطى، وانقسم شعره إلى ثلاثة أقسام: شعر شخصي، وشعر فلسفي، وشعر تعليمي، ونختار من شعره:

اجعل غذاءك كل يـــوم مـــرة　　　واحذر طعاماً قبل هضم طعام

واحفظ منيّك ما استطعت فإنه　　　ماء الحياة يُصب في الأرحام

وقوله:

هذّب النفس بالعلـــوم لترقى　　　وذر الكل فهـــي للكل بيـــتُ

وإنما النفس كالزجاجة والعلـــ　　　ـــم سراج وحكمة الله زيـــتُ

فإذا أشرقـــت فإنـــك حـــيٌ　　　وإذا أظلمـــت فإنـــك ميـــتُ

وترك ابن سينا في هذا المجال كتاباً يوازن فيه بين أغراض الشعر عند اليونان وعند العرب، وله أكثر من نص في صنعة الشعر وأصول نظمه.

وفي آخر أيامه تخلى ابن سينا عن الدنيا وحطامها، وتفرغ لعبادة الله وحده، فاتجه إلى قراءة القرآن الكريم وتفسيره، فكان يختمه مرة في كل ثلاثة أيام، إلى أن انتقـــل إلى رحمة الله في رمضان من عام 428 هـ - 1037م [385].

ولم يكن ابن سينا مبدعاً في علوم الطب فحسب، بل إنه أولى الفيزيـــاء عنايـــة كبرى، وكانت له فيها ملاحظات بصيرة، ونرصد أهمها :

- أول من كشف أن خسف الأرض يكون بسبب الحمم البركانية.
- أول من كشف أن الزلازل تفتح عيون الماء.
- أول من أشار إلى قانون تعاقب الطبقات.
- أول من أشار إلى أن رواسب الأودية تحدث من جراء السيول.
- تكلم أن البصر يسبق الصوت.
- وأن السمع يحتاج الإنسان فيه إلى تموج الهواء.
- وأن سرعة النور محدودة.
- وأن شعاع العين يأتي من الجسم المرئي إلى العين.
- بحث في الزمان والمكان والحيز والقوة والفراغ والنهاية واللانهاية والحرارة.

- قدم دراسات جوية عن الرياح وقوس قزح.
- قال إن السحب تتولد من الأبخرة الرطبة.
- قال إن البرق يُرى والرعد يسمع، فإذا حدثا معاً رؤي البرق وتأخر سماع الرعد.
- اهتم بتكوين الجبال فقال عنها: «الغالب أنها تكونت من طين لزج خصب على طول الزمان، وتحجر في مدد لا تضبط، فيشبه أن هذه المعمورة كانت في سالف الأيام مغمورة في البحار، وكثيراً ما يوجد في الأحجار إذا كسرت أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها».
- تناول ابن سينا موضوع الزلازل، فقال : «حركة تتعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك، ثم يحرك ما فوقه والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض، وهو إما جسم بخاري دخاني قوي الاندفاع، أو جسم مائي سيّال، أو جسم أرضي، والجسم الناري لا يكون ناراً صرفة، وفي حكم الرياح المشتعلة».
- تكلم عن السحب وأسباب تكونها، فقال : «إنها تتولد من الأبخرة الرطبة إذا تصاعدت الحرارة فوافقت الطبقة الباردة من الهواء، فجوهر السحاب بخاري متكاثف خلاف الهواء، فالبخار مادة السحاب والمطر والثلج والطل والجليد والصقيع والبرد، وعليه تتراءى الهالة وقوس قزح»[386].

خامساً– التاريخ وفلسفته (ابن خلدون):

1ـ التفسير الإسلامي للتاريخ والحضارة:

إن الأمة العربية قبل الإسلام كانت تفقد الحس التاريخي الواضح، فضلاً عن دعوى التعلق بفهم مغزى فلسفي للتاريخ في حركته العامة.

لكي ينشأ حس تاريخي في جماعة من الجماعات، لا بد من تأثير عاملين أساسيين،

الأول: وجود دين عام أو شبه عام يقدم لهذه الجماعة تفسيراً للحياة ومغزى للوجــود يرتبط فيه الماضي بالمستقبل، وبذلك تصبح بدايات الأشياء ونهاياتها لها معناها في الحس الإنساني، ويتمثل ذلك في وعيها بالتاريخ بوصفه الوعاء الزماني الذي تتحرك فيه هــذه الأشياء نحو غاياتها.

والعامل الثاني: هو التشكيل الاجتماعي والتنظيم السياسي المتماسك الذي يعطي هذه الجماعة وعياً خاصاً بذاتها الحاضرة ورسالتها الإنسانية مهما يكن أمر هذه الرسالة، فمثل هذا الوعي هو الذي ينشئ في ضمير الجماعة الحس التاريخي بالماضــي ومغــزاه بالنسبة للمستقبل، وبعبارة أخرى فإن المجتمع الإنساني يحتاج لكي يتحقق له وعي مــا بفكرة التاريخ أن تكون لديه فلسفة ما للحياة دينية تفسر مغزاها أو تبرر حركتها.

كان التصور الديني عند العرب قبل الإسلام خاصاً بأفراد القبيلة وإلهها المحلــي الخاص، وهذا التصور لا يساعد على إيجاد وعي تاريخي إلا في إطار من علم الأنســاب وقصص الأيام التي تحكي بطولات أعضاء القبيلة.

افتقد المجتمع العربي قبل الإسلام الإيمان بدين عام أو شبه عام يمكــن أن يعطيــه للوجود، بما في ذلك الحس التاريخي المتميز بشخصيته، ولعل هذا التشتت الوثني كــان أحد المقومات الأساسية التي حجبت نشأة الشعور التاريخي عند العرب قبل الإسلام.

ظلّت العصبية القبلية هي الرباط الأكبر الذي يربط الوحدة الاجتماعية في أنحــاء الجزيرة، وفي القرآن الكريم إشارة واضحة الدلالة على صفة هذه العصبية في قوله تعالى: { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ } (387).

حالت الجاهلية دون الاجتماع السياسي الموحد قبل الإسلام، فعاش معظم العرب في قبائل متحاربة، فقد تجتمع عدة قبائل في حلف على حرب فيكــون بينــها ســلام مؤقت. إذن، افتقد العرب قبل الإسلام المفهوم الكوني للتاريخ الذي يربط بين ماضــي الحياة وحاضرها على أساس روحي عميق أو فلسفي شامل، وبظهور الإسلام كــدين

عالمي من جهة، وكتنظيم سياسي شامل من جهة أخرى، توسعت فكرة الروابط الاجتماعية بين الأفراد، فبدأ إحساس الجماعة الإسلامية الوليدة بذاتها الحضارية الخاصة في الظهور، وأخذت بواكير الشعور التاريخي طريقها إلى ضمير المسلم، فشرع المسلمون في الاهتمام بالتاريخ تدريجياً حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً. (388)

لقد وُلد علم التاريخ عند المسلمين من أول الأمر علماً مستقل الشخصية واضح الخصائص لأنه نشأ على الأصول نفسها التي قام عليها علم الحديث، وهي الضبط والدقة والأمانة وتحري الصدق، فقد بدأ التاريخ عند المسلمين بالسيرة النبوية، وهي في ذاتها حديث نبوي طويل لأن الحديث هو كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

استعملت كلمة (تاريخ) لأول مرة في الآداب العربية مع أخبار إدخال التقويم الهجري، ثم اكتسبت الكلمة معنى الكتب التاريخية في القرن الثاني الهجري، ثم تطور معنى التاريخ عموماً باستعمال كتب الحوليات لهذه الكلمة، وبدأ استعمالها يتم تدريجياً منذ القرن الثالث الهجري، وقد بدأ علم التاريخ بدراسة السيرة النبوية ومغازي الرسول ﷺ، ثم الاهتمام بالصحابة والتابعين كمصدر للكتابات التاريخية، وما ورثه العرب بعد الإسلام من أخبار الجاهلية وقصص الأيام والأنساب، وكذلك تسربت بعض المعارف التاريخية إلى بعض الخاصة من المسلمين، فاهتموا بالحوادث التاريخية، ومثّل هذا مصدر الكتابة التاريخية (389).

ويعد المحدثون روّاد الدراسة التاريخية عند العرب، فهم الذين اهتموا بدراسة المغازي، ورواية أخبار الرسول ﷺ، وأسسوا بذلك فيما بعد منهجاً في توثيق الرواية ومصادرها، يعد مثلاً أعلى في التحقيق التاريخي والضبط العلمي، فقد اهتمت كتب الحديث بقواعد التحديث والرواية، وأسست منهجاً علمياً دقيقاً في توثيق مصادر الخبر، وفرّقت في ذلك بين علمي الرواية والدراية، وفصّلت القول في شروط كل منهما.

إذا كان المؤرخ يبدأ دراسته بالبحث في صحة الوثائق التي بين يديه ليتأكد مـــن صحتها، ثم يقارن بين هذه الوثائق ويرجح بعضها على بعض بناء على ما تحقق لديه من أصالة بعض هذه الوثائق ودقتها في وصف ما حدث في الماضي فعلاً، فلقد كان منـــهج المحدثين في الضبط وتعديل الرجال أو تجريحهم خير عون على تحقيق غايته [390].

تطور علم التاريخ عند المسلمين حتى وصل إلى التفسير الحضاري وهو الشـــكل الذي تبلور بوضوح على يد ابن خلدون، فلقد تطورت فلسفة التاريخ عند المســـلمين بظهور ابن خلدون، فانتقلت من التفسير البطولي إلى التفسير الحضاري، وقد أفاد ابـــن خلدون من تحرر فكرة التاريخ من الاعتماد على المنقول، وتعلق بآفاق من التعدد الثقافي في الحضارة الإنسانية والتعليل العقلي للمادة التاريخية [391] .

2ـ التعريف بابن خلدون:

ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خالد بن الخطاب (ت 808 هـ = 1406م).

كنيته أبو زيد و لقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون، واشتهر بابن خلدون نسبة إلى أول من دخل الأندلس من أجداده، وهو خالد بن عثمان الذي اشتهر فيمـــا بعـــد باسم خلدون وفقاً للطريقة التي جرى عليها حينئذ أهل الأندلس إذ كانوا يضـــيفون إلى الأعلام واواً ونوناً للدلالة على تعظيمهم لأصحابها.

وُلد ابن خلدون في تونس سنة 732هـ = 1332م، ومع نشأته تتلمذ على يد عدد كبير من مشاهير العلماء، وكان في نيته التفرغ للعلم، ولكن وفاة والده ومعظم من كان يأخذ عليهم العلم في الطاعون الجارف منتصف القرن الثامن الهجري، ثم هجـــرة معظم العلماء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس إلى المغرب الأقصى، كل ذلك غيّـــر مجرى حياته الذي رسمه لنفسه، فتوجه نحو تولي الوظائف العامة، وإنمـــا كـــان يـــتحين

الفرص ليعاود القراءة و الإطلاع و تلقي العلم وتدريسه، فجمع في مرحلة جيدة من حياته بين أرقى مناصب الدولة و أرقى مناصب العلم، ومنذ عام 776هـ = 1374م تفرغ ابن خلدون للدراسة و التأليف إلى أن توفي بمصر[392].

3 ـ محتويات المقدمة:

تطلق الآن مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة مجلدات التي يتألف منها كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ويشتمل هذا المجلد على ما يلي :

أولاً: خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته، وتقع في نحو سبع صفحات بحسب الطبعة، وقد عرض فيها المؤلف بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، لبحوث المؤرخين من قبله، وذكر طوائفهم، ووجوه النقص في بحوثهم، وأشار إلى الأسباب التي دعته إلى تأليف الكتاب كله «كتاب العبر» وبيّن طريقته وأقسامه، وختم هذه الافتتاحية بإهداء نسخة من الكتاب إلى سلطان تونس (في النسخة التونسية) وسلطان فارس (في النسخة الفارسية).

ثانياً: «المقدمة في فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسباها»، وتقع هذه المقدمة في نحو ثلاثين صفحة، وعنواها نفسه موضح لما تشتمل عليه.

ثالثاً : «الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب»، ويقع في نحو ستمائة وخمسين صفحة، وهذا هو القسم الرئيسي مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون.

ويشتمل على ما يأتي :

1ـ تمهيد يقع في نحو سبع صفحات، تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه

وأسباب الخطأ في رواية حوادثه، والأسباب التي دعته إلى البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب الأول من مؤلفه، وبيّن البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها هذا الكتاب وموضوع كل بحث.

2ـ ستة بحوث رئيسية وهي :

الفصل الأول: «في العمران البشري على الجملة» ويشتمل على ستة فصول فرعية(سماها ابن خلدون مقدمات) ويقع في نحو تسعين صفحة.

الفصل الثاني: «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل» ويشتمل على تسعة وعشرين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو أربعين صفحة.

الفصل الثالث: «في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية»، ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو مائتي صفحة.

الفصل الرابع:«في البلدان والأمصار وسائر العمران»، ويشتمل على اثنين وعشرين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو أربعين صفحة.

الفصل الخامس: «في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال»، ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلاً فرعياً، يقع في نحو خمسين صفحة.

الفصل السادس: «في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال»، ويشتمل على واحد وستين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو مائتين وعشرين صفحة [393].

4 ـ ابن خلدون و علماء الغرب:

عبقرية ابن خلدون واسعة المدى عميقة الأصول، ولو أحب منصف أن يحيط بها من أطرافها لما وجد موضوعاً من موضوعات الاجتماع البشري والثقافة الإنسانية ليس لابن خلدون فيه عبقرية خاصة.

فلو عورضت أفكار ابن خلدون بآراء علماء أوروبة من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين فسنجد أن هذه الآراء نفسها تنطبق على ما عند ابن خلدون، وبان لك فضل فيلسوفنا عليهم أجمعين.

فإذا قسنا ــ مبدئياً قبل الدخول إلى التفاصيل ــ سائر المؤرخين في الشرق والغرب بابن خلدون، لم نعد الحق و لم نبالغ إذا جعلناه مؤسس علم التاريخ في العالم كله، حتى إن الذين جاءوا بعده من أمثال (جان بودان الفرنسي: ت 1596م = 1005هـ) و(جيوفاني باتيستا فيفو الإيطالي: ت 1744م = 1157هـ) من الذين يحب الغربيون أن يعزوا إليهم فضل تأسيس علم التاريخ، قد قصروا عنه تقصيراً عظيماً، هذا مع أن فيفو جاء بعد ابن خلدون بثلاثمائة عام تقريباً، ومع ذلك لم يستطع أن يتحرر من الخرافات والأوهام التي نبه ابن خلدون عليها وحذر من الوقوع فيها.

أما (مونتسكيو: ت 1755م = 1169هـ) الذي جاء بعد ابن خلدون بثلاثمائة وخمسين عاماً فقد اشتهر بكتابه «روح القوانين» الذي يتناول «الدولة» بأوسع معانيها: إنه يبحث في القوانين ووصفها وفي أشكال الحكومات وفي الضرائب وفي صلة القوانين بالبلاد وبالشعوب التي تسكنها.

يقول ساطع الحصري: إن بحوث «روح القوانين» التي تتعلق بفلسفة التاريخ تجتمع حول نقطتين هامتين، أولاهما : نظرية تأثير الطبيعة والإقليم في طبائع الأمم وسير التاريخ، وثانيهما : نظرية تأثير الأحوال الاقتصادية في الوقائع التاريخية، أما النظرية الأولى فعرفها العلماء والفلاسفة منذ أيام اليونان، ولا مجال للكلام على سبق مونتسكيو إليها، أما المسألة الثانية فقد كان الغربيون يعتقدون أن مونتسكيو هو مبتدعها، ولكن البحث الحقيقي دل على أن ابن خلدون قد وفاها حقها قبل مونتسكيو بثلاثة قرون ونصف القرن.

لابن خلدون لمحات لتفسير الظواهر السياسية بالعامل الاقتصادي، وسبق علماء

الاجتماع بالدخول إلى صلب الظاهرة وتقسيمها إلى أجزاء بقصد دراستها، ولم يكن رائداً في علم الاجتماع السكوني (الساكن)، بل هو رائد في علم الاجتماع الحركي (الديناميكي) بدليل أنه لم يدرس المدن الفاضلة، بل المدن القائمة، ووازن بين ما كان وما صار.

ويتناول ابن خلدون موضوع الدولة والملك بإفاضة، ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى، ويتفوق على ميكافيلي تفوقاً عظيماً في معالجته من الناحية الاجتماعية، ويلتقي المفكران العظيمان في مواطن كثيرة، مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون في فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ في درس أحوال الأمم، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العاسفة في نفوس الشعب، وعن خلال الأمير وتطرفه أو توسعه فيها، وعن حماية الدولة وأعطيات الجند، وعن منافسة الأمير للرعية في التجارة والكسب، وعن تطلع الأمير إلى أموال الناس، وأثر ذلك في حقد الشعب عليه، وعن تطرق الخلل إلى الدولة، وامتداد يد الجند إلى أموال الرعية، وكذا ما يقوله عن كتبة (أمناء) السلطان، فهذه كلها نقاط أو موضوعات يعالجها ميكافيلي أو يقترب منها، سواء في كتابه الأمير، أو في كتاب آخر له هو تاريخ (فيرنتزا) تتخله تأملات فلسفية واجتماعية كثيرة.

لا يتفق ميكافيلي مع ابن خلدون في الرأي أو في منحى التفكير دائماً، ولكن كثيراً مما يقوله المفكر المسلم يتردد صداه فيما يقوله المفكر الإيطالي، فابن خلدون هو بحق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التي تناول ميكافيلي بعده بنحو قرن بعض نواحيها، وهو بالأخص صاحب الفضل الأول في فهم الظواهر الاجتماعية، وفي فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها، وترتيب القوانين الاجتماعية عليها بهذا الأسلوب العلمي الفائق.

قال العلامة الاجتماعي جمبلوفتش: «إن فضل السبق يرجع بحق إلى العلامة الاجتماعي العربي ابن خلدون فيما يتعلق بهذه النصائح التي أسداها مكيافيلي بعد ذلك

إلى الحكام في كتابه «الأمير»، وحتى في هذه اللحظة الطريفة الجافة لبحث المسائل، وفي صبغتها الوقعية الخشنة، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالي البارع».

وقال (استفانو كلوزيو) مقارناً ابن خلدون بمكيافيلي: «إذا كان الفلورنسي العظيم ميكافيلي يعلمنا وسائل حكم الناس، فإنه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر، ولكن العلامة التونسي ابن خلدون استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية كاقتصادي وفيلسوف راسخ، مما يحمل بحق على أن نرى في أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره».(394)

5 ــ ابن خلدون وفلسفة التاريخ:

إن فلسفة التاريخ تبحث في الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، فتسعى لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية، وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والأجيال.

إن تعبير « فلسفة التاريخ » هذا لم يستحدث إلا في القرن الثامن عشر، غير أن « التفلسف في التاريخ » قد بدأ فعلاً قبل ابتكار هذا التعبير بمدة طويلة.

ونستطيع أن نقول: إن البذور الأولى لفلسفة التاريخ قد ظهرت في الكتب الباحثة عن « السياسة المدنية »، لأن كل نظرية سياسية تستند بطبيعتها ــ ضمناً أو صراحة ــ إلى نظرية طبائع الأمم والدول وفي شروط تقدمها وكيفية تطورها.

إن تعبير « فلسفة التاريخ » انتشر كثيراً في مؤلفات النصف الأول من القرن التاسع عشر، غير أن استعماله أخذ يقل منذ النصف الثاني من القرن المذكور.

أما أسباب ذلك فتعود إلى تطور معنى العلوم ومفهوم الفلسفة بوجه عام، إن البحث عن الأسباب والقوانين العامة، لم يكن من خصائص الفلسفة وحدها، بل هو من الغايات التي ترمي إليها وتنزع نحوها جميع العلوم التي تبحث في الحادثات، طبيعية كانت

أم تاريخية واجتماعية، وحينما يتحرى المؤرخون الأسباب والقوانين في الوقائع التاريخية، يكونون قد قاموا بعمل علمي بحت، فلا محل لتسمية الأبحاث التي يقومون بها في هـذا السبيل باسم الفلسفة، نظراً للمعاني المفهومة من كلمتي العلـم والفلسـفة في عصـرنا الحاضر.

ومما تجب ملاحظته في هذا الصدد، أن مباحث « الفيزياء » نفسها كانت تسمى قبل بضعة قرون باسم « الفلسفة الطبيعية »، ومعظم كتب الفيزياء الـتي نشـرت في انجلترا حافظت على هذا العنوان حتى القرن التاسع عشر، غير أن عناوين مثـل هـذه الكتب تجردت بعد ذلك من كلمة الفلسفة بوجه عام، وتركت محلها إلى اسم « علـم الفيزياء » أو « الفيزياء » على وجه الإطلاق.

فكان من الطبيعي أن يتطور تعبير « فلسفة التاريخ » أيضاً على هذا المنـوال، إذ أن المباحث التي نحن بصددها تعد من عناصر البحث العلمي في كل تاريخ، فيجـب أن تعد من مواضيع « علم التاريخ ».

في الواقع إن الفلسفة لم تنقطع عن التأمـل في الوقـائع والحادثـات الطبيعيـة والتاريخية، فهي لا تزال تتناول التاريخ أيضاً بالنظر والتمحيص، غير أن النظر الفلسـفي يمتاز عن البحث العلمي الاعتيادي بالإقدام على أوسع التركيبات وبالبحث عن أشمـل القوانين وأعمق الأسباب.

ومما تجب ملاحظته في هذا الصدد، أن « أشمل القوانين وأعمـق الأسـباب » في تطور الأمم، لا يمكن أن تكشف بدرس الوقائع التاريخية وحدها، بل إن اكتشاف مثـل هذه القوانين الشاملة والأسباب العميقة يتطلب ملاحظة أحوال الأمم الحاضـرة مثـل ملاحظة الأمم البائدة، ودرس الحادثات الاجتماعية الحالية مثل درس الحادثات الماضية، ومن البديهي أن هذه الأبحاث تتعدى حدود « التاريخ » البحت، وتـدخل في نطـاق الاجتماعيات العامة، فتكون حينئذٍ من مواضيع « الفلسفة الاجتماعيـة »، أو «علـم

الاجتماع » بوجه عام.

ولهذه الأسباب صارت المؤلفات المتعلقة بفلسفة التاريخ تقل شيئاً فشيئاً، تاركة محلها للمؤلفات التي تحمل عنوان « علم التاريخ » ، أو « أصول التاريخ » من جهة، وللأبحاث التي تدخل في نطاق علم الاجتماع، أو الفلسفة الاجتماعية من جهة أخرى.

إن مقدمة ابن خلدون من نوع المؤلفات التي عرفت في أوروبا باسم « فلسفة التاريخ » في القرن الثامن عشر، وباسم « علم التاريخ » أو « المدخل إلى التاريخ » في القرن التاسع عشر، وفي الواقع إنها تتضمن في الوقت نفسه آراء ومباحث ونظريات اجتماعية هامة، فيجب أن نعدها من هذه الوجهة من نوع المؤلفات المتعلقة بـ « الفلسفة الاجتماعية » وبـ « علم الاجتماع » أيضاً.

غير أنه يجب ألا يغرب عن البال بأنها تتألف في حقيقة الأمر من « المقدمة والكتاب الأول » من سفر تاريخي كبير، وترمي قبل كل شيء إلى « تمييز الحق من الباطل في الأخبار» عند تدوين التاريخ، وتسعى إلى إيجاد « معيار صحيح يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع » كما صرح بذلك ابن خلدون نفسه، حينما عقب على العبارة الآنفة الذكر بقوله « هذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا ».

ولهذا السبب يجب أن ينظر إلى مقدمة ابن خلدون ــ قبل كل شيء ــ كمؤَلف في فلسفة التاريخ، فيجب أن نقارنها بأمثالها من المؤلفات التي حامت حول فلسفة التاريخ، قبل أن نقدم على مقارنتها بالكتب الباحثة عن الفلسفة الاجتماعية، أو علم الاجتماع.

إن دراسة لأحد كبار فلاسفة أوربا لتلقي ضوءاً ساطعاً يعكس الحقيقة الواضحة بين مقدمة ابن خلدون، فقد ظهر كتاب شامل في فلسفة التاريخ لـ (روبرت فلينت) الذي كان أستاذاً في جامعة أدنبرة بعنوان « فلسفة التاريخ في فرنسا وألمانيا »، ويظهر

من مطالعة هذا الكتاب أنه اطلع على مقدمة ابن خلدون، بل إنه أشار إلى ذلك بإبدائه إعجابه الكبير بهذا الفيلسوف، يقول مثلاً : «إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ فقط، وجدنا من يتفوق عليه حتى من بين الكتاب العرب أنفسهم، أما كواضع نظريات في التاريخ فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان، حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلاثمائة عام، ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له، أما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه».

ويظهر من مطالعة مقدمة هذا الكتاب، أن المؤلف كان قد اطلع خلال هذه المدة على مقدمة ابن خلدون، وأعجب بها إعجاباً شديداً فكتب عن ابن خلدون ما يلي : « من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ، يتحلى الأدب العربي باسم ألمع الأسماء، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى، يستطيع أن يقدم اسماً يضاهي في لمعانه ذلك الاسم ـــ ويقصد ابن خلدون ـــ ».

وقوله : «إنه يستحق الإعجاب بما أظهره من روح الابتكار والفراسة والعمق والإحاطة».

وقوله الحاسم: «غير أن كل من يقرأ مقدمته بإخلاص و نزاهة لا يستطيع إلا أن يعترف بأن حق ابن خلدون في ادعاء هذا الشرف ـــ شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ و فلسفة التاريخ ـــ أقوى و أثبت من حق كل كاتب آخر سبق فيكو».

ويظهر في باقي صفحات الكتاب أن روبرت فلينت يعد ابن خلدون متفوقاً أكيداً على جميع من كتب في فلسفة التاريخ، ليس من قبله فحسب، بل خلال القرون الثلاثة التي تلت وفاته أيضاً .

إن صدور مثل هذه الكلمات التقديرية من المؤلف المشار إليه بالرغم من نزعته الدينية الشديدة المعروفة عنه في أوروبا، يدل دلالة واضحة على شدة إعجابه بمقدمة ابن خلدون عند اطلاعه عليها، بعد انكبابه على درس جميع المؤلفات التي تحوم حول فلسفة

التاريخ منذ بدء التفكير في العالم القديم حتى عصره.

لقد كان ابن خلدون بحق أول مفكر استطاع أن يكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته، وأن ينظر إلى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته، لقد كان شغوفاً بالتاريخ مع معاناته للسياسة فجاءت تجربته غنية.

وإن شهادة روبرت فلينت في هذا الصدد، تغنينا عن مقارنة مقدمة ابن خلدون بالمؤلفات التي كتبت ونشرت في هذا الفن.

ومع ذلك، فإنني لا أجد حرجاً بتوجيه الضوء باتجاه بعض المقارنات الأخرى، فلو قارنا مقدمة ابن خلدون مثلاً مع كتاب (جوابي باتيستا فيكو: ت1744م = 1157هـ) «العلم الجديد» فسيتبين لنا أن ابن خلدون قد أدرك قضية تعضل الحوادث الاجتماعية وتعقد الوقائع التاريخية حق الإدراك، فحاول أن يلم بجميع العوامل المؤثرة فيها، وبحث عنها بمقياس واسع جداً، شمل بناء المجتمع وطراز المعيشة أيضاً.

في حين أن أبحاث فيكو لم تخرج كثيراً عن نطاق الأدوار الثلاثة المروية منذ القرون الأولى، ــ وأشكال الحكومات الثلاث ــ المقررة في كتب السياسة منذ عهد اليونان ــ ولم يلتفت إلى بناء المجتمع، ولا إلى وسائط المعاش.

ويتبين من تفاصيل أبحاث الطرفين أن ابن خلدون يتفوق على فيكو تفوقاً كبيراً من حيث شمول النظر، ونزعة العمق، وطريقة البحث والاستقراء، ويقترب من طرائق الأبحاث العلمية الحديثة بوجه عام، وطرائق الأبحاث التاريخية والاجتماعية بوجه خاص، اقتراباً واضحاً.

ومما يجدر بالملاحظة في هذا الصدد أننا قمنا بهذه المقارنات من غير أن ننبه إلى تواريخ كتابة الكتابين، أما إذا أخذنا فرق الزمن أيضاً بنظر الاعتبار فإننا نضطر إلى التسليم بأن رجحان كفة ابن خلدون في ميزان المفاضلة يصبح أكثر بروزاً وأشد بداهة.

إذ من المعلوم أن مقدمة ابن خلدون كتبت سنة 779هـ = 1377م ، في حين

أن العلم الجديد نشرت سنة 1725م = 1138هـ، وذلك يعني : أن المقدمة أقدم من العلم الجديد بـ 348 سنة، ومما يجب ألا يغرب عن البال أن هذه القرون الثلاثة والنصف التي مرت بين كتابة الكتابين كانت من أخصب القرون في تقدم الفكر البشري، وأغناها في الانقلابات الفكرية والعلمية الأساسية.

ذلك لأنه في هذه المدة حدثت حركة الانبعاث في أوروبا، وتم اكتشاف أمريكا واختراع الطباعة، كما تم الطواف حول العالم، واختراع التلسكوب ...

فتوسعت بذلك آفاق المعارف الإنسانية توسعاً هائلاً، وفي خلال هذه المدة نشأ «ديكارت، وبيكن، وكبلر، ونيوتن » فانقلبت طرائق التفكير والبحث انقلاباً كلياً، وتعددت طرق الأبحاث العلمية.

فمن أعظم الأمور المشرفة لابن خلدون : أنه سار سيراً علمياً في تفكيره قبل حدوث الانقلابات الفكرية التي أشرنا إليها، في حين أن فيكو ظل بعيداً عن مسالك التفكير العلمي مع أنه عاش وكتب بعد الانقلابات العظيمة التي ذكرناها آنفاً.

إن روبرت فلينت قد قال : « إن حق ابن خلدون في ادعاء شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ أو فلسفة التاريخ، أثبت وأقوى من حق كل كاتب سبق فيكو ».

إن حق ابن خلدون في هذا المضمار أقوى وأثبت من حق فيكو نفسه أيضاً ... وذلك ليس لأنه كان أقدم منه كثيراً فحسب بل لأنه كان أقرب إلى الروح العلمية الحديثة، على الرغم من هذه الأقدمية أيضاً.

ونأتي إلى ابن خلدون و**مونتسكيو**، فمونتسكيو من أشهر رجال الفكر والقلم الذين نبغوا في فرنسا في القرن الثامن عشر، ولد في قصر يقع بالقرب من مدينة «بوردو» سنة 1689م = 1101هـ، ومات في باريس سنة 1755م = 1169هـ.

و من الضروري الإشارة إلى حكم العالم الحاضر على آراء مونتسكيو هذه :

لقد حدد مونتسكيو مفهوم « الإقليم » بحدود ضيقة، لأنــه حصــره في شــدة الحرارة والبرودة تقريباً، كما أنه بالغ مبالغة كبيرة جداً في تأثير ذلك في أحوال الأمــم، وقد فاته أن الإنسان يقاوم تأثير الحرارة والبرودة، بــ « تكيف فسيولوجي طبيعــي » من جهة « وتكيف اجتماعي اصطناعي » من جهة أخرى.

فإن النوع الأول من التكيف يتم بردود الأفعال الحياتية بتقلص وانبساط الأوعية الدموية المحيطة، وبتزايد أو تناقص الإفرازات العرقية تبعاً لحالة الحرارة الخارجيــة، أمــا النوع الثاني من التكيف، فيحدث بتنويع وتنظيم الأغذية والملابس والمساكن حســب مقتضيات الحرارة.

فقد أخطأ مونتسكيو خطأً عظيماً عندما سهى عن ملاحظة الحقــائق الراهنــة، وتوسع كل هذا التوسع في تقدير مبلغ الحرارة في طبائع الأفراد والجماعات، وأوصــل المغالاة في هذا المضمار إلى حد الادعاء بأن النظم الاجتماعية والسياســية والنزعــات الدينية والمذهبية و كثيراً من الأمور الأخلاقية أيضاً تتبع الإقليم بوجه عــام، ودرجــة الحرارة والبرودة بوجه خاص.

إن جميع الأبحاث التي قام بها علماء التاريخ والاجتماع منذ عهد مونتســكيو إلى الآن اتجهت اتجاهاً يخالف المزاعم المذكورة بوجه عام، لأنها دلت دلالة قطعية علــى أن تفشي الجرائم ، وإدمان المسكرات، وطغيان الشهوات ... من الأحــوال الاجتماعيــة المعضلة التي تتبع عوامل كثيرة فتختلف لذلك اختلافاً كبيراً في الإقليم الواحد بين سكان المدن والأرياف، وفي المدينة الواحدة بين الطبقات الغنية والفقيرة، وفي الطبقة الواحــدة بين معتنقي المذاهب والديانات، كما أنها تختلف في كل ذلك بين عهد وعهد، وبين قرن وقرن، فتعليل مثل هذه الأمور الاجتماعية المعضلة بتأثير الإقليم والحرارة مما لا يدل على فهم صحيح للحقائق الاجتماعية.

أما تأسس نظم الاجتماع والحكم، وانتشار الديانات والمذاهب، ونشوء نزعــات

السلم والحرب، فهي من الحادثات التي تتبع سلسلة طويلة ومتشابكة من الوقائع التاريخية، والعوامل الاقتصادية، والتطورات الفكرية والاجتماعية.

إن تعليل وتفسير مثل هذه الحوادث التاريخية والاجتماعية المعضلة، بالعوامل الطبيعية البسيطة مثل درجة الحرارة، والعرض الجغرافي، وخصوبة الأرض، مما لا يتفق مع حقائق العلم الحديث واتجاهاته أبداً.

وإذا أمعنا النظر ورجعنا إلى مقدمة ابن خلدون على ضوء ما ذكرناه آنفاً، وجدنا أنها كانت أكثر فهماً للحقائق الاجتماعية، وأشد تمشياً مع مناحي الأبحاث العلمية.

إن ابن خلدون أيضاً قال بتأثير الإقليم والطبيعة في أخلاق الإنسان وطبائعه، ولكنه لم يغال في هذا المضمار كما غالى مونتسكيو، فلم يقع في الأخطاء التي وقع فيها هذا المفكر المشهور.

إن مطالعة تلك الدراسة ــ ومقارنة الآراء المذكورة فيها بالنظريات المسرودة آنفاًــ يظهر بوضوح أعظم : أن ابن خلدون كان أقرب إلى فهم « طبيعة الحياة الاجتماعية » وإلى إدراك « روح التاريخ وفلسفته » من مونتسكيو بدرجات، على الرغم من أنه كان قد عاش وفكر وكتب قبله بمدة طويلة تقرب من أربعة قرون [395].

6 ــ ابن خلدون و علم الاجتماع:

ظهر لدى الباحثين أنه لا يوجد من بين أنواع الدراسات الاجتماعية السابقة لمقدمة ابن خلدون نوع يتفق في أغراضه ومناهجه مع ما نسميه الآن علم الاجتماع.

ومعنى هذا أنه قبل ظهور مقدمة ابن خلدون لم يكن علم الاجتماع قد أُنشيء بعد، وأنه لم يفكر أحد من قبل ابن خلدون في إنشائه ولا في وضع أساس له.

ويرجع السبب في هذا إلى أن دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة التي يسير عليها علم الاجتماع لا تتاح إلا لمن ثبت أن لديه هذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات، ولا حسب ما يريده لها الأفراد، وإنما تسير في نشأتها وتطورها ومختلف

أحوالها حسب قوانين ثابتة مطردة كالقوانين الخاضع لها القمر في تزايده وتناقصه، والنهار والليل في اختلافهما باختلاف الفصول، وهذه الحقيقة لم يصل إليها تفكير أحد من قبل ابن خلدون، بل إن نقيضها كان هو المسيطر على أفكارهم جميعاً.

فقد كان المعتقد أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين، وخاضعة لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمشرعين ودعاة الإصلاح، ولذلك لم يكن من الممكن حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على الوجه الذي تدرس به فيما نسميه الآن «علم الاجتماع».

إلى هذا الحد وقف تفكير السابقين لابن خلدون في فهم الظواهر الاجتماعية، أما ابن خلدون فقد هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشؤون الاجتماع الإنساني إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون وأنها محكومة في مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات.

ومن ثم رأى أنه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة «وضعية» كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى، أي للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين، وعلى هذا البحث وقف دراسته في «المقدمة».

فمن بحوث ابن خلدون في المقدمة يتألف إذن علم جديد لم يعرض له أحد من قبل، وقد سماه ابن خلدون «علم العمران البشري» أو «الاجتماع الإنساني»، وهو العلم نفسه الذي نسميه الآن «السوسيولوجيا» أي «علم الاجتماع»، لأن قوام هذا العلم هو دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التي تخضع لها.

وفي هذا يقول ابن خلدون نفسه : « وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض الذاتية، وهذا شأن كل علم من العلوم».

ويقصد ابن خلدون من كلمة «العوارض الذاتية» أو «ما يلحق المجتمع من

العوارض لذاته» وهي العبارة التي استخدمها هنا وفي مواطن أخرى كثيرة من مقدمته، ما نقصده نحن من كلمة القوانين، ويتضح قصده هذا من منهجه في دراسته ومما كتبه هو نفسه في الباب السادس من مقدمته في أثناء حديثه عن علم الهندسة إذ يقول : «هذا العلم هو النظر في المقادير، إما المتصلة كالخطوط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية، مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين، ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية، ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان».

فهذا يدل على أنه يقصد من كلمة «العوارض الذاتية» ما نقصده نحن من كلمة «القوانين».

ويقرر ابن خلدون نفسه أن دراسة ظواهر الاجتماع على هذا الوجه لم يسبقه إليها أحد فيما يعلم.

وفي هذا يقول : «واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص». وبعد أن بين الفرق بينه وبين البحوث السابقة له على النحو الذي أوضحناه فيما سبق، قال : «وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة، وما أدري ألغفلتهم عن ذلك ؟ وليس الظن بهم»، ثم يعقب على ذلك بعبارة يبدو فيها تحفظ العلماء وتواضعهم فيقول : «ولعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه و لم يصل إلينا، فالعلوم كثيرة، والحكماء في أمم النوع الإنساني كثيرون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل».

والحقيقة أننا لم نعثر إلى الآن على بحث سابق لبحوث ابن خلدون في المقدمة قد تناول ظواهر الاجتماع في مجموعها، على أنها موضوع شعبة مستقلة، ودرسها كما تدرس العلوم الرياضية والطبيعية ظواهرها، أي للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من

قوانين.

ونأتي بعد ذلك إلى علم الاجتماع نفسه في المرحلة ما بعد ابن خلدون، ذلك العلم الذي يعتقد الغربيون أن (أوغست كونت: ت 1853م = 1270هـ) هو الذي أسسه على الوجه الإيجابي الذي هو عليه الآن، أي اكتشاف العوامل الفعالة في المجتمع وضبطها بقوانين، والحقيقة أن ابن خلدون فعل ذلك قبل كونت بأربعمائة وخمسين عاماً.

وبرزت بعد ذلك بين الباحثين المتأخرين مشكلة جديدة : ما نسبة علم الاجتماع الجديد إلى العلوم التي كان يُبحث فيها من قبل على أنها بعض وجوه المجتمع كعلم الأخلاق والسياسة والاقتصاد وما إليها ؟. لقد أصر نفر على أن تظل تلك العلوم مستقلة بعضها عن بعض، ولكن الدرس والمناقشة والتمحيص دلت على تخلخل هذه النظرة، وأخيراً اتضح أن علم الاجتماع يجب أن يشمل جميع الجهود في نواحي الاجتماع الإنساني، إن علم الأخلاق وعلم السياسة وعلم الاقتصاد وعلم الحقوق ليست كلها سوى مظاهر لهذا العلم الشامل الذي نسميه علم الاجتماع.

وهنا يذكر مؤرخو العلم والفلسفة في أوروبا أن فضل أوغست كونت لا يرجع إلى أنه «أول من درس الحادثات الاجتماعية، بل إلى أنه أول من نظر إلى المجتمع على أنه كل، ثم اتخذ من أجل ذلك موضوعاً لعلم مستقل قائم بنفسه».

ونحن إذا تأملنا مقدمة ابن خلدون بأيسر نظر تكشف لنا أن هذا الذي يعزى الفضل فيه إلى أوغست كونت قد فعله ابن خلدون كله مفصلاً واضحاً قبل أربعمائة وخمسين عاماً على الأقل.

ومع أننا لا ندفع أوغست كونت ولا غيره عن العبقرية والفضل، فإن الإنصاف يقضي أن نذكر الفضل لصاحبه الأول، أو لصاحبه الحقيقي على الأصح ابن خلدون، فابن خلدون لم يؤسس علم التاريخ فحسب، بل ابتدع علم الاجتماع أيضاً.

إن ابن خلدون سبق علماء الاجتماع بقرون طويلة : فقد سبق (غبرييل تارد) بالقول بالمحاكاة والتقليد، وكان ابن خلدون أعمق وأدق لأنه أعطى رأياً متميزاً، وعـدّ التقليد ظاهرة ضعف لا دلالة قوة.

وسبق (دوركهايم) بالقول بالقسر الاجتماعي، وقال : الإنسان ابن مجتمعه، و تفرض الظاهرة الاجتماعية نفسها على الأفراد.

ومن عبقريات ابن خلدون الأخرى عقده في مقدمته فصلاً ممتازاً في حقيقة الرزق والكسب، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية، ويكون بذلك قد سبق (كارل ماركس) في نظرية فضل القيمة.

يقول عن ذلك: «أيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك ــ أعني في إنتاج السلع ــ وما حصلت عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض، فالإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز دور الضعف سعى في اقتناء المكاسب ينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها» .

ويمضي ابن خلدون في بيان نظريته، فيقول تماماً كما قال كارل ماركس بعده بكثير «إن قيمة العمل إنما تقاس بكميته»، فيقرر بصريح العبارة: «وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما ــ أي في النجارة والحياكة ــ أكثر فقيمته أكثر»، وعلى هذا فإن العبرة في تقويم سلع الإنتاج هي بكمية العمل التي بذلت لتحصيلها، ذلك أن العمل المبذول في صناعة قطع الأثاث أكبر من العمل الذي بذل في قطع الأشجار، والعمل المبذول في النسيج أكبر منه في الغزل، ولهذا يجب أن يجري تقويم كل نوع منهما وفقاً لذلك، فيكون الأول أغلى من الثاني».

ويختم ابن خلدون بحثه بعبارة حاسمة يصوغ فيها نظريته كلها وهي : «إن المفادات المكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية »، ويلح في توكيده

معنى استمداده القيمة من العمل عدة مرات طوال هذا الفصل، والفصل الذي يليـــه (في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه) فيقرر أن «ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتحـــولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى من قيمة عمله وهو القصد بالقيمة، إذ لـــيس هنـــاك إلا العمل».

ويقول ابن خلدون: « في العصبية والعمران البدوي : اعلم أن اختلاف الأجيـــال في أحوالهم إنما هو اختلاف نحلتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هـــو للتعـــاون علـــى تحصيله و الابتداء بما هو ضروري ... فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة و الزراعة و منهم ... فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم و كان حينئـــذ اجتمـــاعهم و تعاونهم في حاجاتهم و معاشهم و عمرانهم من القوت و الكن و الدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلـــك ثم ... واختطاط المدن والأمصار للتحضر »[396] .

علق محمد سعيد طالب على هذا النص بقوله : « هذا نص خلدوني متميـــز فيـــه تقرير لقانون اقتصادي اجتماعي جعله كارل ماركس في القرن التاسع عشر – أي بعد ابن خلدون بخمسمائة عام – أساساً لما سماه بالمادية التاريخية التي هـــي لـــب فلســـفة البراكسيس : التغيير والممارسة، التي أنشأها مع رفيقه أنجلز ودعاه بأســـلوب الانتـــاج، فأسلوب الانتاج هو الذي يقرر طبيعة وجـــوهر العلاقـــات الاجتماعيـــة والسياســـية والحقوقية والثقافية والاقتصادية، وقد سماه الماركسيون اللاحقون نمط الإنتـــاج ليكـــون أكثر إحاطة بالنواحي الاجتماعية والسياسية والروحية والاقتصادية، ويسميه ابن خلدون هنا (النحلة من المعاش) والنحلة من المعاش هي التي تقرر جوهر الاجتمـــاع البشـــري بدوياً أم حضرياً »(397) .

7 ــ المادية التاريخية عند ابن خلدون:

إن فكر ابن خلدون فكر عملي ، وعلميته تكمن في أنه يبحث في حركة التاريخ

المادية وشروطها الفعلية ، عن الأسباب التي تفسر الأزمات التي تمنع الاستقرار وتنطلق فيه في حركة تطور دائم ومتصاعد ، بدلاً من أن يكون أسير حركة دائرية متكررة ، وفي تعبير آخر إن الشرط الأول لتكون علم تاريخي هو أن ننظر في التاريخ بعين مادية تجد في التاريخ نفسه أسباب حركته وظاهراته.

ولعل ابن خلدون هو الوحيد بين المؤرخين ، الذي حاول بالإضافة إلى وضعه خلاصة لأصول نقد المصادر التاريخية ، أن يقف على ما بها من العوامل والأسباب الخفية ، على حين أقام سائر المؤرخين وجمهورهم على مراقبة موكب الأحداث في طرب وجدل قد يبلغ أحياناً قدراً معيناً من تفهم الأداة السياسية والإدارية التي كانت تلوح كأنما هي المصرف لتعاقبها ، غير أنهم ظلوا قانعين بقبولها على حسب قيمتها السطحية و لم يهتموا كثيراً بدلالتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله : (ولما طالعت كتب القوم ، وسبرت غور الأمس واليوم ، نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم ، وسُمتُ التصنيفَ من نفس وأنا المفلس أحسن السوم، فأنشأت في التاريخ كتاباً، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسبابا ... فهذبتُ مناحيه تهذيباً، وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريباً ، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً ، واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً ، وطريقة مبتدعة وأسلوباً ، وشرحت

فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك) .

وقد استطاع ابن خلدون من خلال مقدمته وضع نظرية عامة طرح فيها بشكل عبقري لأول مرة بوضوح تام فكرة التقدم الاجتماعي ، فكرة التطور التاريخي بعد أن حلل الوقائع التاريخية تحليلاً نقدياً عميقاً ، وبفضل هذا التحليل وحصيلته المباشرة —

فكرة التطور التاريخي ــــ أصبح ابن خلدون أول مفكر ينادي ببناء علم جديد للتــــاريخ يدرس الحياة الاجتماعية بكافة جوانبها، علم جديد تكون المسألة المركزية فيه الكشف عن القوى المحركة للعملية التاريخية .

ولكن الأهم من كل ذلك طبعاً، النظرية الاجتماعية لابن خلدون، إن هذا المفكر ولأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي يقوم بالتفتيش عن مصدر العملية التاريخيـــة، عــــن القوى المحركة للتطور الاجتماعي لا في الأشكال الروحية للمجتمــــع، لا في العلاقـــات الأيدلوجية للناس، بل في الجذور المادية للنظام الاجتماعي، في طبيعة الحياة الاقتصـــادية للناس .

وبذلك يعد ابن خلدون رائد المادية التاريخية، ويظهر هذا بوضوح مــــن خـــلال تقسيمه للعمران على أساس بدوي وحضري، وجعل هذا التقسيم قائماً علـــى طريقـــة تحصيل العيش : (اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنما هو باختلاف نحلتهم مــــن المعاش) ، ويربط ابن خلدون بطريقة الإنتاج هذه مجمل أوضـــاع الحيـــاة للجماعـــة ، وبذلك فإن ابن خلدون قال بالفكرة الأساسية في المادية التاريخيـــة ، وهـــي أن تطـــور المعطيات الاقتصادية يقود تطور الحضارة بمجملها، وإن هذه المعطيات الاقتصادية تكون ما يسمى البناء الأساسي أو التحتي، وتتأثر به جملة أمور من البناء الفوقي كـــالأخلاق والقوانين والعادات .

وقد عد ابن خلدون مرحلة البداوة سابقة على مرحلة التحضر : (إن اجتمـــاعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي .... والبدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم ، العاجزون عمـــا فوقـــه ، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه ، ولأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه ، فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما ، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة) .

كما أن المجتمع البدوي يتميز عن المجتمع الحضري في جملة أمور منها :

ـــ أسلوب الحياة والإنتاج والاستهلاك : (أهل البدو، هم المنتحلـــون للمعـــاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأهم مقتصرون على الضروري مـــن الأقـــوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حـــاجي أو كمالي، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال والكن ، لا ما وراءه، وقد يأوون إلى الغيران، والكهوف، أمـــا أقواهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار) .

ـــ البيئة وحال الإقامة: (فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح، كـــان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبـــال، وهـــم عامـــة البربـــر والأعاجم ...

... ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر من ظعن في الأغلـــب لارتيـــاد المسارح والمياه لحيواناهم، فالتقلب في الأرض أصلح لهم ، ويسمون شـــاوية، ومعنـــاه القائمون على الشاة والبقر، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثـــل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة ...

... ومن كان معاشهم في الإبل، فهم أكثر ظعناً وأبعـــد في القفـــر مجـــالاً، لأن مسارح التلول ونباها وشجرها لا يستغنى بها الإبل في قوام حياها عن مراعي الشـــجر بالقفر وورود مياهه).

ـــ الأخلاق والشجاعة: (إن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، فأهـــل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكـــوف على شهواهم منها تلوثت أنفسهم من مذمومات الخلق والشر، وأهل البدو، فعوائـــدهم في معاملاهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير، منهم أقرب إلى الفطرة الأولى).

(وأهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، والسبب في ذلـــك : أن أهـــل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والتـــرف، ووكلـــوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم ، والحاميـــة التي تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم .... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبـــواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، ويتوجسون للنبـــآت والهيعـــات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقـــاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ) .

وعلى الرغم من التفاوت العميق بين البدو والحضر، فالمجتمع ليس بثابـــت فهـــو ينتقل من حال إلى حال ، من حالة المجتمع البدوي إلى الحضري، وهذا ما عبر عنه ابـــن خلدون بقوله: (ذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم علـــى وتـــيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال) .

فأفراد القبيلة تحكمهم رابطة العصبية، وكلما كانت القرابة بين أفراد البدو أكثـــر أصالة كانت العصبية فيهم أقوى، وكانت الرياسة فيها على سائر البطون والقبائل الـــتي تختلط أنسابها ، ويدعم العصبية احترام القبيلة لشيخها وحاجتها للدفاع والهجوم ، وما يلزم عنها من تعاضد وتناصر : (أما أحياءُ البدو فَيزَعُ بعضهم عـــن بعـــض مشـــايخهم وكبرائِهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من والوقار والتجلة ، وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فـــيهم ، ولا يصـــدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبة وأهل نسب واحد ، لأنهم بذلك تشتد شـــوكتهم ويخشى جانبهم ، إذ إنعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم ، وما جعل الله في قلـــوب

عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشـــرية ، وبها يكون التعاضد والتناصر ، وتعظم رهبة العدو لهم) .

كما أشار ابن خلدون إلى أن الرياسة تكون بالعصبية الأقوى التي تتغلـــب علـــى الأضعف التي بدورها تلتحم بها، ثم تطلب الغلبة على القبائل القاصية حتى تستبعها، ثم تنتقل القبيلة إلى التحضر وتأسيس الدولة: (ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب، ليقع الغلب بها، وتتم الرياسة لأهلها ... وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية ، فلا بد في الرياسة على القوم ، أن تكون من عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم ، أقروا بالإذعان والاتباع) .

(ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهـــل عصبية أخرى بعيدة عنها ، فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالاً وأنظاراً ، وإن غلبتـــها ، واستتبعتها التحقت بها أيضاً وزادت قوة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلـــب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد ، وهكذا دائماً حتى تكافئ بقوتها قوة الدولـــة في هرمها، فإن أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها ، وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها ، وإن انتهت قوتهـــا ولم يقارن ذلك هرم الدولة ، وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتـــها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها ، وذلك ملكٌ آخر دون الملك المستبد ... وسبب ذلك أن القبيلة إذا غلبت بعض الغلب ، استولت على النعمة بمقداره ، وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم خصبهم ، وضربت معهم ذلـــك بســـهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها ... فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة) .

بيد أن عوامل تحضر الدولة هي ذاتها عوامل تدهورها ، ذلـــك أن الحضـــارة وإن

كانت غاية العمران ، فهي في الوقت نفسه مؤذنة بنهاية عمره ، وأول هذه العوامل هي العصبية ، التي بها تتم الرياسة والملك ، ولكن صاحب الرياسة يطلب بطبعه الانفراد بالملك والمجد : (وإذا تعين له ذلك ، فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة ، فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم ، فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلج شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم ، وتقرع عصبيتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر ، لا ناقةً ولا جملاً فينفرد بذلك المجد بكليته) .

على أن العامل الحاسم والأقوى في ضعف الدولة هو الترف ، فإنه إذا كان قد زاد من قوة الدولة في أولها فإنه أشد العوامل أثراً في ضعفها وانهيارها : (فإذا حصل الملك وأقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكفلونها في طلبه ، وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس ، فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم .... وإذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم ، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ، ويزيح عللهم والجباية مقدار معلوم ، ولا تزيد ولا تنقص ، وإن زادت بما يستحدث المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً ، فإذا وزعت الجباية على الأعطيات ، وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات ، ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك ، فينقص عدد الحامية ، ثالثاً ورابعاً إلى أن يعود العسكر إلى أقل العدد ، فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول ، أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب) .

كما أن الترف يؤدي إلى فساد الخلق ، وبالتالي انهيار العامل الأخلاقي النفسي الذي يشكل معول هدم للدولة : (الترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها ، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه ، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر ، فيكون علامة على الإدبار والانقراض ، وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها ، وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها) .

ومن العوامل المفضية إلى انهيار الدولة هي الدعة التي تذهب خشونة البداوة: (إن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه ، وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقاً ، صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها ، فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة ، وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس ، وتعود الافتراس ، وركوب البيداء ، هداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة ، والشارة فتضعف حمايتهم ، ويذهب بأسهم ، وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم ، ثم لا يزالون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم ، وينغمسون فيها ، وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة ، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً ، وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى إن كانت لهم).

ولم يكتف ابن خلدون بالقول بفكرة التعاقب بل ذهب إلى أبعد من ذلك بقياس الدولة أو الحضارة على حياة الإنسان ، ويجعل للدول أعماراً طبيعية كالأشخاص : (أما أعمار الدول أيضاً: فالدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال ، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين:

ــ الجيل الأول: لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف

العيش والبسالة والافتراس والاشتراك بالمجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم ، والناس لهم مغلوبون .

ـــ الجيل الثاني: تحول حالهم بالملك والترفه، من البداوة إلى الحضارة، من الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك بالمجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه .

ـــ الجيل الثالث: ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويبلغ فيهم الترف غايته، فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم ، فإذا جاء المغالب لهم لم يقاوموا مدافعته ، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغنـــاء، حتى يأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت) [398].


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

حواشي الكتاب

- حواشي المدخل والقسم الأول:

(1) الأسس البنيوية في الحضارة الإسلامية، مأمون ياسين، ص15- 21.

(2) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص23- 28. في فلسفة الحضارة: أحمد محمود صبحي، ص3 – 5 . التفسير الإسلامي للتاريخ: عماد الدين خليل، ص174 وما بعد.

(3) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص29.

(4) قصة الحضارة: ول ديورانت، ج1ص4.

(5) [الأعراف : 163] .

(6) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص32- 35.

(7) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص58 - 62. وانظر وجهة العالم الإسلامي: مالك بن نبي، ص 54 - 60 . وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 11 – 30.

(8) انظر قصة الحضارة: ول ديورانت، ص5 وما بعدها. مختصر دراسة التاريخ: آرنولد توينبي، ص 101 وما بعدها. الديانة الفرعونية: واليس بدج، ص93 وما بعدها. الموسوعة العربية العالمية: الحضارة.

(9) الموسوعة العربية العالمية، مصر. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(10) الموسوعة العربية العالمية، مصر. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(11) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص35. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، 117 – 146. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179.

(12) الموسوعة العربية العالمية، مصر. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، 117 – 146. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(13) الموسوعة العربية العالمية، مصر. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، 117 – 146.

(14) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 68- 71. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(15) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص71- 75. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179.

(16) الموسوعة العربية العالمية، مصر. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص117 – 146. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(17) الموسوعة العربية العالمية، مصر. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86.

(18) الموسوعة العربية العالمية، مصر. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86.

(19) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص71- 75. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37.

(20) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 68- 71. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، 117 – 146.

(21) الموسوعة العربية العالمية، مصر. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفـــالين، ج1، ص 117 – 146. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86. مصر القديمة: يـــان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(22) الموسوعة العربية العالمية، مصر. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فـــرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص117 – 146.

(23) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص71- 75. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(24) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص71- 75. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 117 – 146.

(25) الموسوعة العربية العالمية، مصر. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 117 – 146. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمـــد ســـليم، ص 9 – 179. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(26) الموسوعة العربية العالمية، مصر. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86.

(27) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص71- 75. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37.

(28) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص71- 75. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 117 – 146.

(29) الموسوعة العربية العالمية، مصر. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179. مصر القديمة: يان أسمان، ص 41 – وما بعد.

(30) الموسوعة العربية العالمية، مصر. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فـــرح، ص 71 – 75. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف.

ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 117 – 146. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 44 - 132.

(31) الموسوعة العربية العالمية، مصر. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص76، 77. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 147 - 154. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 87 – 183. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 44 -132. مصر القديمة: مختار السيوفي، ص 83 – 232.

(32) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص93- 94 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص76، 77. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 147 - 154. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 44 -132.

(33) الموسوعة العربية العالمية، مصر. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 117 – 146. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 9 – 179. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 3 – 86.

(34) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص93- 94 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص76، 77. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 87 – 183.

(35) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص94 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص76، 77. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37.

الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 147 - 154. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 87 – 183. تاريخ الحضارات العـــام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 44 -132.

(36) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص95. الحضارة العربية الإسلامية: شـــوقي أبو خليل، ص76، 77. تراث العالم القـــديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايـــه، ج1، ص 44 -132. مصـــر القديمة: مختار السيوفي، ص 83 – 232.

(37) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص95- 96 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص76، 77. تراث العالم القديم: و. ي. دي بـــورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. يـــاكوف، س .كوفـــالين، ج1، ص 147 - 154. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايـــه، ج1، ص 44 -132. مصـــر القديمة: مختار السيوفي، ص 83 – 232.

(38) الموسوعة العربية العالمية، مصر. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 147 - 154. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه بـــاقر، ص 87 – 183. مصر القديمة: مختار السيوفي، ص 83 – 232.

(39) الموسوعة العربية العالمية، مصر. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 147 - 154. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 87 – 183. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 44 -132. مصر القديمة: مختار السيوفي، ص 83 – 232.

(40) الموسوعة العربية العالمية، مصر. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 87 – 183. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 44 -132. مصر القديمة: مختار السيوفي، ص 83 – 232.

(41) الموسوعة العربية العالمية، مصر. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص76، 77. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 30 – 37. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 147 - 154. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 44 -132.

(42) الموسوعة العربية العالمية، السومريون. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 77 – 78. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 102 – 107. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ص 83 – 105.

(43) الموسوعة العربية العالمية، السومريون. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص79. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 108 – 109. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص 216 – 240. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 96 – 117.

(44) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص77- 79. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 108 – 109. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 81 – 94. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص 216 – 240. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 96 – 117.

(45) الموسوعة العربية العالمية، السومريون. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 346 – 355. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 295 – 318. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ص 83 – 105.

(46) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص82. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 114 و ما بعد. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 38 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 81 – 94. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 118 - 137. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 346 – 355.

(47) الموسوعة العربية العالمية، الأكاديون. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 114 و ما بعد. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 38 وما بعد. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 118 - 137. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 281 – 294. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ص 83 – 105.

(48) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص82. الدولة البابلية الحديثة: هديب غزالة، ص 7 – 168. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 114 و ما بعد. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 38 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 95 – 106. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 168 - 174.

(49) الموسوعة العربية العالمية، بابل. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 114 و ما بعد. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 38 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 95 – 106. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 168 - 174. الدولة البابلية الحديثة: هديب غزالة، ص 7 – 168.

(50) الموسوعة العربية العالمية، بابل. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 114 و ما بعد. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 38 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 95 – 106. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 168 - 174. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 366 – 371.

(51) الموسوعة العربية العالمية، الآشوريون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 179 – 187. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ص 281 – 347. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص161 – 163. سورية: علي أبو عساف، ص 499 – 512.

(52) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص91- 92. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 155 و ما بعد. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 38 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 179 – 187. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ص 281 – 347. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص161 – 163. سورية: علي أبو عساف، ص 499 – 512.

(53) الموسوعة العربية العالمية، الآشوريون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 179 – 187. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ص 281 – 347. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص161 – 163. سورية: علي أبو عساف، ص 499 – 512.

(54) الموسوعة العربية العالمية، الآشوريون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 179 – 187. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات،

ص 281 – 347. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص161 – 163.

(55) الموسوعة العربية العالمية، الآشوريون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 179 – 187. سورية: علي أبو عساف، ص 499 – 512.

(56) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص136 . تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 136 – 200.

(57) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص136 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصفدي، ص 175 وما بعد. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 137 – 138.

(58) الموسوعة العربية العالمية، السومريون. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصفدي، ص 175 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 107 – 116. الدولة البابلية الحديثة: هديب غزالة، ص 169 – 224.

(59) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص138. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصفدي، ص 175 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 107 – 116.

(60) الموسوعة العربية العالمية، بابل. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56.

تاريخ الشرق القديم: هشام الصفدي، ص 175 وما بعد. تاريخ الحضـــارات العـــام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 136 – 200. الدولة البابلية الحديثة: هديب غزالة، ص 169 – 224.

(61) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فــرح، ص149- 150 . الحضــارة العربيــة الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبــد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصــفدي، ص 175 وما بعد. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جـــانين أوبوايـــه، ج1، ص 136 – 200.

(62) التاريخ القديم وما قبله: نعــيم فــرح، ص150- 151. الحضــارة العربيــة الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبــد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصــفدي، ص 175 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 107 – 116.

(63) التاريخ القديم وما قبله: نعــيم فــرح، ص151-152 . الحضــارة العربيــة الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبــد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصــفدي، ص 175 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 107 – 116.

(64) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فــرح، ص152- 153 . الحضــارة العربيــة الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبــد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصــفدي، ص 175 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفـــالين، ج1، ص 107 – 116. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 136 – 200.

(65) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص166 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 188 - 189. تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ص 281 – 347.

(66) الموسوعة العربية العالمية، الآشوريون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 188 - 189. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 166، 171 – 173. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 92 – 95. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56.

(67) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 166، 171 – 173 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 188 - 189. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 92 – 95. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56.

(68) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص171- 172 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 188 - 189. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 92 – 95. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56.

(69) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص172-173 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 188 - 189. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 92 – 95. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 56.

(70) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص194 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 80 - 91. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد

مرعي، ص 39 – 56. تاريخ الشرق القديم: هشام الصفدي، ص 175. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 273 – 281.
(71) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص195- 196 . المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 39 – 102. وما بعد. بلاد الشام: محمد مهران، ص 47، 48. دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، ص 163 – 166، 355 – 358. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 193 وما بعد. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 273 – 281.
(72) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص197 . الآراميون: دوبون سومر، ص 17 – 128. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 262 – 264. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 282، 283. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 296 – 301. بلاد الشام: محمد مهران، ص 193 – 216.
(73) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص198- 199 . الآراميون: دوبون سومر، ص 17 – 128. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 262 – 264. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 282، 283. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 296 – 301. بلاد الشام: محمد مهران، ص 193 – 216.
(74) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص195- 196 . الآراميون: دوبون سومر، ص 129 – 192. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 262 – 264. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 282، 283. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 296 – 301. بلاد الشام: محمد مهران، ص 193 – 216.
(75) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 202 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم

تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448.

(76) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 – 95.

(77) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص207- 209 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(78) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(79) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص199- 201 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2،ص 239 – 267. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور،

ص 278 – 282. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(80) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 202 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448.

(81) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(82) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص202- 204 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(83) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص204- 206 . بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282.

(84) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص207- 209 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(85) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص204- 206 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(86) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282.

(87) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص207- 209 . بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(88) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 –

295. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(89) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 165 – 169. في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، ص 282 – 295. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 21 - 95.

(90) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص206- 207 . بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 239 – 267. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 278 – 282. آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، ص 319 – 448

(91) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 169 - 170. بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 255 – 261. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 99 – 185.

(95) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص207- 209 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 169 - 170. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 255 – 261. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 99 – 185.

(93) الموسوعة العربية العالمية، الكنعانيون. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 169 - 170. بلاد الشام: محمد مهران، ص 75 – 192.

تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 255 – 261. المدن الفينيقية: محمد عصفور، ص 99 – 185.

– حواشي القسم الثاني:

(94) تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص53- 57. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 195 – 204. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 373 – 521. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412.

(95) الموسوعة العربية العالمية، فارس. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 195 – 204. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 373 – 521. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412.

(96) تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص55- 57 . التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 195 – 204.

(97) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص153 . التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 373 – 521. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412.

(98) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص154. التاريخ القــديم ومــا قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمــة: ف. يــاكوف، س .كوفــالين، ج1، ص 195 – 204. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 373 – 521.

(99) تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص53- 55. التاريخ القديم وما قبلــه: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 195 – 204. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 195 – 204.

(100) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص155 . التاريخ القديم ومــا قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمــة: ف. يــاكوف، س .كوفــالين، ج1، ص 195 – 204.

(101) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص154 . التاريخ القديم ومــا قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 373 – 521.

(102) الموسوعة العربية العالمية، فارس. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفــالين، ج1، ص 195 – 204. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412.

(103) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص156 . التاريخ القديم ومــا قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص

47 -50. الحضارات القديمــة: ف. يــاكوف، س .كوفــالين، ج1، ص 195 – 204.

(104) الموسوعة العربية العالمية، فارس. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضــارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 195 – 204. معالم تاريخ الشــرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412.

(105) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعــي، ص156- 157 . التــاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمة: ف. يــاكوف، س .كوفــالين، ج1، ص 204 – 207. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طــه بــاقر، ج2، ص 373 – 521.

(106) تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص53- 55 . التاريخ القــديم ومــا قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 195 – 204. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طــه بــاقر، ج2، ص 373 – 521. معالم تاريخ الشرق الأدنى القــديم: محمــد عصــفور، ص 399 – 412.

(107) الموسوعة العربية العالمية، فارس. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضــارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 204 – 207. معالم تاريخ الشــرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412. تاريخ الحضارات العــام: أندريــه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 214 – 235.

(108) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص156- 157 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 204 – 207. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 214 – 235.

(109) الموسوعة العربية العالمية، فارس. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 236 – 247. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 47 -50. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 204 – 207. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، ص 399 – 412. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 214 – 235.

(110) الموسوعة العربية العالمية، الهند. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 35 – 40. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 251 -264. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(111) الموسوعة العربية العالمية، الهند. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 35 – 40. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 251 -264. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 160 -171. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(112) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص35. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 251 -264. . المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 160 -171. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(113) الموسوعة العربية العالمية، الهند. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 35 – 40. . المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 160 -171. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(114) الموسوعة العربية العالمية، الهند. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 251 -264. . المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 160 - 171. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(115) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص36- 37. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 251 -264. . المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 160 -171.

(116) الموسوعة العربية العالمية، الهند. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 35 – 40. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 251 -264. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(117) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص36- 37. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 251 -264. . المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 160 -171. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(118) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص38- 40 . . المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 160 -171. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 209 – 220.

(119) الموسوعة العربية العالمية، الهند. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 40 – 41. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 265 -226. . المدخل إلى

تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 171 - 174 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 221 – 224. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه،ج1، ص 547 – 573.

(120) الموسوعة العربية العالمية، الهند. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 265 -226. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 171 - 174 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 221 – 224. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه،ج1، ص 547 – 573.

(121) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص265- 266 . الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 40 – 41. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبدا لله وعيد مرعي، ص 171 - 174 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 221 – 224. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه،ج1، ص 547 – 573.

(122) الموسوعة العربية العالمية، الصين. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 225 – 242. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 41 – 42. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 274 – 280. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 191 – 193.

(123) الموسوعة العربية العالمية، الصين. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 225 – 242. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 41 – 42. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 274 – 280. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 191 – 193.

(124) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص41- 42. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 225 – 242. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 274 – 280. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 191 – 193.

(125) الموسوعة العربية العالمية، الصين. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 225 – 242. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 42 - 45. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 274 – 280. المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، ص 191 – 193.

(126) الموسوعة العربية العالمية، الصين. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 242 - 244. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 574 – 604. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 42 - 45. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 280 - 285.

(127) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص191- 192 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 242 - 244. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 574 – 604. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 42 - 45. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 280 - 285.

(128) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص192 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 242 - 244. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 574 – 604. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 42 - 45. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 280 - 285.

(129) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص192- 193 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 242 - 244. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 574 – 604. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 42 - 45. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 280 - 285.

(130) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص192- 193 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص 242 - 244. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، ص 574 – 604. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 42 - 45. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 280 - 285.

(131) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص253 – 279. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 279 – 402.

(132) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص50- 51. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص253 – 279.

(133) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص50- 51. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين

أوبوايه، ج1، 279 – 402. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262.

(134) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص253 – 279. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262.

(135) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص280 – 298. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 525 – 554.

(136) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 279 – 402. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص280 – 298.

(137) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 279 – 402. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص280 – 298. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 525 – 554.

(138) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص50- 51. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص2923 – 312. شجرة الحضارة:

رالف لنتون، ج2، ص280 – 298. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53.

(139) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص280 – 298. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 525 – 554.

(140) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص280 – 298. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 525 – 554.

(141) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص51- 53. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 279 – 402. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 291 – 308. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 49 – 53. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262.

(142) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص245 – 262. شجرة الحضارة: رالف لنتون، ج2، ص280 – 298. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 525 – 554.

(143) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 159 – 197. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 326 – 331. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص263 – 270.

(144) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 159 – 197. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص263 – 270.

(145) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 159 – 197. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص263 – 270.

(146) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 159 – 197. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص263 – 270.

(147) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص51- 53. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 159 – 197. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 279 – 402.

(148) الموسوعة العربية العالمية، الإغريق. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص51- 53. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 159 – 197. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج1، ص263 – 270.

(149) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص53- 54 . تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 218 وما بعد. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 403 – 544. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 555 – 604. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص 326 – 331. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص399 – 432.

(150) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص325 . تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 218 وما بعد. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 403 – 544. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص399 – 432. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 555 – 604.

(151) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص332- 333 . تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ص 218 وما بعد. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص399 – 432. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، ص 555 – 604. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج1، 403 – 544.

(152) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص334-338 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 605 – 636. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 334 -338. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 58 – 62. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 243 وما بعد.

(153) الموسوعة العربية العالمية، روما. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 605 – 636. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 334 -338. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 58 – 62. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 243 وما بعد.

(154) الموسوعة العربية العالمية، روما. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 605 – 636. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99

– 257. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فــرح، 334 -338. الحضــارة العربيــة الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 58 – 62. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 243 وما بعد.

(155) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص334-338 . الحضــارات القديمــة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضــارات القديمة: طه باقر، ج2، 605 – 636. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جــانين أوبوايه، ج2، 99 – 257. التاريخ القديم وما قبله: نعــيم فــرح، 334 -338. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 58 – 62. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 243 وما بعد.

(156) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص334-338 . الحضــارات القديمــة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضــارات القديمة: طه باقر، ج2، 605 – 636. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جــانين أوبوايه، ج2، 99 – 257. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 58 – 62.

(157) الموسوعة العربية العالمية، رومــا. الحضــارات القديمــة: ف. يــاكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه بــاقر، ج2، 605 – 636. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 334 -338. تراث العالم القــديم: و. ي. دي بورج، 243 وما بعد.

(158) الموسوعة العربية العالمية، رومــا. الحضــارات القديمــة: ف. يــاكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه بــاقر، ج2، 605 – 636. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فــرح، 334 -338. الحضــارة العربيــة الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 58 – 62. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 243 وما بعد.

(159) الموسوعة العربية العالمية، روما. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 457 – 609. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 637 – 653. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 334 -338. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 58 – 62. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 243 وما بعد.

(160) الموسوعة العربية العالمية، روما. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 618 – 628. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257، 432-522. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 358 -360. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 271 وما بعد.

(161) الموسوعة العربية العالمية، روما. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 618 – 628. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 637 – 653. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257، 432-522. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 358 -360. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 271 وما بعد.

(162) التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، ص358- 360 . الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 618 – 628. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 637 – 653. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257، 432-522. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 358 -360. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 271 وما بعد.

(163) الموسوعة العربية العالمية، روما. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 618 – 628. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 637 – 653. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257، 432-522. التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، 358 -360. تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، 271 وما بعد.

(164) الموسوعة العربية العالمية، روما. الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ج2، ص 618 – 628. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، ج2، 637 – 653. تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ج2، 99 – 257، 432-522.

(165) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(166) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(167) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص64.

(168) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(169) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(170) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص210- 212 .

(171) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(172) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(173) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص210- 212 .

(174) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(175) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(176) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(177) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(178) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(179) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(180) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص208- 209 .

(181) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(182) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص208- 209 .

(183) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(184) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص208- 209 .

(185) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(186) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص208- 209 .

(187) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(188) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص208- 209 .

(189) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص208- 209 .

(190) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(191) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

- حواشي القسم الثالث:

192 - انظر في تفاصيل مقومات وصفات حضارة العرب والمسلمين كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

193 - أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص201، 218.

194 - حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص128.

195 - [سبأ : 28] .

196 - [الأنبياء : 107] .

197 - [الحجرات : 13] .

198 - [سبأ : 37] .

199 - فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر.

200 - السيرة النبوية: ابن هشام، ج1ص192.

201 - انظر كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي.

202 - [القصص : 77] .

203 - صحيح ابن حبان.

204 - الأسس البنيوية: مأمون ياسين، ص 97 ـ 125. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

205 - صحيح مسلم.

206 - عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية (في العلوم الطبيعية والطب): محمد جودة، ص18. وانظر تاريخنا المفترى عليه: القرضاوي، ص197- 210.

207 - الحضارة العربية: جاك ريسلر، ص51-54 . وانظر تاريخنا المفترى عليه: القرضاوي، ص197- 210.

208 - الحضارة العربية: جاك ريسلر، ص55. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

209 - عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية (في العلوم الطبيعية والطب): محمد جودة، ص18- 20.

210 - عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية (في العلوم الطبيعية والطب): محمد جودة، ص17، 18. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

211 - [التوبة : 34 - 35] .

212 - السنن الكبرى: البيهقي.

213 - [البقرة : 283] .

214 - [الحجرات : 13] .

215 - الأسس البنيوية في الحضارة الإسلامية: مأمون ياسين، ص 265ـــ 300. الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية: محمد ضياء الدين الريس، ص 85 وما بعد.

محاضرات في النظم الإسلامية: محمد العربي، ج1ص 128 وما بعد. فقه الزكـــاة: يوسف القرضاوي، ص 884 وما بعد.

216 - صحيح البخاري.

217 - كتاب الأحكام: ابن ماجه.

[218] - أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: ســـليمان الخطيـــب، ص311 ــ 339. وانظر اقتصادنا: محمد باقر الصدر. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

[219] - العلوم عند المسلمين: هوارد تيرنر، ص42.

[220] - حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص570.

[221] - العلوم عند المسلمين: هوارد تيرنر، ص43. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

[222] - [آل عمران : 20] .

[223] - [الممتحنة : 8] .

[224] - [هود : 18] .

[225] - [يونس : 99] .

[226] - [البقرة : 256] .

[227] - [المائدة : 69] .

228 - السيرة النبوية: ابن هشام، ج5ص303.

229 - [التوبة : 6] .

230 - [القصص : 83] .

231 - أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص227- ص257. وانظر العلاقات الدولية في الإسلام: محمد أبو زهرة، ص47 ـــ 51. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

(232) شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ص393- 396.

(233) بما يخص هذا الموضوع؛ انظر كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 118- 180، وكتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 177 - 209.

(234) لقد سمح الأمويون لأهل البلاد الأصليين أن يستمروا على العمل في معاهدهم العلمية، واستخدموا أولي المعرفة منهم في جميع أعمال الدولة، حتى أنهم ارتضوا في بادئ الأمر أن يُستعمل هؤلاء بلغتهم الأصلية في التدوين والكتابة والحساب، ولكن لم يمض وقت طويل حتى حلّت اللغة العربية محل اللغات الأجنبية، وضُربت النقود بالعربية بأسماء الخلفاء، فتعلم أهل البلاد الأصليين اللغة العربية وأسهموا بنقل العلوم إليها.

(235) مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي: أحمد الشطي، ص84، 85. شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 177، 178.

(236) امتازت مجذمة الوليد التي أسسها في دمشق بين سنتي 86 و97هـ أنها لم تكن كالمجاذم المعروفة في ذلك الزمن التي كانت شبيهة بالسجن، بل كانت قصراً منيفاً محاطاً برياض غناء يسلو بها المريض عن أصابته، ويحسن فيها إليه إحساناً كبيراً، وقد جرت منذ ذلك الحين عادة طريفة عند المسلمين هي تخصيص ربع من أوقافهم إلى المجذومين.

(237) مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي: أحمد الشطي، ص84، 85. شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 177 - 179، 180.

(238) مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي: أحمد الشطي، ص89- 91. شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 180.

(239) مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي: أحمد الشطي، ص92- 96. شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 180- 182.

(240) مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي: أحمد الشطي، ص96- 98. شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 182 – 183.

(241) انظر عن حركة العلم في العصر المملوكي كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار.

(242) مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي: أحمد الشطي، ص98- 101. شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 184.

(243) انظر عنه كتابي: العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 180 - 186 .

(244) نهاية الأرب: النويري، ج31، ص106، صبح الأعشى: القلقشندي، ج3، ص418، الخطط المقريزية: المقريزي ، ج2، ص406.

(245) رحلة ابن بطوطة: ابن بطوطة محمد بن عبد الله، ج1، ص203.

(246) سكردان السلطان: ابن أبي حجلة ، ص54.

(247) نهاية الأرب: النويري، ج31، ص107، تذكرة النبيه: ابن حبيب، ملحق فيه وثيقة وقف السلطان قلاوون على مصالح البيمارستان، وهي وثيقة مهمة جداً تطلعنا على

موضوع اجتماعي مهم هو الرعاية الصحية في مصر في عصر سلاطين المماليك، وتعطي فكرة عن دور الدولة في مجال الرعاية الصحية في العصور الوسطى، ص297، 302.

(248) تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات، ج8، ص26.

(249) تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج1، ملحق، ص303، 306، الخطط المقريزية: أحمد بن علي المقريزي، ج2، ص406، 407.

(250) نهاية الأرب: النويري، ج31، ص107، تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج1، ملحق ص305.

(251) تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج1، ملحق ص305، 306. انظر كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 180 - 182 .

(252) نهاية الأرب: النويري، ج31، ص107، تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج1، ملحق ص302، 303.

(253) نهاية الأرب: النويري، ج31، ص107، 108. الخطط المقريزية: أحمد بن علي المقريزي، ج2، ص406.

(254) تذكرة النبيه: ابن حبيب، ج1، ملحق ص305. انظر كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 182 – 184.

(255) انظر تذكرة النبيه: ابن حبيب، ، ج1، ملحق ص ص307.

(256) نهاية الأرب: النويري، ج31، ص108.

(257) انظر عن هذه المراسيم تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات، ج8، ص23، 26، صبح الأعشى: القلقشندي، ج11، ص249.

(258) تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات، ج8، ص26، 27.

(259) تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات، ج8، ص23.

(260) التعريف بالمصطلح الشريف: العمري، ص196، 197.

(261) التعريف بالمصطلح الشريف: العمري، ص198، 199.

(262) تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات، ج8، ص24، ولمزيد من الوصايا الموجهة للأطباء والكحالين والجرائحيين والمجبرين انظر معالم القربة: ابن الأخوة، ص167ــ 169.

(263) الخطط المقريزية: أحمد بن علي المقريزي، ج2، ص369.

(264) تشريف الأيام والعصور: ابن عبد الظاهر، ص126، 127، وانظر الخطط المقريزية: أحمد بن علي المقريزي، ج2، ص379، 380.

(265) الوفيات: ابن رافع، ج1، ص253، 254، ترجمة الطبيب أحمد بن علي بن مبارك (ت 739هـ - 1338م) : وكان يُدرِّس الطب بجامع ابن طولون، نهاية الأرب: النويري، ج31، ص322، الخطط المقريزية: أحمد بن علي المقريزي، ج2، ص268.

(266) الخطط المقريزية: أحمد بن علي المقريزي، ج2، ص422. انظر كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 184 – 186.

(267) لقد تحدثت مصادر تاريخية إسلامية عديدة عن الإسلام السياسي والنظم الإسلامية، ومن أهمها: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدراية: الشيخ عبد الحي الكتاني. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي. الأحكام السلطانية والولايات الدينية: أبو الحسن علي بن محمد البغدادي الماوردي. الخلافة والملك: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي. درر السلوك في سياسة الملوك: أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي. تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام: برهان

الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فرحون اليعمري. مآثر الإنافة في معالم الخلافة: أحمد بن علي القلقشندي.

من أهم المراجع في الموضوع الذي نتحدث عنه: فقه الخلافة وتطورها: لعبد الرزاق السنهوري. وتاريخ النظم والحضارة الإسلامية: لفتحية النبراوي، وقد استطاعت النبراوي أن توظف المادة العلمية الموجودة في المصادر التاريخية بأسلوب شامل وسلس.

اعتمدت على هذه المصادر التاريخية وعلى هذا المرجع الأخير كثيراً في كتابة هذا البحث المختصر الذي يعطي صورة عامة عن الإسلام السياسي والنظم الإسلامية.
وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 327 – 345.

(268) وفي هذا سبق المسلمون كل النظم الديمقراطية الحديثة في الاعتراف بضرورة موافقة الجماعة على اختيار من يقوم على رعاية مصالحها ومن يوكل إليه تدبير أمورها، وهنا تظهر قيمة وفاعلية الإجماع.

(269) (النساء: 59).

(270) صحيح مسلم.

(271) صحيح مسلم: .

272 – [القيامة: 11] .

(1) [طه : 29 – 32] .

(274) لتفاصيل أوفى عن النظم السياسية في الحضارة العربية الإسلامية؛ انظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

275ـــ انظر عن ابن النفيس: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية و الإسلامية، ج 9ص 349 ـــ 353،. تتمة المختصر في أخبار البشر: زين الدين عمر بن الوردي، ج2ص 334.

الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، ج 2ص 103. طبقات الشافعية: عبد الرحيم الأسنوي، ج 2ص 284. طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب بن علي السبكي ، ج 8ص 305، 306. حسن المحاضرة: عبد الرحمن السيوطي، ج 1ص 444. شذرات الذهب: عبد الحي أحمد بن العماد، ج 7ص 701، 702. وانظر كتابي: العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 433 – 442.

276ـ طبيب يوناني، ترجع مكانته إلى أنه أول من دوّن علم الطب، فهو بذلك صاحب أقدم مؤلفات طبية في التاريخ الإنساني، بغض النظر عن البرديات الفرعونية، عاش خمساً وتسعين سنة، انظر عنه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص 43 وما بعد. قصة الحضارة: ول ديورانت، ج 7ص 184ـ194.

277ـ أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص 201 ـ 213، ابن النفيس: بول غاليونجي، ص100 ـ 104. شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ص 262 ـ 268. معجم الأطباء: أحمد عيسى، ص 292 ـ 296. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: زهير حميدان، ج 4 ص 94 ـ 105. محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس: الجامعة الأردنية، ص 62 ـ 152. مقدمة كتب ابن النفيس التي ستأتي في الأسطر القادمة، الموجز في الطب، والمهذب في الكحل المجرب. وانظر كتابي: العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 433 – 438.

278ـ المهذب في الكحل المجرب: علي بن النفيس، ص 13ـ19، وانظر الكتاب. ومحاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس، 104 ـ 108.

279 ـ شمس العرب تسطع على الغرب: لوبون:26: 263، وانظر مؤتمر الصوفي وابن النفيس: 143 ـ 145.

280 ـ الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 299.

281 ـ الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص 266.

282ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: العمري 9ص 349ـ353. طبقات الشافعية الكبرى: السبكي، ج 8 ص 305، 306. شذرات الذهب: ابن العماد، ج 7ص701، 702.

283ـ انظر كتابي: العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 439 وما بعد.

284 ـ شرح تشريح القانون: علي بن النفيس، ص 18.

285 ـ مقدمة كتاب شرح تشريح القانون: 5، 6.

286 ـ انظر محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس، 141ـ143.

287 ـ الموجز في الطب: علي بن النفيس، ص 12، 37، 40. وانظر الكتاب.

288 ـ كشف الظنون: حاجي خليفة، ج 2ص1900.

289 ـ شرح فصول أبقراط: ابن النفيس، ص 26، 62، 63. وانظر الكتاب. وانظر كتابي: العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 440 وما بعد.

290 ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص501. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج13 ص370. الأعلام: خير الدين الزركلي، ج2 ص310، 311 . معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ج1 ص674. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 345.

291 ـ دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، ص65 ـ 69. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص121 ـ 130. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظة وغيره، ج4 ص 633 ـ637. أثر العلماء المسلمين في الحضارة

الأوروبية: أحمد الملا، ص137. الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: محمد حسين و آخرون، ص108ـ147. شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ص277ـ 278. معجم المؤلفين: كحالة، ج1ص674. حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص490 ،491. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 345 –349.

292 ـ انظر دور العرب في تقدم علم الطب: أمجد الهندي، ص65، 66. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص132ـ 136. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظه و غيره، ج4ص636. تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: محمد زهير البابا، ص175 ـ 178.

293 ـ أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص123. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 353.

294 ـ دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، ص63.

295 ـ شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ص277.

296 ـ دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، ص63.

297 ـ حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص490. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار.

298 ـ أعلام العرب في الكيمياء: فاضل أحمد الطائي، ص 36.

299 ـ مفتاح السعادة: طاش كبري زاده، ص 754، 755. أبجد العلوم: القنوجي، ج2، ق2، ص: 145.

300 ـ مفاتيح العلوم: الخوارزمي، ص 257.

301 - إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء: الدفاع، ص58-64. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص308-310.

302 ـــ وفيات الأعيان: ابن خلكان، ، ج 5 ص 158.

303 ـــ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص 414، 415.

304 ـــ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص 415.

305 ـــ انظر في ترجمة الرازي: الفهرست: محمد بن النديم ، ص 504. عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص 414ـــ427. أخبار العلماء بأخبار الحكماء: علي بن يوسف القفطي، ص 178ـــ182. تاريخ مختصر الدول: غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري: 158. وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج 5ص 157ــــ161. طبقات الأطباء والحكماء: سليمان بن جلجل، ص 71ـــ81. نكت الهيمان في نكت العميان: خليل بن أيبك الصفدي، ص 249، 250. الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، ج3 ص 75 ـــ 77. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص 83 ـــ105. وانظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

306 ـــ أخبار العلماء: القفطي، ص178.

307 ـــ الفهرست: ابن النديم، ص 504.

308 ـــ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص 416.

309 ـــ الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: محمد حسين و آخرون، ص 395.

310 - إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء: الدفاع، ص 164 ،165.

311 – الموجز في تاريخ الطب عند العرب: محمد حسين و آخرون، ص 396. وانظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

312 ـ دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص 53 ـ 55. إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة: الدفاع، ص 183 ـ 239. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص 83 ـ105. الموجز في تاريخ الطب والصيدلة: محمد حسين و آخرون، 395 ـ 399. تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: محمد زهير البابا، ص 140ـ150. قصة الحضارة: ول ديورانت، ص 264 ـ 266، 272، 273. حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص 476، 489. وانظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

313 ـ انظر دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص55 ـ 57. إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة: الدفاع، ص 192ـ195، 205ـ218. الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: محمد حسين وآخرون، ص395 ـ399. مخطوطتان للرازي في طب العيون: تح عبد الوهاب أسعد، ص 12ـ 18. حضارة العرب: لوبون، ص 488، 489. قصة الحضارة: ديورانت، ص 13ص 191، 192. تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: البابا، ص 148ـ150. مسيرة الطب في الحضارات القديمة: جوزيف كلاس، ص 268 ـ271.

314 – إسهام علماء العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص 96. إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة: الدفاع، ص 166.

315 – تاريخ العرب العام: سيديو، ص 445.

316 ـ أبجد العلوم: صديق القنوجي، ج2، ق1، ص: 364، 365.

317 ــ مفتاح السعادة: طاش كبري زاده، ص382، وانظر مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون ، ص 635.

318 ــ مقدمة ابن خلدون: 413. مفتاح السعادة: طاش كـبري زاده، ص376. أبجد العلوم: القنوجي، ج2، ق1، ص: 255.العلوم البحتة في العصـور الإسـلامية: عمر رضا كحالة، ص 118.

319 ــ العلوم البحتة في العصور الإسـلامية: عمـر رضـا كحالـة، ص 144. الرياضيات في الحضارة الإسلامية: موريس شربل، ص 194.

320 ــ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، ص 27.

321 ــ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، ص 28.

322 ــ الرياضيات في الحضارة الإسلامية: موريس شربل، ص 16، 66.

323 ــ انظر تراث الإسلام: شاخت وبوزورث، ج 3ص 168.

324 ــ علم الفلك: كرلو نلينو، ص 19، 20.

325ــ مقدمة ابن خلدون: 641.

326ــ مفتاح السعادة: طاش كبري زاده، ص 978. أبجد العلوم: القنـوجي، ج2، ق2، ص: 280.

327ــ علم الفلك: نلينو، ص: 18، 19.

328ــ مقدمة ابن خلدون: 642، 643.

329ــ العلوم البحتة في العصور الإسلامية:كحالة، ص 173، 174.

330 ــ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي بن شيخ علـي التـهانوي، ج1ص 176.

331 ــ أبجد العلوم: القنوجي،ج2، ق1، ص: 89.

332 ـــ حضارة العرب: لوبون، ص 463.

333 ـــ مقدمة ابن خلدون: 642.

334 ـــ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، ص87، 88.

335 ـــ حضارة العرب: لوبون، ص 456.

336 - انظر عنه: أخبار العلماء : 187 ،188. تاريخ مختصر الدول: ابن العبري، ص138. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص61 ،62. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص123. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 386 وما بعد.

337 - نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص62.

338 - تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص123-130. نوابغ العلماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص63-86. أثر العرب في الحضارة الأوروبية: جلال مظهر، ص285. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 387- 389.

339 - نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص83-85.

- 340 - انظر عنه وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج5ص125. شذرات الذهب: ابن العماد، ج5ص49. الأعلام: الزركلي، ج6ص83. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص150، 151. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص 249. أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

341 - تاريخ الرياضيات العربية: رشدي راشد، ص33 - 46. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص 151 ،152. تراث العرب العلمي في

الرياضيات والفلك: طوقان، ص 249. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظة وغيره، ج4ص628، 629.

- 342 - نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات والفلك: الدفاع، ص 152-157. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص 249 -254. أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

343 - الكافي في الحساب: محمد بن الحسن الكرخي، المقدمة . تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص 254، 255.

344 - كشف الظنون: حاجي خليفة، ص 237. تاريخ الرياضيات العربية: 46. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: رشدي راشد، 156-158. أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

345 - انظر عن كل ذلك : نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص 204-209. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص 402-405. الأعلام: الزركلي، ج 2ص136. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظة وغيره، ج 5ص912. أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

346 - انظر نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص 206.

347 - نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص 206، 207. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص 73. تراث الإسلام: وبوزورث، ج3ص217.

348 - انظر عنه الفهرست: ابن النديم، ص394، 395. أخبار العلماء: القفطي، ص188، 189.وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج2ص119. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج1ص209. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص197 ،198.

349 - تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص202. موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظة وغيره، ج4ص607. أثر العرب في الحضارة الأوروبية: جلال مظهر، ص287.

350 - تاريخ العرب العام: سيديو، ص346.

351 - تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص198-202. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص135.

352 - ذكره ابن النديم في الفهرست بالتفصيل: ص394. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 391.

353 - تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص202-205. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص132-135. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 392، 393.

354 ــ الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج2ص 298، 299. إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر، ج1ص172، 173. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر، ج3ص77. شذرات الذهب: ابن العماد، ج8ص435. وانظر كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص 457، 458.

355 ــ علم المواقيت: هو علمٌ تُعرف منه أزمنة الأيام والليالي وأحوالها وكيفية التوصل إليها، ومنفعته في معرفة أوقات العبادات والطوالع والمطالع من أجزاء البروج

والكواكب الثابتة التي فيها منازل القمر ومقادير الأظلال والارتفاعات وانحراف بعضها عن بعض وسموتها. انظر أبجد العلوم: القنوجي، ج2 ق2ص227، 228.

356 ــ الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي،ج2 ص298، 299.

357 ــ ابن الشاطر: عماد غانم، ص13. مقدمة كتاب علم الساعات و العمل بها: رضوان الساعاتي، ص52.

358 ــ أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج4ص82 . مقدمة كتاب علم الساعات و العمل بها: رضوان الساعاتي، ص51.

359 ــ تاريخ علم الفلك في العراق: عباس العزاوي، ص35، 36 . أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج4 ص82، 88، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص221.ابن الشاطر: غانم، ص14ــ31.

360 ــ جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيّارة: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 5158. وانظر كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار، ص459، 460.

361 ــ زيج ابن الشاطر: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 69.

362 ــ نزهة السامع في العمل بالربع الجامع: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 3264.

363 ــ الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 11053.

364 ــ الربع التام لمواقيت الإسلام: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 3264.

365 ــ رسالة في الإسطرلاب: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 5816.

366 ــ نهاية السؤل في تصحيح الأصول: ابن الشاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م-680 ت أ.

367 ــ جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 15566.

368 ــ ربع الأوتار: ابن الشاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 97 ت 17.

369 ــ الربع الكامل: ابن الشاطر ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم أ ف م 97 ت 19.

370 ــ الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 14497.

371 ــ رسالة في العمل بالربع المجيب: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 9367. وانظر كتابي: العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار.

372 - شمس العرب تسطع على الغرب: هونكه، ص 144 ،145. وانظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

373 ــ أعلام الفيزياء في الإسلام: الدفاع، ص 28ــ30.

374 ــ مقدمة ابن خلدون: ص 492.

375 ــ انظر أعلام الفيزياء في الإسلام: الدفاع، ص 35.

376 ــ عيون الأنباء: ابن أبي أصيبعة، ص550ــ560. أخبار العلماء: القفطــي، ص114ــ116. تاريخ مختصر الدول: ابن العــبري، ص182 ،183، 238. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج2ص 302 ،303. ابن الهيثم: عمــر الطباع، ص45ــ69. الأعلام: الزركلي، ج6ص83، 84. وانظر كتابي: شمــس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 363، 364.

377ــ أثر العرب في الحضارة الأوروبية: مظهر، ص297. أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، ص169 ،170. أعلام الحضارة العربية الإســلامية: حميدان، ج2ص304. الحسن بن الهيثم: رحاب عكاوي، ص93. ابــن الهيــثم: الكتبي، ص153ــ155. ابن الهيثم: الطباع، ص129.

378 ــ أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميــدان، ج2ص304، 305. أعــلام الفيزياء في الإسلام: دفاع وشوقي، ص66ــ67. نوابغ علماء العرب والمســلمين في الرياضيات: الدفاع، ص145. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإســلامية: عمار النهار، ص364 – 365.

379 ــ موسوعة الأوائل والمبدعين: أباظــة وغــيره، ج4ص644، 645. أعــلام الفيزياء في الإسلام: دفاع وشوقي، ص166. أعلام الحضارة العربية الإســلامية: حميدان، ج2ص304.

380 - انظر كتاب ابن الهيثم « في أضواء الكواكب » ص2-8.

381 - ماهية الأثر الذي يبدو على محه القمر: الحسن بن الهيثم، ص31-56. وانظر النص الأجنبي للكتاب لكــارل شــوي: The Trace On The Moons Face.

382 – ماهية الأثر الذي يبدو على وجه القمر: ابن الهيثم، ص53 ــ 55. وانظــر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 367 –370.

383 ــ عبقرية العرب: فروخ، ص107ــ110. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص138ــ140. تراث العــرب العلمــي في الرياضــيات والفلك: طوقان، ص262ــ269. أعلام الفيزياء في الإسلام: الدفاع و شــوقي، ص56ــ59، 162ــ167. موسوعة الأوائــل والمبــدعين: أباظــة وغــيره، ج4ص644، 645. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 370 وما بعد.

384 ــ ابن الهيثم: الطباع، ص 85ــ87. ابن الهيثم: علي عبد اللطيف، ص 349 ــ367. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: ج2ص311. الحسن بن الهيثم: الكتبي: ص 105ــ 158. ابن الهيثم: لعكــاوي، ص 46 ،47. أعــلام الفيزيــاء في الإسلام: الدفاع، ص 166 ،167. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص 138ــ40. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمــار النهار، ص 376، 377.

385 ــ انظر عن هذه الترجمة لابن سينا: عيون الأنباء في طبقات الأطبــاء: ابــن أبي أصيبعة، ص437 ــ 459 . تاريخ مختصر الدول: ابــن العــبري، ص55 ،77 ،176 ،187 ،189 ،240. وفيات الأعيان: ابن خلكــان، ج2ص157 ـــ 162. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج12ص391 ــ 412. دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، 73 ،74. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الــدفاع، ص 138 ــ 144. ابن سينا: حسن عاصي، ص11 ــ 13. حضارة العــرب: غوستاف لوبون، ص489 ،490. مسيرة الطب في الحضارات القديمة: جوزيــف

كلاس، ص273 ــ 278. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 354 – 356.

386 ــ تاريخ العلوم عند العرب: فروخ، ص217، 218. موسوعة الأوائل والمبدعين:أباظة وغيره، ج4ص638. ابن سينا: أرثور سعدييف، ص 154ــ200. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص 148،147. أعلام الفيزياء في الإسلام: الدفاع، ص 191ــ198. وانظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

(387) [الفتح : 26] .

(388) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص38، 39. التفسير الإسلامي للتاريخ: عماد الدين خليل، ص140 وما بعد. وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص 11.

(389) انظر في فلسفة التاريخ الإسلامي: حول التفسير الإسلامي للتاريخ: محمد قطب. في فلسفة الحضارة الإسلامية: عفت الشرقاوي. المدخل إلى التاريخ العربي: إسماعيل العرفي.

(390) انظر علوم الحديث ومصطلحه: صبحي الصالح.

(391) انظر أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، ص39، 40 . وانظر كتابي: شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص11.

(392) انظر في ترجمة ابن خلدون: الضوء اللامع: السخاوي، ج4، ص 145 ــ 147. إنباء الغمر: ابن حجر، ج5، ص 327 ــ 332. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني، ص 345 ــ 348. شذرات الذهب: ابن العماد، ج9، ص114 ــ 115. تراث الإنسانية: ج1، ص286 ــ 294.

وانظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة إلى كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

(393) انظر المقدمة لابن خلدون.

(394) انظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة إلى كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

(395) انظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة إلى كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

396 ــ مقدمة ابن خلدون: ص120.

(397) اعتمد البحث على المصادر و المراجع التالية: مقدمة ابن خلدون. دراسات عن مقدمة ابن خلدون: ساطع الحصري، ص171 ــ 259. ابن خلدون: المكتبة التجارية الكبرى، ص 116 وما بعد. ابن خلدون رائد الفكر الحديث: محمد سعيد طالب، ص 153 وما بعد. ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية :غاستون بول، ص 45 ــ 130. ابن خلدون العبقري الذي ظلمه العرب و أنصفه الغربيون: محمد كامل المحامي، ص 25 ــ 109. ابن خلدون وبداية التفسير المادي للتاريخ: نمير العاني، ص 5 ــ57.ابن خلدون بطل علم التاريخ: دار العودة، ص 87 ــ 95. ابن خلدون وميكافيلي: عبد الله العروي، ص9 ــ44. عبقرية العرب في العلم و الفلسفة: 190 ــ 212. دور العرب في تكوين الفكر الأوربي: بدوي، ص85 ــ 90. موسوعة الأوائل و المبدعين: أباظة وغيره، ج5، ص 904 ــ 906. الحضارة العربية لريسلر: ص167. تراث الإنسانية: ج1، ص286 ــ 294. وانظر كتابي: أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة إلى كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

398 ــ انظر ابن خلدون : (المقدمة) ، وانظر جوانب من حركة التأليف التــاريخي في العصر المملوكي، التراجم والموسوعات: خليل الأحمد الحسين، أطروحة دكتــوراة، دمشق، 2008.

مصادر ومراجع البحث

- مصادر البحث:

- أبجد العلوم: صديق القنوجي، أعده للطبع ووضع فهارسه عبد الجبار زكار، دمشق، وزارة الثقافة، 1988م.

- الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 11053.

- إنباء الغمر بأبناء العمر: أحمد بن علي بن حجر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986م.

- تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات محمد بن عبد الرحيم، تح: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأميركية، 1939م.

- تاريخ مختصر الدول: غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري.

- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام: برهان الدين أبي الوفاء إبراهيم ابن الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن فرحون اليعمري، تح: الشيخ جمال مرعشلي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001م.

- تتمة المختصر في أخبار البشر: زين الدين عمر ابن الوردي، تح: أحمد البدراوي، بيروت، دار المعرفة، ط1، 1970م.

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: الحسن بن عمر بن حبيب، تح: محمد أمين، مصر، مطبعة دار الكتب، 1976م.

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور: محيي الدين بن عبد الظاهر، تح: مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية، ط1، 1961م.

- التعريف بالمصطلح الشريف: أحمد بن يحيى العمري، تح: سمير الدروبي، الكرك، جامعة مؤتة، ط1، 1992م.

- جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيارة: علي بن إبراهيم ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 5158.

- جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 15566.

- حسن المحاضرة: عبد الرحمن السيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1997م.

- الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، إعداد إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1990م.

- درر السلوك في سياسة الملوك: أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، تح:: فؤاد عبد المنعم أحمد، الرياض، دار الوطن، 1417هـ- 1997م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أحمد بن علي ابن حجر، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط2، 1966م.

- ربع الأوتار: ابن الشاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 97 ت 17.

- الربع التام لمواقيت الإسلام: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 3264.

- الربع الكامل: ابن الشاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م 97ت19.

- رسالة في الإسطرلاب: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 5816.

- رسالة في العمل بالربع المجيب: ابن الشاطر:، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 9367.

- الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 14497.

- زيج ابن الشاطر: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ف م19.

- سكردان السلطان: أحمد ابن أبي حجلة، تح: علي عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 2001م.

- السنن الكبرى: البيهقي.

- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار المعرفة.

- السيرة النبوية: ابن هشام، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2001م.

- شذرات الذهب: عبد الحي أحمد بن العماد، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط1، 1991م.

- شرح تشريح القانون: علي بن النفيس، تح: سليمان قطايه، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م.

- شرح فصول أبقراط: علب بن النفيس، تح: ماهر محمد علي، يوسف زيدان، بيروت، دار العلوم العربية، ط1، 1988م.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي ، تح: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م.

- صحيح البخاري: البخاري، تح: مصطفى البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط3.

- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

- ضوء القمر: الحسن بن الهيثم، حيدرأباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، 1357 هـ.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : محمد بن عبد الرحمن السخاوي، بيروت، دار مكتبة الحياة.

- طب الرازي، دراسة وتحليل لكتاب الحاوي: شرح و تعليق محمد كامل حسين و محمد العقبي،دار الشروق، القاهرة.
- طبقات الأطباء والحكماء: سليمان بن جلجل، تح فؤاد سيد، ط2، 1985م.
- طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب بن علي السبكي ، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة، ط2، 1992م.
- طبقات الشافعية: عبد الرحيم الأسنوي، تح: كمال الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تح:: محمد جميل غازي، القاهرة، مطبعة المدني.
- علم الساعات و العمل بها:رضوان الساعاتي، تح محمد دهمان.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة.
- الفهرست: محمد بن النديم ، سوسة، تونس، دار المعارف.
- الكافي في الحساب: محمد بن الحسن الكرخي، تح: سامي شلهوب، جامعة حلب، 1986م.
- كتاب الأحكام: ابن ماجه.
- كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي بن شيخ علي التهانوي، ، بيروت، دار صادر.

- كشف الظنون: مصطفى القسطنطني حاجي خلفية، بيروت، دار الفكر، 1982م.

- ماهية الأثر الذي يبدو على ضوء القمر: الحسن بن الهيثم، تح يوسف زيدان، الاسكندرية، 2002م.

- مخطوطتان للرازي في طب العيون: تح عبد الوهاب أسعد، جامعة دمشق 1976م – 1977م، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراة في الطب.

- معالم القربة في أحكام الحسبة: محمد بن محمد ابن الأخوة، نقل وتصحيح روبن ليوي، القاهرة، مكتبة المتنبي.

- مفاتيح العلوم: محمد الخوارزمي، تح: نهى النجار، بيروت، دار الفكر، ط1، 1993م.

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أحمد طاش كبري زاده، تح: علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1998م.

- المناظر: الحسن بن الهيثم، تح عبد الحميد صبره، المجلس الوطني للثقافة، الكويت،ط1، 2002م.

- المهذب في الكحل المجرب: علي بن النفيس، تح: محمد ظافر الوفائي، محمد رواس قلعه جي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط1، 1988م.

- الموجز في الطب: علي بن النفيس، تح: محسن عقيل، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط1، 2002م.

- نزهة السامع في العمل بالربع الجامع: ابن الشاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م 3264.

- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدراية: الشيخ عبد الحي الكتاني، بيروت، دار الكتاب العربي .
- نكت الهميان في نكت العميان: خليل بن أيبك الصفدي، طبعة أحمد زكي بك، مصر، المطبعة الجمالية، 1911م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب النويري، تح: الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.
- نهاية السؤل في تصحيح الأصول: ابن الشاطر،ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م / 680 ت أ.
- الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط2، 1962م.
- وفيات الأعيان: أحمد بن محمد بن خلكان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.
- الوفيات: تقي الدين أبي المعالي ابن رافع، تح: صالح عباس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1982م.

- مراجع البحث:

- ابن الشاطر:عماد غانم، حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1984م.
- ابن النفيس: بول غاليونجي، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ابن الهيثم : عمر الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1993م.
- ابن الهيثم: الكتبي، وزارة الثقافة، دمشق، 1972م.
- ابن الهيثم: علي عبد اللطيف، عمان، الجامعة الأردنية، 1993م.

- ابن خلدون العبقري الذي ظلمه العرب وأنصفه الغربيون : محمد كامل المحامي، بيروت، المكتب العالمي، 1985م.
- ابن خلدون بطل علم التاريخ : دار العودة، بيروت،ط1، 1974م.
- ابن خلدون رائد الفكر الحديث : محمد سعيد طالب، الأهالي للطباعة، دمشق، ط1، 2001م.
- ابن خلدون وبداية التفسير المادي للتاريخ : نمير العاني، الهمداني للطباعة، عدن، ط1، 1984م.
- ابن خلدون وميكافيلي : عبد الله العروي، تر خليل خليل، دار الساقي، لندن، ط1، 1990م.
- ابن خلدون: محمد عبد الله عنان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط2، 1953م.
- ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية : غاستون بول، تر عادل زعيتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1984م.
- ابن سينا : أرثور سعدييف، تر توفيق سلوم، دار الفارابي، 1987م.
- ابن سينا : حسن عاصي، دار الفكر العربي،بيروت، ط2، 1990م.
- آثار الممالك القديمة في سورية: علي أبو عساف، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1988م.
- أثر العرب في الحضارة الأوروبية: جلال مظهر، دار الرائد، بيروت، 1967م.
- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية: أحمد الملا، دار الفكر.

- الآراميون: دوبون سومر، ترجمة: نـاظم الجنـدي، طرطـوس، دار الأماني، ط1، 1988م.

- أسبقيات الحضارة الإسلامية المنسوبة على كبار علماء الغرب: عمار النهار، مخطوط.

- الأسس البنيوية في الحضارة الإسلامية: مأمون ياسين، بـيروت، دار الهجرة، ط1، 1992.

- أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام: سليمان الخطيب، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1986م.

- إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة: علي عبـد الله دفـاع، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط3، 1987م.

- إسهام علماء العرب والمسلمين في الفيزياء، علي دفاع، جلال شوقي، مؤسسة الرسالة، 1985م.

- إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء: علي عبـد الله دفـاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.

- أعلام الحضارة العربية الإسلامية: زهير حميدان، دمشق، وزارة الثقافة، 1996م.

- أعلام العرب في الكيمياء: فاضل أحمد الطـائي، أعـلام العـرب في الكيمياء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م.

- أعلام العرب والمسلمين في الطب: علي عبد الله الـدفاع، مؤسسـة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.

- أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985م

- الأعلام: خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط12، 1997م.

- اقتصادنا: محمد باقر الصدر، بيروت دار التعارف، ط11، 1979م.

- إمبراطورية إيبلا: علي القيم، دمشق، الأبجدية للنشر، ط1، 1989م.

- بلاد الشام: محمد مهران، الإسكندرية، دار المعرفة، 1990م.

- تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار، جانين أوبوايه، ترجمة: فريد داغر، فؤاد أبو ريحان، بيروت، منشورات عويدات، ط1، 1964م.

- تاريخ الرياضيات العربية: رشدي راشد، تر حسين زين الدين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1989م.

- تاريخ الشرق الأدنى القديم: أنطون مورتكات، ترجمة: توفيق سليمان وغيره.

- تاريخ الشرق القديم: هشام الصفدي، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1992م.

- تاريخ العرب العام : سيديو، تر عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، 1948م.

- تاريخ العلوم عند العرب، عمر فروخ، بيروت، دار العلم للملايين، 1970م.

- التاريخ القديم وما قبله: نعيم فرح، دمشق، مطبعة دار الكتاب، ط4، 1991م.

- تاريخ النظم والحضارة الإسلامية: فتحية النبراوي، جدة، الدار السعودية، ط6، 1996م .

- تاريخ علم الفلك في العراق : عباس العزاوي، دمشق، 1953م.

- تاريخنا المفترى عليه: القرضاوي، القاهرة، دار الشروق، ط3، 2006م.

- تراث الإسلام: شاخت وبوزورث، تر: حسن مؤنس، إحسان العمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، 1978م.

- تراث الإنسانية : دار الرشاد الحديثة، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة.

- تراث العالم القديم: و. ي. دي بورج، ترجمة: زكي سوس، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009م.

- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1954م.

- التفسير الإسلامي للتاريخ: عماد الدين خليل، بيروت، دار العلم الملايين ط2، 1978م.

- جوانب من حركة التأليف التاريخي في العصر المملوكي، التراجم والموسوعات: خليل الأحمد الحسين، أطروحة دكتوراة، دمشق، 2008.

- الحسن بن الهيثم : بشار قاسم، الأردن، مكتبة المنار، ط1، 1985م.

- الحسن بن الهيثم، رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت،1997م.

- الحضارات القديمة: ف. ياكوف، س .كوفالين، ترجمة: نسيم اليازجي، دمشق، دار علاء الدين، ط1، 2001م.

- حضارة العرب: غوستاف لوبون، تر عادل زعيتر، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م.

- الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، طرابلس، ليبيا، ط2، 1993.

- الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، طرابلس، ليبية، ط2، 1993م.

- الحضارة العربية: جاك ريسلر، تر غنيم عبدون، الدار المصرية للترجمة والنشر.

- حول التفسير الإسلامي للتاريخ: محمد قطب، القاهرة، دار الشروق، ط1، 2006م.

- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية: محمد ضياء الدين الريس، القاهرة، دار الأنصار، 1977.

- الخطط المقريزية: أحمد بن علي المقريزي، بيروت، دار صادر.

- دار طلاس، ط1، 1995م.

- دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ساطع الحصري، دار المعارف، مصر، 1953م.

- دراسات في حضارات غربي آسيا القديمة: توفيق سليمان، دمشق، دار دمشق، ط1، 1985م.

- دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، دار سعاد الصباح، بيروت، ط1، 1998م.
- الدولة البابلية الحديثة: هديب غزالة، دمشق، الأهالي للتوزيع، ط1، 2001م.
- الديانة الفرعونية: واليس بدج، ترجمة نهاد خياطة، دمشق، دار العربي، 1986.
- رحلة ابن بطوطة: ابن بطوطة محمد بن عبد الله، تح: عبد الهادي النازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1997م.
- الرياضيات في الحضارة الإسلامية: موريس شربل، لبنان، 1988م.
- سورية: علي أبو عساف، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1988م.
- شجرة الحضارة: رالف لنتون، ترجمة: أحمد فخري، القاهرة، مكتبة الإنجلو مصرية.
- شمس الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، دمشق، دار أفنان، ط1، 2008م.
- شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، تر فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، 2000م.
- عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية (في العلوم الطبيعية والطب): محمد جودة، مكتبة الأسرة، 2004م.
- العصر المفترى عليه؛ عصر المماليك البحرية: عمار النهار، دمشق، مجموعة الكمال المتحدة، ط1، 2007.

- العلاقات الدولية في الإسلام: محمد أبو زهرة، الدار القومية للطباعة والنشر 1384هـ.
- علم الفلك: كرلو نلينو، روما، 1911م.
- العلوم البحتة في العصور الإسلامية: عمر رضا كحالة، دمشق، المكتبة العربية، 1972م.
- علوم الحديث ومصطلحه: صبحي الصالح، دار العلم للملايين.
- العلوم عند المسلمين: هوارد تيرنر، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2004م.
- في تاريخ الشرق الأدنى القديم: أحمد سليم، بيروت، دار النهضة، 1989م.
- في فلسفة الحضارة: أحمد محمود صبحي، الإسكندرية مؤسسة الثقافة الجامعية.
- قصة الحضارة: ول ديورانت، تر علي أبو درة، بيروت، دار الجيل.
- قصة الحضارة: ول ديورانت، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة 1965م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي، القاهرة، دار القلم، ط15، 2000م.
- مجموعة أبحاث عن العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية: أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، 1964م.
- محاضرات في النظم الإسلامية: محمد العربي، مطبعة الشرق العربي.

- محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس: الجامعة الأردنية، 1987م، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط1، 1991م.

- مختصر دراسة التاريخ: آرنولد توينبي، ترجمة فؤاد محمد سبل، القاهرة 1960م.

- المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، منشورات جامعة، دمشق.

- المدن الفينيقية: محمد عصفور، بيروت، دار النهضة، 1981م.

- مسيرة الطب في الحضارات القديمة: جوزيف

- مصر القديمة: مختار السيوفي، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1997م.

- مصر القديمة: يان أسمان، ترجمة: حسام الحيدري، ألمانيا، دار الجمل، 2005م.

- مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى: زعرور وأحمد، جامعة دمشق، 2006م.

- معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: محمد عصفور، بيروت، دار النهضة، ط3، 1984م.

- معجم الأطباء: أحمد عيسى، بيروت، دار الرائد العربي، ط1، 1942م.

- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م.

- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون ، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط2، 1988م.

- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، شركة التجارة، ط2، 1956م.

- الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: محمد حسين و آخرون، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس.

- موسوعة الأوائل والمبدعين: نزار أباظه و غيره، دار المنبر.

- الموسوعة العربية العالمية: الرياض، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع.

- موسوعة علماء الرياضيات: موريس شربل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1991م.

- نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: علي عبد الله الدفاع، دار الاعتصام.

- وجهة العالم الإسلامي: مالك بن نبي، بيروت دار الفكر ط2 1970م.